

شَهَادَةُ الْإِسْلَامِ
فِي عَمَلِ السُّبُورَةِ

شَهَادَةُ الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِ السُّبُورَةِ

بقلم
الدكتور
علي سامي النشار

الطبعة العاشرة



دارالمعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تلك صفحات من تاريخ شهداء الإسلام ، دفعني إلى كتابتها أنها لم تحظَ بعناية الباحثين في التاريخ الإسلامى . فبقيت مجهولة ، إلى أكبر حد ، لدى الكثيرين من المسلمين .

بل إن المسلمين ليعرفون عن شهداء المسيحية أكثر مما يعرفون عن شهدائهم العظماء ، الذين شادوا بدمائهم الأمة الإسلامية ، ورفعوا على أجسادهم قوائمها .

ولعل السبب في هذا راجع إلى اهتمام كثير من مؤرخى المسيحيين وشعرائهم ، بالكتابة عن ضحاياهم ، والتغنى بأبجادهم ، والسمو بهم إلى مرتبة القديسين الأبرار .

فألقت الكتب الكثيرة ، وأفردت المصنفات المتعددة عنهم ، في اللغات الأجنبية على اختلافها ، في حين أهمل المسلمون تاريخ شهداء الإسلام - كما قلت - إهمالاً تاماً .

وقد رأيت أن أقوم بمحاولة في كتابة تاريخ لهؤلاء الشهداء فقممت
 بجمع أخبارهم من شتات كتب « السَّير » و « المغَارِي » و « طبقات
 الرجال » وكتب التاريخ ، ولم آل جهداً في الاطلاع على تلك الكتب
 المختلفة مطبوعة كانت أو مخطوطة ، ووجهت همى إلى العصر الأول ،
 عهد صدر الإسلام . عهد الأجداد العظيمة ، والإيثار الإنساني
 المطلق، وأخذت أجمع مادتي. من هنا وهناك. وكنت أجد المادة كثيرة
 لدى بعض الشهداء أنا، ولا أعثر إلا على شذرات مقتضبة لدى
 شهداء آخرين أنا آخر، حتى تجمّع لي أخبار عدد غير قليل من
 شهداء العصر الأول، فقدمتها للقارئ في صورة أدبية أخّاذة.

غير أن هذا التصوير الأدبي لم يدعنى في جانب ، والحقيقة
 التاريخية في جانب آخر ، بل كانت تلك الحقيقة نُصّب عيني دائماً. فلم
 أزد أخباراً ولم أبتدع .

بل قدمت صورة صادقة كاملة لهؤلاء الشهداء .

وقد حاولت مراراً أن ألزم قاعدة زمنية في عرض تاريخ الشهداء .
 لكنّ هذا المنهج لم يسعفني في بعض الأحيان .

ومن الأمثلة على هذا ... الصفحة الأولى .. « آل ياسر » فقد كان
 « ياسر » و « سمية » أول شهداء الإسلام . في حين كان « عمار » من

شهداء صفيين . ومع ذلك جمعت بينهم في العرض ، لأنهم أبناء أسرة واحدة .. وآل « نسيية » بنت كعب ، فقد استشهد أحد ولديها على يد « مسيلمة » واستشهد الآخر بعد ذلك في وقعة « الحرة » ومع ذلك جمعت بينهما ، فلم يكن من التوفيق أن أفصل بين الرجل وأبويه ، أو بين الرجل وأخيه ، وحياتهم جميعاً وحدة كاملة ، متصلة كل الاتصال . وكنت أحياناً أخرى أجمع بين الأصدقاء الذين عاشوا متأخين ، وماتوا متأخين .

وفي اختصار ، أن الكتاب وحدة تاريخية متصلة بقدر ما هو كتاب أدبي ، يحلل تحليلاً أدبياً حياة هؤلاء الأقوام .

ولست أدعى - إطلاقاً - أنني حصرت شهداء العصر الأول كلهم ، أو أنني حصرت معظمهم ، بل إنني قدمت ما يمكن لحيز هذه الصفحات أن يحويه ، وأخّرت الآخرين لكتاب أوّل إصداره قريباً .

ثم إنني أهملت أسماء كثيرة من الشهداء لعدم تركهم أى آثار أستطيع أن أعرض حياتهم في ضوءها .

وإننى لأحيي تلك الأسماء المأجدة ، وأحيي أيضاً آخرين ذهبوا ، ولم يستطع التاريخ أن يحويهم بين صفحاته ، وأن يسجل أسماءهم

للأخلاف الباقية ، وهم في سجل الله خالدون .
 وإني لأرجو أن أكون قد أديت فائدة جلية للتاريخ الإسلامي
 الأدبي ، وعرضت صحائف خالدة من مجد ، وعلو ، وإيثار .

د على سامي النشار

آل ياسر

« أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة »

... وأرسلت الشمس أشعتها الأخيرة على الصحراء الممتدة ،
وهبَّت الرياح نَدِيَّةً رقيقةً ، وحادى القافلة ينشد أناشيده الصحراوية
في هذا السكون العميق ، وسارت النوق في منحرجات دقيقة ، وأودية
يكسوها أحياناً نوع من الشوك والعُوسج^(١) ، وأحياناً تبدو جرداء
قاحلة ، وسارت القافلة رَدْحاً^(٢) من الليل ، حتى إذا ما أحس كثير
من رجالها بالتعب ، استقروا في واد من الأودية المنتشرة ، وأخذ
السَّامِر يسْمرون ، وأخذ أصحاب تجارة هذه القافلة يفكرون فيما
سيبيعونه غداً في البيت العتيق ، ومن أشرف قريش وتجارها ،
وما سيعودون به من ربيع طائل : من سَدَنَةِ^(٣) الكعبة المعظمة ، وفوق

(١) العوسج : نوع من الشوك .

(٢) رَدْحاً : مدة طويلة .

(٣) سَدَنَة : خدمة .

ذلك ما سيتمتعون به من ترف ونعيم وهو ، في حياة كلها هو وفسق ...
وانتحي^(١) القوم أفراداً ثلاثة ، لم يكن يشغلهم ما يشغل القوم من
حديث ، ولم يكونوا يؤملون ما يؤمل بقية رفقاءهم في رحلتهم الطويلة .
إنما خرج (ياسرين عامر) وأخواه (الحارث ومالك) من اليمن ،
لأمال ، ولا لمتاع ، إنما للبحث عن أخ مفقود ، خرج من قبيلته في
اليمن ، ثم انقطعت عنهم أخباره ، وكانوا يأملون أملاً قوياً أنهم
سيجدونه في مكة ، وهي ملتقى العرب جميعاً .

وهذأت الحركة قليلاً ، إذ غفا كثير من المسافرين ، فلما أشرقت
الشمس تنادى القوم ، وهب النائمون من رقادهم ، سارت القافلة مرة
أخرى ، في جدٍّ واهتمام طيلة اليوم ، فإنه لم يَعدُ بينها وبين مكة سوى
ساعات قليلة .

* * *

.. وأشرفت القافلة على بيت إبراهيم ، وتصايح الرجال ،
واختلطت أصواتهم ، وخرجت قريش لاستقبال القافلة ، فقد كان فيها
شيء كثير من تجارتهم ، وعدد كبير من رجالهم وأبنائهم ، وانتشر

(١) انتحي : قصد .

اليمنيون بين القرشيين ، يبيعونهم ويتعاونون عنهم ، ويشاركونهم في حياتهم المنحلة الفاجرة .

أما ياسر وأخواه فقد شغلهم عن كل هذا ما أتوا لأجله ، فبحثوا كثيراً ، وتنقلوا بين أحياء مكة ومساكنها ، وبين أسواقها وبواديها ، حتى إذا ما أعجزهم البحث ، وآن للقافلة العودة إلى بلدها ، أسرع الإخوة إليها ، فقد هاجهم الحنين إلى بلدهم الخصب ، لكن « ياسر » استهوته ^(١) حياة مكة ، فعزم على الاستقرار بها .

فلما حان للقافلة أن تثوب ^(٢) ، لم يكن ياسر بين رجالها ، فلقد ودّع أخويه مُصراً على الحياة في مكة ، وفي جوار بيتها لكن لم يكن لياسر قبيلة تدافع عنه وتؤويه ^(٣) ، وتمنع عنه مظالم الطغاة ، من رجال القبائل . وكانت الحياة في الجزيرة العربية يسيطر عليها القانون الوحشي « الحياة للأقوى » ، فلم يكن للضعيف سوى الاستعباد والذل ، فلجأ إلى سراة ^(٤) بنى مخزوم ، محالفاً « أبا حذيفة » بن المغيرة ، ليدفع عنه

(١) استهوته : أعجبه .

(٢) تثوب : ترجع .

(٣) تؤويه : تحميه .

(٤) سراة : سادات ورؤساء .

عادية البطون الأخرى من قريش - وقد زَوَّجَهُ «أبو حذيفة» أُمَةً لَهُ ،
 هِيَ «سَمِيَّة» بِنْتُ خِيَاط ، فَوَلَدَتْ لَهُ «عَمَارًا» وَ«عَبِيدَ اللَّهِ» وَسَارَتْ
 بِهِمَ الْحَيَاةَ فِي كَفِّ بَنَى مَحْزُومٍ رَقِيقَةٍ ، لَا حَذَبَ فِيهَا ^(١) وَلَا عُسْرَ ،
 وَتَقْدِمَ «يَاسِرٍ» فِي الْعَمْرِ ، كَمَا اكْتَمَلَتْ رَجُولَةُ «عَمَارٍ» .

* * *

... وَأَشْرَقَ الضُّوءُ الْجَدِيدُ عَلَى مَكَّةَ . لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ «مُحَمَّدَ»
 ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْعَالَمِينَ ، فَمَا آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا بَضْعَةٌ وَثَلَاثُونَ
 رَجُلًا . أَذَاقَتْهُمْ قَرِيشُ أَلْوَانِ الْأَلَمِ وَالْعَذَابِ .
 وَفَكَرَ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ - فِيمَنْ فَكَّرَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ - فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ
 «مُحَمَّدٌ» صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَفِيمَا يَنْذِرُ بِهِ قَوْمَهُ .. مَا هَذِهِ
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ؟ وَمَا غَايَتُهَا ؟ مَا هَذِهِ الدَّعْوَةُ الَّتِي يُرَادُ بِهَا خَلْقُ مَجْتَمَعٍ
 جَدِيدٍ ؟ إِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ الرِّسَالَةِ سِوَى صَاحِبِ الرِّسَالَةِ .
 وَبَكَدَتْ دَارُ الْأَرْقَمِ - مِنْ بَعْدِ - أَمَامَ «عَمَارٍ» بْنُ يَاسِرٍ ، وَهُوَ
 مُسْرِعُ الْخَطَى إِلَيْهَا ، سَاكِنَةُ الْجَوَانِبِ ، وَيَلْتَفَتُ «عَمَارٌ» بْنُ يَاسِرٍ يَمِينَةً
 وَيسرةً ، فَإِنَّهُ شَعَرَ بِمَا لِقَرِيشَ مِنْ رِقْبَاءٍ حَوْلَ هَذِهِ الدَّارِ ، يَنْقَلِبُونَ إِلَيْهَا
 كُلُّ مَا يَدُورُ فِيهَا ، وَلَيْسَ لِعَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ مِنْ قَوْمٍ ، وَلَا مِنْ مَنَعَةٍ .
 (١) لَاحِظْ فِيهَا : لَا مَشَقَّةَ فِيهَا .

لكن ما لعمار بن ياسر وهذا الضعف ؟ فتقدم نحو الدار ، وهنا وجد نفسه أمام رجل آخر .. وهو « صُهَيْب » بن سِنَان الرومي ، أحد الغرباء في قريش .

— ماذا تريد يا صهيب ؟

— ماذا تريد أنت يا عمار ؟ !

— أريد أن أدخل على « محمد » ، فأسمع كلامه .

— وأنا أريد ذلك .

ودخل الاثنان ، فعرض عليهما النبي ﷺ الإسلام فأسلما ، ثم مكثا يومهما على ذلك حتى أمسيا ، ثم خرجا يستخفيان .

وعرض عمار الإسلام على أبيه وأمه فأسلما، وعلمت بنو مخزوم بذلك، فلم ينكر «عمار» ولا أهله، بل أعلنوا ذلك في قوة لم ير الكافرون فيها إلا عناداً وتحدياً.

وانقض بنو مخزوم على آل ياسر، يُذيقُونهم أشد العذاب ، ليفتنوهم عن دينهم .

وفي بطحاء مكة ، حيث ترسل الشمس شواظاً من لهب^(١) ، قضى آل ياسر أياماً في عذاب مقيم .

(١) شواظاً من لهب : شعلة من نار .

ومر محمد ﷺ وهم يعذبون ، وسمع « ياسراً » يَبْزُ في قيوده وهو يقول : « الدهر هكذا » ، فنظر الرسول الأعظم إلى السماء ونادى : « أبشروا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » .

وسمعا آل ياسر ، فهدأت نفوسهم وسكنت ، فلما أتاهم « أبو جهل » كان علوهم على الحياة أعظم مارأى الناس ، وقضى « ياسر » في العذاب . وانقض أبو جهل على « سمية » فقتلها ..

لقد استشهد « ياسر » و « سمية » ولم يعد من آل ياسر إلا « عمار » ، وقد قاسى « عمار » من العذاب أقساه ، أخذوا يَغْطُونَهُ في الماء ، حتى بلغ به الجهد مبلغه ، ولم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير .

فلما أتى النبي ﷺ قال له : ما وراءك ؟

— شرٌّ يا رسول الله ، والله ما تُرَكْتُ حتى نِلْتُ منك ، وذكرت آلهتهم بخير .

— فكيف تجد قلبك ؟

— مطمئن بالإيمان .

— فإن عادوا فعد .

وأذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة ، وهاجر « عمار » فيمن هاجر

إلى يثرب ، حتى إذا ما هاجر محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وبدأ
 ببنى مسجده في مرید^(١) بنى عمرو ، ودعا المهاجرين والأنصار إلى
 العمل فيه ، آزر^(٢)وا جميعاً فيه ، وفي مقدمتهم عمار بن ياسر ، ونادى
 منادى المسلمين :

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيَّ يَعْمَلُ لَدَاكَ مِثْلَ الْعَمَلِ الْمَضَلُّ
 فارتجز المسلمون وهم ينون :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان على بن أبي طالب وعمار بن ياسر يرتجزان :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا
 ومن يرى عن الغبار حائدا

ودخل عمار بن ياسر على النبي ﷺ وقد أثقلوه باللبن ، فقال :
 « يا رسول الله ، قتلوني - يحملوني على ما لا يحملون » فنفض النبي
 ﷺ لبناته ، ومسح التراب عن وجهه ، وقال : « ويح عمار ! تقتله

(١) مرید : المرید الفضاء وراء البيوت يتفجع به .

(٢) آزر : تعاونوا .

الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار » . وعاش عمار مع النبي ﷺ لا يفارقه قط ، فشهد المشاهد كلها ، وعرف النبي له قَسْرُهُ فأحبه ، وكثيراً ما قال لصحابته : « إني لا أدري ما بقائي فيكم ، فاقتدوا باللَّذِينَ من بعدي ، وأشار إلى أبي بكر وعمر ، وتمسكوا بعهد عمار ، وما حدثكم ابن مسعود فصَدَّقْوه » . وفي رواية أخرى : « إني لست أدري ما قدر بقائي فيكم ، فاقتدوا باللَّذِينَ من بعدي » ، يشير إلى « أبي بكر » و « عمر » رضي الله عنهما ، « واهتدوا بهَدْيِي (عمار) وعهد ابن أم عبد » رضي الله عنهما .

وَقَضَى النبي ﷺ ، فبكاه عمار أشد البكاء ، وارتدت العرب ، واختلفت على المسلمين ، غير أن أبا بكر لم يأخذه من الأمر ضعف ولا تردد ، بل بعث إلى المرتدين جيوش المؤمنين ، وكان في مقلمتهم عمار بن ياسر .

وفي يوم اليمامة - حيث أصاب المسلمين أول الأمر شدة - أشرف « عمار » على الصخرة وهو يصيح : « يا معشر المسلمين ، من الجنة تَفَرُّون . أنا عمار بن ياسر . هَلُمُّوا إِلَيَّ » . وكانت أذنه قد قطعت وهي تذبذب . وهو يقاتل أشد القتال ، وانتصر المسلمون أخيراً .

وتنقل عمار بن ياسر من ميدان إلى ميدان ، وشهد القادسية

وغيرها ، حتى ولاه عمر الكوفة ، وأرسل إلى أهلها يقول : « إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وإنهما لمن النجباء أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لها وأطيعوا » ، ثم عزله عن الكوفة وسأله ، أأساءك عزلنا إياك ؟

فقال : لأن قلت ذاك لقد ساءتني الولاية بقدر ما ساءني العزل . وقامت الفتنة العمياء بين علي ومعاوية ، فانضوى عمار تحت لواء علي .

وفي صفين التحم الجيشان ، وكان عمار شيخاً آدم^(١) في يده الحربة ، وإنها لُترعد ، فنظر إلى عمرو بن العاص وقال : « الجنة تحت البارقة الظمأى^(٢) قد يرد الماء المأمور ، وذا اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه ، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَفَاتِ هَجَر^(٣) لعلمت أنا على حق ، وأنهم على باطل ، لقد قاتلت تحت هذه الراية ثلاث مرات مع رسول الله ﷺ ، وما هذه المرة بأبرهن ولا أنقاهن . »

والتحم الجيشان ، ومضى عمار على رأس كتبية لا يأخذ في ناحية أو

(١) آدم : أسمى اللون .

(٢) البارقة : سحابة ذات برق . والظمأى : العطشى .

(٣) سَعَفَاتِ هَجَر : نخل في هذا المكان المسمى (هجر) .

واد إلا وأصحاب النبي ﷺ يتبعونه . ثم برز إليه رجل فقتله عمار ، ثم رجل آخر فقتله ، وحينذاك غافله « أبو العارية » المزني ورماه بسهم فقتله ، ثم احتز رجل آخر رأسه ، وأقبلا يختصمان فيه ، كلاهما يقول : إنه قتله ، فقال عمرو بن العاص : « والله إن يختصمان إلا في النار ، لوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة » .

ونادى المنادى : « وبحك ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية » . ووقف على جسده يقول ، إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر وتدخل به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد ، رحم الله عماراً ، يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً . لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله ﷺ أربعة إلا كان خامساً .

وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك في أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا في اثنين ، فهنيئاً لعمار بالجنة « إن عماراً مع الحق ، والحق معه يدور » ، و« عمار مع الحق أينما دار » ، و« قاتل عمار في النار » .

« مات عمار بن ياسر شهيداً ، كما مات أبواه - من قبل -
شهيدين » .

سمع أهل مكة هذا فتردد في آذانهم : « أبشروا آل ياسر ، فإن
موعدكم الجنة » .

شهداء بدر

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل
أحياء عند ربهم يرزقون ..)

نفرت قريش إلى الحرب ، حين علمت أن رسول الله ﷺ خرج
يعرض لغيرها^(١) ، وسارت تلك القوة - في خيلاء - نحو مياه بدر .
وعلم الرسول الأعظم - عند وادي زفران^(٢) - أن قريشاً سارت
للمنع غيرها ، قريش خرجت كلها لملاقاته ، فأخبر أصحابه واستشارهم
أولاً ، فقام أبو بكر وعاهد الله على الوفاء - كما قام عمر بن الخطاب ،
ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله امض لما أراك الله ،
فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى :
(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) »^(٣) .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك

(١) لغيرها : العير هي : الإبل واليغال والحمير ..

(٢) وادي زفران : اسم مكان .

(٣) سورة المائدة : ٢٤ .

بالحق ، لو سِرَّتَ بنا إلى برك الغماد^(١) لجالدنا^(٢) معك من دونه حتى تبلغه ... » .

ثم استشار الأنصار فأعطاه سعد بن معاذ - سيد الأنصار - العهود على السمع والطاعة ، والموت في سبيله ، فأمن رسول الله أن نصر الله قريب ، وسار حتى وقف على ماء « بدر » ..

وهناك علموا أن قافلة أبي سفيان قد فاتتهم ، وأنه ليس أمامهم إلا عدو يبلغ ثلاثة أضعاف عددهم .

وبدأت المناوشات الأولى . فخرج من قريش عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف ، دعا إلى المبارزة ، فخرج إلى فنية من الأنصار ثلاثة هم : عوف ، ومُعَوِّذ ابنا الحارث - وأمهها عفراء - وعبد الله بن رواحة .

فصاح عتبة : « من أنتم ؟ » فقالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادَوْا : يا محمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي ... » قال عتبة : « من أنتم ؟ » فذكر كل منهم

(١) برك الغماد : اسم مكان .

(٢) لجالدنا ، لدافعنا .

اسمه. قالوا : أكفاء كرام . فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة .
 وبارز حمزة شيبه بن ربيعة ، وبارز على الوليد بن عتبة .
 فأما حمزة فلم يمهل شيبه أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن
 قتله ، وأصاب عتبة عبيدة في قدمه ، فكَّرَ عليه ^(١) حمزة وعلى فقتلاه
 بسيفيهما ، واحتملا عبيدة إلى صفوف المسلمين .
 ونام عبيدة تحت أقدام الرسول وقال : ألتست شهيداً يا رسول
 الله ؟

فقال الرسول : بلى .

مات عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وهو
 صاحب أول راية عقدتها رسول الله ﷺ في الإسلام لأحد من
 المسلمين .. مات أحد السابقين الأولين من المهاجرين .

* * *

واقترب المشركون من المسلمين ورسول الله يعادل أصحابه - وفي
 يده قَدَح - فربسواد بن غزيرة وهو غير منتظم في الصف فطعنه في بطنه
 بالقَدَح وقال : استويا سواد .

(١) فكر عليه : هجم .

فقال يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ،
فَأَقِدْنِي (١) .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال : « اسْتَقِدْ » ، فاعتنقه (٢)
« سواد » وقَبَّلَ بطنه ، فقال الرسول الأعظم : ما حملك على هذا
يا سواد ؟

فقال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد
بك ، أن يمس جِلْدِي جِلْدَكَ .

وبدأت الحرب ، ثم دخل الرسول الأعظم يناجى ربه ، ثم خفق
خفقة ، وهو في العريش ، ثم انتبه وقال : « أبشر يا أبا بكر . أتاك
نصر الله . هذا جبريل آخذ بِعَنَانٍ فرس يقوده على ثنابا النقع » .
وفي تلك اللحظة رُمِيَ مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل .
فكان أول من قتل من المسلمين . ثم رُمِيَ حارثة بن سراقة - وهو
يشرب من الخوض - بسهم فأصاب نحره فقتل .

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس وقال : « والذي نفس محمد
بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مُقْبِلاً غير مُدْبِرٍ إلا أدخله

(١) فَأَقِدْنِي : المراد اقتصر لي ممن ظلمني .

(٢) فاعتنقه : عانقه .

الله الجنة » ، فقال عمير بن الحمام - وفي يده تمرات يأكلها - : بَخْ بَخْ^(١) أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .
وأقبل عوف بن الحارث بن عفراء وقال : يا رسول الله ما يضحك العبد من ربه ؟

- غمسه يده في العدو حاسراً .

فنزل درعاً كانت عليه فقدفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

* * *

وسأل « معوذ » أخاه - أحد المهاجرين - أين أبو جهل ؟ لقد كان يؤذى رسول الله في مكة كثيراً ، أريد أن أراه ، فلما أشار إليه أحد المهاجرين ، هجم « معوذ » عليه وضره حتى برد ، فتركه وبه رَمَق^(٢) .. ثم انقضَّ على القرشيين حتى قتل .

* * *

وقتل عمير بن أبي وقاص وهو في السادسة عشرة دفاعاً عن دينه .

(١) بَخْ بَخْ : اسم فعل بمعنى أستحسن .

(٢) رَمَقَ : بقية الروح .

وقتل ذو الشمالين بن عبد عمرو ، وعاقل بن البكير ، وصفوان بن
بيضاء ، ومبشر بن عبد المنذر ، ويزيد بن الحارث ، ورافع بن المعلى .

° ° °

وفى بدر .. ناموا جميعًا أحياء غير أموات ...
وأزماتها ،

سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب

« جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب
مكتوب من أهل السموات السبع (أسد الله وأسد
رسوله) » .

١ - إيمان الأسد :

إن الشمس لتشرق كل يوم على مكة ، والأيام تدور فيها وتتأهبها
الغير^(١) ، ويحدث فيها كل ما يحدث .. وحمزة بن عبد المطلب في عالم
بعيد كل البعد عن عالم مشاغلها وأزماتها ، إنه ليحيا لنفسه ، ولنفسه
فقط . لذائد الحياة يقبل إليها ، مال وجاه وقوة وسطوة ، فالحياة إذن
نعيم دنيوى يأخذ منه بأكبر نصيبه ، ما شغله هذا الكون ومن فيه ،
وما أبه^(٢) يوماً لشيء من الأشياء يحدث بين قومه ، حتى هذا الحديث
الهائل الذى تذكره قريش اليوم ، وقد شغلها عن كل شيء ، حديث

(١) تتأهبها الغير : تصيبها الأحداث والمصائب .

(٢) ما أبه : لم يهتم .

ابن أخيه « محمد بن عبد الله » ، وهو يلقي إليهم شيئاً ما عرفوه من قبل ، وما سمعوا به . إنه الصوت الإلهي الذي يدعوهم من عل فيتدفق في قلوبهم نوراً وضياء ... إنه ليسمعه ويسمعه قوياً ، يُشعل في نفسه شعلات غامضات ، لا يعرف لها كُنْهًا ^(١) .

ولكن الحياة بلذائذها تطفئ عليه ، فيأخذ منها ، ولا ينظر بعد إلى هذا الصوت الداخلي ، لقد دعاه أبو طالب سيد قريش إلى منعة ^(٢) ابن أخيه فاستجاب ، ولم يكن استجاب بعد لما دعا محمد قومه إليه . وإن رسول الله ليحتمل الإعناء ^(٣) والإرهاق ، ويصبر عليهما صبراً يفند نفاذاً هائلاً في قلب حمزة . فيثير في نفسه الدهشة والإعجاب . ثم ينقلب هذا الإعجاب إلى حب هائل ، غير أن هذا كله لم ينه عن دنياه التي يمرح فيها .

عاد يوماً حمزة بن عبد المطلب من قنصه ^(٤) متوشحاً ^(٥) قوسه ، وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، متحدثاً متندراً مع حلقاتها .

(١) كُنْهًا : حقيقة .

(٤) قنصه : صيده .

(٢) المنعة : الدفاع .

(٥) متوشحاً : متقلداً .

(٣) الإعناء : التعب الشديد .

وهناك اقتربت منه مولاة لعبد الله بن جدعان وقالت : وا ذُلًّا
يا بني عبد مناف ! يا أبا عمار . لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من
أبي الحكم بن هشام ! وجده ههنا جالساً فأذاه وسبه . وبلغ منه
ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ﷺ .

وهنا ازداد الغضب بحمزة ... ماذا فعل محمد حتى يلقى هذا
كله ؟ ..

أو ليس يدعوهم إلى خير ما في هذه الحياة وما بعدها ؟ ما لهم
ينالون منه أشد النِّيل ؟ ألا إن هذا الأمر لحق ! فخرج يسعى لم يقف
على أحد .. معدًّا لأبي جهل - إذا لقيه - أن يوقع به ، فلما دخل
المسجد نظر إليه جالساً في القوم . فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه
رفع القوس وضر به فَشَجَّه شَجَّةً منكراً ، ثم صاح فيه :
« أتشتمه ؟ ! فأنا على دينه ! . أقول ما يقول فردُّ ذلك علىّ ، إن
استطعت » .

فقام رجال من بني محزوم إلى حمزة ، لينصروا أبا جهل .
وهنا يقف حمزة وقفة الضرغام ^(١) الأبي ^(٢) مستعدًّا للقتال ، إلا

(١) الضرغام : الأسد .

(٢) الأبي : القوى .

أنه أعز فتى في قريش قوة وشكيمة ، وصاحوا فيه جميعاً : ما نراك يا حمزة إلا قد صَبَّوتَ^(١) .

- ومن يمنعني وقد استبان لي منه ما أشهد أنه رسول الله ﷺ ، وأن الذي يقول حق ؟ فوالله لا أنزع^(٢) . فامنعوني إن كنتم صادقين . فوقف أبو جهل وقال : دعوا أبا عماره ، فإنني والله لقد سبَّيتُ ابن أخيه سباً قبيحاً .. ثم رجع حمزة إلى بيته .. ولكن ما له يفكر ؟ ويفكر تفكيراً عميقاً يشغل عليه نفسه ، ويمر الليل عليه ولم يذق فيه للنوم طعماً ، وها هو ذا الشيطان يحدثه : « أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ ، وتركت دين آبائك ! لَلْمَوْتُ خَيْرٌ مما صنعت » .

أقبل حمزة على نفسه يقول : « ما صنعت اللهم إن كان رُشداً فاجعل تصديقه في قلبي . وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً » . ثم حدثته نفسه مرة أخرى : « إن عند صاحب الدين المؤنة الصادقة في أمره » ..

فغدا على رسول الله ﷺ وأقبل عليه خاشعاً .. ما لهذا النور في عيني هذا الرجل يقذف في قلبه . ويقيده فلا يستطيع فكاكاً ؟ ..

(١) صبوت : خرجت عن دينك .

(٢) لا أنزع : أي لا أكف ولا أنتهى .

ما هذه القوة الخالدة التي يلقيها إليه . وإنه ليتقدم إليه حزينا متحسرا ؟
 - يا بن أخي ، إني قد وقعت في أمر . ولا أعرف المخرج منه ،
 وإقامة مثلى على ما لا أدري ما هو : أرشد أم غيَّ شديد ؟ فحدثني
 حديثاً ، فقد اشتيت - يا بن أخي - أن تحدثني .
 وأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فدَكَرَهُ ووعظه وخَوَّفَهُ وبَشَّرَهُ .. سمع
 حمزة وبكى .. بكى الضيغم الهُصُور^(١) .

إن هذا القرآن ليتزل على الكائنات فتحشع وتسجد ، ولقد سجد
 حمزة وآمن وصاح : « أشهد أنك صادق شهادة الصدق .. فأظهر
 يا بن أخي دينك ، فوالله ما أحب أن لي ما أظلمت السماء وأنا على ديني
 الأول » . وشهدت السماء والأرض أن حمزة بن عبد المطلب أسلم
 وآمن .

٢ - منعة الأسد :

أسلم حمزة ، وعرفت قريش أن رسول الله قد عزَّ وامتنع ، وأن
 حمزة سيمنعه ، فَكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ، وفكروا في
 عُرْض يعرضونها عليه ، فأرسلوا عتبة إلى النبي ﷺ ، عرضوا عليه

(١) الهصور : القوى .

المال والمملك .. وعرضوا عليه السلطان والقوة ، لكن ما فتن هذا كله رسول الله ، وقد أوتي مفاتيح كل شيء .

ولقد فني حمزة في دين الله ، وقريش ترهبه وتحشاه . ويعلم هو دينه في كل مكان ، ولكنه فوق هذا ، حمل جانباً من المقاومة السلبية التي قاومتها قريش لبعض أصحاب رسول الله ﷺ ، أما المقاومة الإيجابية المستمرة فلم يصل إلى حمزة منها شيء . كان أعز من أن تصيبه قريش بشيء منها .

وفكر عمر بن الخطاب (قبل إسلامه) في قتل الرسول وذهب إلى أخته ، وأسلم على يديها ، ثم ذهب إلى الرسول متوشحاً سيفه . وضرب على الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل^(١) الباب . فرآه ، فرجع إلى رسول الله وهو فرّج ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف . وهنا قام حمزة بن عبد المطلب قائلاً : فأذن له ، فإن جاء يريد خيراً بذلنا له^(٢) ، وإن جاء يريد شراً قتلناه بسيفه !

ما عاد حمزة يخشى شيئاً في دين الله .. فليحاربه قومه ، أو فليحارب هو قومه ، فلن يأبه لشيء ، إن غايته الله ، فله يحيا .

(١) خلل : ثقب .

(٢) بذلنا له : قدمنا له .

٣ - الهجرة :

الدعوة لا بد أن تنتشر في الأرض ... وقد هاجر قوم بدينهم إلى بلاد الحبشة ، فليست هي لمكة ، ولا لبلاد العرب ، إنها دعوة الوجود كله ، تحاول أن تشمل الأمم جميعاً ، في وحدة كاملة ، وتسيطر على ضوائر الناس ، فتلغى فوارقهم وعصبياتهم . وتقيم أساساً آخر للوجود الإنساني ، وتاريخ هذا الدين عجيب نادر .

كلما حاربه قوم تَلَقَّفَهُ آخرون ، وكلما حط به قوم رفعه غيرهم ، فكان له على الدوام عوامل القوة والفيض ، وما هي ذى مكة تقاومه . فيسعى إلى يثرب . وقد هاجر المهاجرون أرسالاً^(١) ، وهاجر حمزة بن عبد المطلب ، ترك تلك المجالس التي قضى فيها مِيعَةً صباه^(٢) وتلك الأودية والآكام^(٣) التي عاش فيها لاهياً متنعماً ، وأولئك الخِلان^(٤) ، لقد انتهت صحبتهم .

(١) أرسالا : أفواجا

(٢) مِيعَة صباه : أول طفولته .

(٣) الآكام : جمع أكمة وهي : التل .

(٤) الخِلان : الأصدقاء جمع خِل .

ونزل حمزة بن عبد المطلب بالمدينة فقيرًا ، لا يملك من الحياة شيئاً غير إيمانه ، وإيمانه كان لديه الحياة كلها ، وما بعد الحياة . ترك في مكة أمواله وأملاكه ، وأصبح عَيْلَةً على الأنصار ، وقد آثروا هؤلاء المهاجرين على أنفسهم .

ويسعى حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله يطلب منه أن يجد له ما يَقْتَات به ^(١) . سيد قریش يأبى أن يكون عالة على أحد . والمسْعَبَةُ ^(٢) تؤلمه .

وكان لابد لرسول الله ﷺ أن يؤاخى بين المسلمين ، فأخى بين حمزة وبين مولاة زيد بن حارثة - ولقد رضى الشريف القرشى مؤاخاة العبد الرقيق ، فلقد محا الإسلام تلك الفروق . تلك المعيشة الجذباء من لذائذ الحياة ، المليئة بالتقوى والإيمان ، عاشها حمزة السيد القرشى في المدينة ، حتى أذن الله للمسلمين في القتال .

(١) ما يَقْتَات به : ما يعيش عليه .

(٢) المسْعَبَةُ : الجوع الشديد .

٤ - أسد الله - وأسد رسوله :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) ^(١) .

آن للمسلمين أن يردوا العدوان عنهم بالسيف ، وقد غزا الرسول في الأبواء ^(٢) ، وحين عاد منها بعث فارس قريش حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر ، من ناحية العيص ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقى أباجهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثئة راكب من أهل مكة ، هل يرعب حمزة هذا ؟ أبداً ، لقد أقدم على القتال ، ولكن حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ، وكان موادعاً للفريقين ، فانصرف بعض القوم عن بعض .

هنا وقفة عظيمة من مواقف ابن عبد المطلب ، إنه ليعلم أن عدوه عشرة أمثاله ، ولكن لم يصرفه هذا عن غايته ، وأنه أزداد الحرب ، وقد قال حمزة في ذلك شعراً ، يذكر فيه أن رايته أول راية عقدتها رسول الله ﷺ ، منه :

(١) سورة الحج : ٣٩ .

(٢) الأبواء : مكان .

بأمر رسول الله أول خافق
لواء لديه النصر من ذى كرامة
فلما تراءينا أناخوا فَعَقَلُوا
فقلنا لهم : حَبِلَ إِلَهُ نَصِيرِنَا
فثار أبو جهل هنالك باغياً
وما نحن إلا فى ثلاثير راكباً
فيال لُؤى لا تطيعوا غواتكم
فإنى أخاف أن يُصَبَّ عليكم
عليه لواء لم يكن لاح من قبلى
إله عزيز فعُله أفضل النعل
مطاييا وعقلنا مدى غرض النبل
وما لكم إلا الضلالة من حبل
فخاب وَرَدَّ الله كَيْدَ أبى جهل
وهم مائتان بعد واحدة فَضَّل
وفيثوا إلى الإسلام والمنهج السهل
عذاب فتدعوا بالندامة والتكُّل

وهذه قريش فى بدر خرج منها الأسود بن عبد الأسود المخزومى ،
وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق . فقال وقد بنى المسلمون حوضاً :
« أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهْلِمْنَه ، أو لأموتن دونه » ،
فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة
قاطعاً قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره
تَشْحَبُ^(١) رجله دماً ، ثم حَبَا^(٢) إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن
يَبْرَّ يمينه ، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض . ثم نادى منادى

(١) تشحب : تقطر .

(٢) حبا : الحبو : الذنوب .

قريش : « يا محمد ! أخرج إلينا أكفأنا من قومنا » فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي .. » وصاح عتبة بن ربيعة : من أنتم ؟

فأجابه حمزة : أنا حمزة أسد الله وأسد رسوله : وتبارزوا فقتل حمزة وصاحبه المشركين ، ثم تراحف الجمعان ، وثار النقع ، وحمزة كالسيل يهجم يميناً وشمالاً . وينتقل من مكان إلى مكان ، فيفتك بالمشركين فتكاً ذريعاً . فتنهار الكتائب ، ويفزع صناديد قريش . ويختلط حابلهم بنابلهم ^(١) . ويولون الأدبار ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة .

وأسر أمية بن خلف ، أسره عبد الله بن مسعود ، فبينما هما يسيران قال أمية : يا عبد الله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره ؟ - ذاك حمزة بن عبد المطلب .

- ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل !

عادت قريش بالخزى والعار ومناديهم ينادى : « أذلَّ حمزة بن عبد المطلب شرفكم ، وَوَضَعَ من قدركم ، وجعلكم الأذلة المستعبدين في الأرض . مات بيديه صفوة رجالكم وأصحاب

(١) اختلط حابلهم بنابلهم : المراد : اضطربت أمورهم .

الصدارة في منتدياتكم ، فيالثارات قريش . ويا لأحقادها الكامنة » .
وفي تلك الآونة كان حمزة بن عبد المطلب يعود إلى يثرب تحت
لواء الرسول خاشعاً مطرقاً .

٥ - صرعة الأسد :

واستعد القرشيون للقتال في العام التالي ... وقبل أن يسير المشركون
إلى القتال دعا « جُبَيْر بن مطعم » غلاماً يقال له « وَحْشَى » يقذف
بحرية له قذف الحبشة ، قلماً يخطئ بها ، فقال له : « اخرج مع
الناس ، فإن أنت قتلت (حمزة) عم محمد ، بعني (طعيمة
ابن عدي) فأنت عتيق » .

ثم خرجت قريش بحدّها وحديدّها، وجدّها وأحاييشها^(١) ومن
تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالنساء، التماس
الحفيظة^(٢) وألا يفروا.

وخرج أبو سفيان ومعه امرأته « هند بنت عتبة » .. وكانت كلما

(١) بحدّها وحديدّها ، وجدّها وأحاييشها : المراد خرجت بكل مالديها من طاقات
وإمكانات .

(٢) الحفيظة : الدفاع عن المحارم .

مرت بـ «وحشى» أو مرّ بها ، تقول له «وَيْهًا أبا دسمة»^(١) ، إِشْفِ واشْتَفِ يعني تخرضه على قتل حمزة ، لأنهم عرفوا أنهم لن ينالوا منه منالا إذا ما واجهوه في قتال ، إذن فليقتلوه غيلة^(٢) .

ابتدأ القتال ، وهجم «حمزة بن عبد المطلب» في مقدمة الصفوف حتى قتل «أرطاة بن عبد شرجيل بن هاشم» وكذلك قتل «عثمان بن أبي طلحة» حامل لواء قريش ، ثم قتل «سباع بن عبد العزى» ثم هجم على قريش يفرق صفوفها ويقتل رجالها .

يقول «وحشى» : والله إني لأنظر لـ «حمزة» يَهْدُ^(٣) الناس سيفه هذا ، نائر الرأس ما يبقى شيئا يمرّ به ، مثل الجمل الأورق^(٤) ، إذ قد تقدمني إليه «سباع» وهو يقول : ألا من مبارز؟ فقال له حمزة : «هلم يا بن مقطعة البظور ، أُنْحَاذَ الله ورسوله !!» وكانت أم «سباع» ختانة بمكة ، ثم ضربه ضربة هائلة قتله ، وكنت كامناً تحت صخرة لا يراني ، وهَزَزْتُ حَرْبِي ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ،

(١) وَيَهًا : اسم فعل للتعجب ، وأبا دسمة كنية وحشى .

(٢) غيلة : غدرًا .

(٣) يَهْدُ : يقطع .

(٤) الأورق : ما كان لونه لون الرماد .

فوقعت في ثنته ، حتى خرجت من بين رجله ، فأقبل نحوي ، فغلب
 فوقع ، وأمهله حتى إذا مات ، جئت فأخذت حربي ، ثم تنحيت إلى
 المعسكر ، ولم يكن لي بشيء غيره حاجة ، وكان ذلك آخر العهد به .
 وأقبلت « هند بنت عتبة » على « حمزة » فبقرت ^(١) كبده
 ولاكتها ^(٢) ، فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها ، ثم علت على صخرة
 مشرفة ، فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُر ^(٣)
 ما كان عن « عتبة » لي من صبر ولا أخى وعمه وبكرى
 شقيت نفسي وقضيت نذرى شفيت « وحشى » غليل صدرى
 فشكر « وحشى » على عمري حتى ترم أعظمي في قبرى

ووقف « أبو سفيان » يضرب في شدة « حمزة بن عبد المطلب »
 بزج الرمح ^(٤) ، ويقول : « ذق عقي » ، فقال الحليس بن زبان سيد

(١) فبقرت : شقت .

(٢) لاكتها : مضغتها .

(٣) ذات سُر : ذات اشتعال .

(٤) زج الرمح : الحديد التي في أسفلها والجمع زججة بوزن عقة .

بنى كنانة « يا بنى كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون
 لحماً » فقال أبو سفيان : « ويحك اكمها عني ، فإنها كانت زلة » .
 مات « حمزة » بن عبد المطلب .

أحمزة ذاكم الرجل القتيل ؟ .. لقد حملت الملائكة إلى السماء
 أن حمزة سيد الشهداء !



هاهم أولاء المسلمون يرون « هند بنت عتبة » تأخذ كبد « حمزة »
 وتلوكها ، ويقول رسول الله : « أأكلت شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال :
 ما كان الله ليلخل حمزة في النار .

ثم حُمل إليه .. ورأى رسول الله عمه ووزيره قد بقر بطنه عن
 كبده ومثّل به ، فجُدع أنفه وأذناه . فقال : « لولا أن تحزن « صفية »
 وتكون سِنَّةً من بعدى ، لتركته حتى يكون في بطون السباع ، وحواصل
 الطير ، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن ، لأمثّلن
 بثلاثين رجلاً منهم ، جاءني جبريل فأخبرني أن « حمزة » بن
 عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع ، « حمزة » بن
 عبد المطلب « أسد الله ، وأسد رسوله ، ما وقفت موقفاً أغيظ إلى من
 هذا » .

وفي تلك اللحظة ، أقبلت « صفية بنت عبد المطلب » لتنظر إليه - وكان أخاها لأبيها ولأمها - فقال رسول الله ﷺ لابنها « الزبير بن العوام » : « ألقها فأرجعها لآتري ما بأخيها » . فقال لها : يا أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي .

- ولم ؟ ! وقد بلغني أن قد مُثل بأخي : وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

فلما جاء « الزبير » إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال له : خلّ سبيلها .

صلى رسول الله على « حمزة » وجرى برجل من الأنصار فصلّى الرسول عليه ، ثم رُفِعَ ، وترك « حمزة » حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة ، ثم دفن مع ابن أخته « عبد الله بن جحش » .

ونزل الوحي على الرسول :

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) ^(١)

فعفا رسول الله ﷺ ، وصبر ، ونهى عن المثلة ^(١) .

« * * »

هذا رسول الله ﷺ يدخل إلى بيته بالمدينة ، ونوائح الشهداء يُنْحَنَ ويبيكين على قتلاهن ، أولئك الذين صبروا تحت اللواء فقال :
- ما هذا ؟

- هن نساء الأنصار يبيكين قتلاهم .

فقال : لكن « حمزة » لا بواكى له .

واستغفر له ، فسمع ذلك سعد بن معاذ ، فمشى إلى دار بنى عبد الأشهل ، وأتى بنسائهم ، فوقفوا على باب رسول الله ، وقال :
« والله لا تبكين قتلى الأنصار حتى تبكين عم النبي ﷺ ، فإنه قد ذكر أنه لا بواكى له » وقفن يبيكين :

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بَكَاهَا وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ
عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةً قَالُوا أَحْمَزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ
أَصِيبُ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعاً هُنَاكَ وَقَدْ أَصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
سَمِعَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَأَخْبَرَ بِمَا فَعَلْتَ الْأَنْصَارُ
بِنِسَائِهِمْ ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَقَالَ : « رَحِمَ اللَّهُ الْأَنْصَارَ ، إِنْ الْمَوَاسَاةُ

(١) المثلة : التنكيل بالقتلى .

منهم - ما عَمَّتْ - لَقْدِيمَةٌ » ثم قال : « ما هذا أردت . وما أُحِبُّ
البكاء . » ونهى عنه .

هذا كعب بن مالك يبكي حمزة :

قَرْمٌ تَمَكَّنَ فِي دُؤَابَةٍ هَاشِمٍ حَيْثُ النُّبُوَّةُ وَالنَّدَى وَالسُّؤُودُ^(١)
وَالْعَاقِرُ الْكُومُ الْجَلَادُ إِذَا غَدَت رَيْحٌ يَكَادُ الْمَاءَ مِنْهَا يَجْمَدُ^(٢)
وَالتَّارِكُ الْقَرْنَ الْكَمَى مَجْدَلًا يَوْمَ الْكَرْبَةِ وَالْقَنَا يَتَقَصَّدُ^(٣)
وَتَرَاهُ يَرْفُلُ فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُ ذُو لَبْدَةٍ شَتَّى الْبَرَاثِنِ أُرْبَدُ
عَمَّ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَصَفِيهِ وَرَدَ الْحَمَامُ فُطَابِ ذَاكَ الْمُرْدِ
وَأَتَى الْمَنِيَةَ مُعَلِّمًا فِي أُسْرَةٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشْهَدُ

وهذا حسان يبكي سيد الشهداء :

يَا حَمْزَةَ . لَا وَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ مَا صُرَّ اللَّقَائِحُ
لِمَنَاخٍ أَيْتَامٍ وَأَضْيِ أَفْ وَأُرْمَلَةٍ تَلَافَحُ

(١) السُّؤُودُ: الشرف.

(٢) جَدُ الْمَاءِ: صار ثَلْجًا.

(٣) الْقَنَا يَتَقَصَّدُ: الرِّمَاحُ تَتَكَسَّرُ.

ولما ينوب الدهر في حرب الحرب وهي لاقح
يا فارساً يا مِدْرَهاً يا حمز قد كنت المصافح

مات حمزة ، وانتهت صولة الأسد - تلك الأصوات التي كان
يلقيها مملوءة بآيات التوحيد ، فَتَفَزَّعَ أَمَامَهُ الْجَحَّاجُ (١) ، وتنهار أمام
عينيه حجب الزمان والمكان .
مات .. ووقف الرسول يكيه أعظم البكاء .

(١) الجحجاج : مفرداً جحجج وهو السيد المسارع إلى المكارم .

مصعب بن عمير

« والملائكة يخلون عليهم من كل باب .

سلام عليكم بما صبرتم . فنعِم عقبى الدار »^(١)

« لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة

منك ، ولا أحسن لمة منك . ثم أنت أشعث

الرأس في بردة »

في بيت من بيوت سراة^(٢) بنى عبد الدار ولد « مصعب بن عمير »

لأبوين شريفيين ، أما أبوه فـ « عمير بن هاشم بن عبد مناف بن

عبد الدار » كان في الذروة من قومه ، جاهاً ومالاً .

أما أمه فـ « خناس بنت مالك » ، وكانت مليئة ، كثيرة المال ،

ترعى أولادها أحسن رعاية ، وتكسوهم أحسن ما يكون من الثياب

وأرقها ، وكان لـ « مصعب » عندها المكانة الممتازة ، فقد كان أعطر

أهل مكة وأجملهم ، يفيض تيباً ودلالاً ، يمر بين أحياء مكة فترمقه

عيون فتياتها ، ويسترعى منظره ساكنيها ، ويُقبل « مصعب » على تلك

(١) سورة الرعد : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سراة : أغنياء وأشراف .

الحياة الناعمة المترفة ، فيأخذ منها بأكبر نصيب ، ويرى في مفاتها
الغاية القصوى للحياة ، ويمهد له شرف أبيه وثروة أمه ما يريد من
متاع ، فلا يرى إلا ضاحكاً ، مقبلاً على الدنيا ، كأشد ما يكون
الإقبال عليها .

تمضى الليالي مسرعة فيما هي فيه من مفاتن على «مصعب» ،
فلا يرى فيها ألماً ولا ضنكاً ولا نصباً . وتدور الأيام بمصعب . فترى
منه فتيات الحى إعراضاً وابتعاداً ، وتلمح أمه على وجهه آثار تفكير
عميق وَوَجَدَ لم يُلم به من قبل ، وعزم صارم يبدو على وجهه الجميل ،
وتحاول أمه - بما وهبها الله من غريزة خاصة - أن تصل إلى ما يدور
في نفس فتاتها ، فلا تتمكن . و «مصعب» يزيد في جد الحياة إمعاناً ،
وكأن أيامه السوالف حلم رهيب ، أو أشباح ماضية لم يعد بينه وبينها
صلة من الصلات .

ترزع أمه هذه الحالة الجديدة فتساءل ، وتلمح في السؤال ،
و «مصعب» يزداد إمعاناً في السكوت ، لكن ما لبثت أمه زمناً طويلاً
حتى جاءها «عثمان بن طلحة النهدي» يخبرها أن «مصعباً» أسلم ،
فلقد بصر به «عثمان» يصلى .

... أتى «دار الأرقم» البيت الخالد ساكنٌ جديد ، هو «مصعب

ابن عمير» دخل الفتي القاتن العاطر إلى محمد رسول الله لسمع كلامه ، ويتأمل حقيقة الدعوة الجديدة . تلك الحقيقة التي كانت كلها جدًّا ، وقوة ، وصراحة . وكانت دعوة إلى الانصراف عن حياة قريش الناعمة المترفة .

لم يُثْنِ هذا كله « مصعب بن عمير » ، لقد سمع وفكر ، وآمن وأسلم . ولقد هاجر « مصعب بن عمير » هجرته الأولى عن متاع الحياة ومفاتها إلى الله ورسوله ، وكانت تلك الهجرة الأولى هي سر تفكيره العميق .

* * *

علم أهله إذاً بإسلامه ، فأخذوا يُذَيِّقُونَهُ ألواناً من التضييق والعذاب ، ثم حبسوه ، لكن لم يُلْهِ هذا كله « مصعباً » عن دينه ، آمنت النفس الكبيرة . وإيمان النفس يتسامى على كل ما يقف في وجهها من عقبات ، فلا تلقاها إلا صغائر وتوافه .

ودعا « محمد ﷺ » أصحابه إلى الهجرة إلى أرض النجاشي ، وقد هاجر « مصعب » فيمن هاجر ، مُقَارِقاً أهله وعشيرته ، غير واضع نُصْبَ عينيه إلا هذا المثل ، مثل المهاجرة في سبيل الله . وكانت تلك هجرته الثانية .

وأصاب « مصعباً » هناك من جَدَّب العيش ما أصابه ، حتى رجع متغير الحال إلى مكة فيمن رجعوا إليها ، وعاش « مصعب » في فقر مدقع حتى إنه ليقبل ذات يوم ، والنبي ﷺ جالس في أصحابه ، وعليه ملابس ممزقة ، فلما رآه أصحاب النبي ﷺ نكسوا رؤوسهم له ، ليس عندهم ما يغيرون عنه ، فلم فرد - صلوات الله عليه وسلامه - عليه ، وأحسن عليه الثناء وقال : « الحمد لله ، مقلب الدنيا بأهلها ، لقد رأيت « مصعباً » وما بمكة فتي من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله » .

ولما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر من أهل يثرب ، بعث رسول الله ﷺ معهم - المهاجر الدائم - « مصعب بن عمير » يُفَقِّهُهُمْ في القرآن الكريم ، وكانت تلك هجرته الثالثة .

نزل « مصعب » على « أسعد بن زرارة » وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم . فيدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن . فيسلم الرجل والرجلان . حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها . وعلى يديه أسلم « سعد بن معاذ » و « أسيد بن حضير » ، ثم كتب إلى رسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه يستأذنه أن يجمعَ بهم ، فأذن

لهم ، فجَمَعَ بهم في دار « سعد بن خيثمة » ، فهو أول من جَمَعَ في الإسلام جمعة .

واستدار العام وخرج حاج الأوس والخزرج إلى سول الله ، لكي يبايعوا بيعة العقبة الثانية ، وخرج معهم مصعب بن عمير ، وقد رافق في رحلته «أسعد بن زرارة» فَقَدِمَ مكة ، فجاء منزل رسول الله ﷺ أولاً ، ولم يقرب منزله ، فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام ، واستبقاه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد سربكل ما أخبره ، وبلغ أمه أنه قد قدم ، فأرسلت إليه : يا عاق ! أتقدم بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي . فأجاب : « ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ » ، فلما سلم على رسول الله صلوات وسلامه عليه - ذهب إلى أمه . فقالت : إنك لعلي ما أنت عليه من الصِّبَاة بعد ؟ ..

- أنا على دين رسول الله ﷺ ، وهو الإسلام الذي رضيهِ الله لنفسه ولرسوله .

- ما شكرت ما رثيتك . مرة بأرض الحبشة ، ومرة بأرض يثرب .
- أفرُّ بديني أن تفتنوني .

فأرادت أمه حبسه مرة أخرى ، فقال : لأن أنت حبستني

لأحرصن على قتل من يتعرض لى .

قالت : فاذهب لشأنك . وجعلت تبكى .

فقال « مصعب » : يا أمه ، إني لك ناصح . وعليك شفيق ،
فاشهدى أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

- والثواب . لا أدخل فى دينك فيزرى برأى ، ويضعف عقلى ،
ولكنى أدعك وما أنت عليه ، وأقيم على دينى .

وأقام « مصعب » مع النبى ﷺ بمكة ، بقية ذى الحجة ، والمحرم
وصفر . ثم هاجر إلى المدينة ثانية ، لخلال شهر ربيع الأول ، قبل مقدم
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، باثنتى عشرة ليلة .

وهاجر محمد ﷺ إلى المدينة ، وأقام الدولة الأولى ، وعاش
« مصعب بن عمير » تلك السنين الأولى العجاف ، التى مرت
بالمسلمين راضياً ، حتى دعا الله إلى الذب ^(١) عن الدين بالسيف ،
واشتعلت نار الحرب بين قريش والمسلمين فى « بدر » وكان « مصعب »
من أبطالها الميامين ^(٢) .

وعادت قريش تحمل الحزى والعار إلى مكة ، وفى « القليب »

(١) الذب : الدفاع .

(٢) الميامين : جمع ميمون وهو المبارك .

أشرافها وأصحاب الصدارة فيها مُضَرَّجِينَ بالدماء ، واشتعلت النار مرة أخرى في « أحد » وانتصر المسلمون أول النهار ، لكن ما لبث أن نظر بعضهم إلى متاع الدنيا فهزموا ، وكان « مصعب » يحمل لواء المسلمين فثبت به ثبوت الرواسي ^(١) . فأقبل ابن قتيبة (فارس من قريش) فضرب يده اليمنى فقطعها و « مصعب » يقول :
(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...) ^(٢) .

وأخذ اللواء بيده اليسرى ، وَجَنَأَ ^(٣) عليه ، فضرب يده اليسرى فقطعها ، فجنأ على اللواء وضمه بعضديه على صدره وهو يقول :
(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) .

ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ، ووقع « مصعب » وسقط اللواء فابتدره رجلان من بني عبد الدار : سويط ابن سعد ، وأبو الروم بن عمير ، فأخذاه أبو الروم ، ووقف محمد رسول الله ﷺ على الشهداء يقرأ الآية :

(١) الرواسي : الجبال .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٣) جنأ : أكب عليه ليحميه .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظَرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (١).

ثم حمل إليه «مصعب بن عمير» فنظر إليه ، وقد ذكر أيامه الماضية في مكة فقال : لقد رأيتك بمكة ، وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت مُشَعَّتُ الرأس في بُرْدَة ، ثم أمر به أن يُقْبَر ، فنزل إلى قبره أخوه «أبو الروم بن عمير» و «عامر بن ربيعة» و «سويبط بن أسعد بن حرملة» .

وكانت تلك هجرته الأخيرة في الأربعين سنة ، إلى الله ورسوله .

° ° °

فتحت البلدان على المسلمين ، وملكوا العالم بأجمعه ، وفي حلقة من حلقات مسجد النبي صلوات الله وسلامه عليه وقف «خَبَّاب بن الأرت» يقول : هاجرنا مع النبي ﷺ نلتمس وجه الله ، فوجب أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً ، منهم «مصعب ابن عمير» ، ومنهم من أينعت له ثمرته فهو يعهد بها . قتل يوم أحد فلم نجد ما نكفنه فيه إلا بردة ، إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا

غطينا رجليه خرج رأسه ، فأمرنا النبي ﷺ أن نعطى رأسه وأن نجعل عليه من الإذخر .

* * *

وسكت القوم لقارئ يقرأ في جانب من جدران المسجد :
(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ
فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (١) .

(١) سورة الرعد : ٢٣ ، ٢٤ .

الطَّلَّ الخبائي^(١)

« أيتها الدار الرفيعة المنار ، كم علا في رحابك
من أناشيد الوجود .. وكم ذكر اسم الله .. تلك
الأصوات التي كانت ترتفع في جنباتك الواسعة
أصبحت أثراً يتحدث به النامس وأصحابك القر
طواهم الدهر الرهيب .. إلا أنهم عاشوا وماتوا
أكفء لعباهلة الرجال » .

الحياة تنساب في مكة انسياباً ، ودورها مفتوحة عامرة ، يخرج منها
أهلها ويدخلون ، واللهو فيها كما هو . بل زاد القرشيون إمعاناً في
شهواتهم ولذائذهم . لقد خرجت منها الحفنة القليلة من أصحاب محمد
ﷺ فما أحسن بهم إنسان . حقاً إن قريشاً لتفكر تفكيراً عميقاً في
هؤلاء النفر من قريش . الذين آمنوا برسالة « محمد » ﷺ . فصغرت
الدنيا جميعها في نفوسهم . فما أمرهم بالهجرة إلى الحبشة . البلد النائي
البعيد . حتى هاجروا . فلما مهد الله لهم السبيل إلى يثرب .. أمرهم
بالرحيل إليها فرحلوا .. حقاً إن قريشاً لتفكر في هؤلاء الذين فتنتهم فما

(١) الطلل : ما تبقى من آثار الديار . الخبائي : الخامد الساكن .

اَفْتَتُوا ، وَصَبَّتْ عَلَيْهِمُ أَنْوَاعُ الْعَذَابِ فَمَا وَهْنُوا ^(١) تَفَكِيرٌ عَمِيقٌ ، مَا يَلِبْتُ أَنْ يَزُولَ حِينَ تَقْبَلُ الدُّنْيَا وَشَهْوَاتِهَا الْغُرُورَ .. لَكِنْ مَا زَالَ يَتَرَدَّدُ فِي النَّفْسِ قَوِيًّا .

سَارَ مَشِيخَةً قَرِيشَ : عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ ، وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ ، مُضْعِدِينَ إِلَى أَعْلَى مَكَّةَ ، فَلَمَحُوا دَارَ بَنِي جَحْشٍ وَقَدْ أُغْلِقَتْ ، لَقَدْ أَوْعَبَ أَصْحَابُهَا جَمِيعًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهَجَرَهَا رَجَالُهُمْ وَنَسَاؤُهُمْ .. فَلَا سَاكِنَ فِيهَا بَعْدَ وَلَا مُقِيمٍ .

نَظَرَ إِلَيْهَا عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَهِيَ سَاكِنَةٌ وَحِيدَةٌ ، تَسْقَعُهَا الرِّيحُ ، وَتَصْطَدِّمُ بَعْرَصَاتِهَا ^(٢) ، وَتَخْفِقُ أَبْوَابُهَا يَبَابًا ^(٣) ، فَتَنْفَسُ الصَّعْدَاءُ ، ثُمَّ قَالَ :

وَكُلُّ دَارٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهَا يَوْمًا سَتَدْرِكُهَا النُّكْبَاءُ ^(٤) وَالْحَوْبُ ^(٥)

(١) مَا وَهَنُوا : مَا ضَعُفُوا .

(٢) بَعْرَصَاتُهَا : بِسَاحَاتُهَا .

(٣) يَبَابًا : خَرَابًا .

(٤) النُّكْبَاءُ : الْمَصَائِبُ .

(٥) الْحَوْبُ : التَّوَجُّعُ .

ثم قال بعد هُنيئة^(١) : أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها . فقال أبو جهل : وما تبكى عليه من فل^(٢) بن فل .. هذا عمل ابن أخى . فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا .

يا رسالة الخلد الأبدية .. إنهم ما فهموا حقيقتك بعد ، ولو اطلعوا على جوهرها السامى لعلموا أنه - بجانبك - تتضاءل الدنيا جميعها ، فلا أهل ولا ولدان ، ولا مال ، ولا متاع .. وأنت أيتها الدار الرفيعة المنار ، كم علا فى رحابك من أناشيد الوجود ! وكم ذكر اسم الله ، تلك الأصوات التى كانت ترتفع فى جنباتك الواسعة أصبحت أثراً يتحدث به الناس .. وأصحابك الغرطواهم الدهر الرهيب ، إلا أنهم عاشوا وماتوا أكفاء^(٣) لعباهلة^(٤) الرجال .

وعدا أبو سفيان على دار بنى جحش فباعها ، فذكر عبد الله ذلك

(١) هنية : فترة قصيرة .

(٢) فل : واحد .

(٣) أكفاء : أشباه جمع كفاء .

(٤) عباهلة : عظماء

لرسول الله ﷺ فقال له : ألا ترضى - يا عبد الله - أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك .

إن المسلمين ليخرجون إلى يثرب أرسلالاً^(١) وجاعات .. ومن بينهم أحياء ثلاثة هاجرت بأكملها : بنو مظعون ، وبنو البكير ، وبنو جحش .

وكان على رأس بني جحش : عبد الله بن جحش . سيد الحى ، دعا رسول الله دعوته فأمن به قبل أن يدخل دار الأرقم ، وأمرهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة فهاجر هو ، وأخوه أبو أحمد ، وأخواتهما زينب بنت جحش ، وحمنة بنت جحش ، وأم حبيبة بنت جحش .. ثم حين عادوا إلى مكة أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب ، فهاجر الحى بأكمله ، مَنْ ذهب منهم إلى الحبشة ، وَمَنْ لم يذهب .

القافلة تسير مهاجرة إلى الله ورسوله ، وأبو أحمد بن جحش - وكان شاعراً كفيف البصر - يُردّد هجرة بني جحش بن غنم بن دودان :

(١) أرسلالاً : جمع رسل وهى الجماعة

لَمَّا رَأَيْتُنِي أُمَّ أَحْمَدَ غَادِيًا^(١) بَذَمَةٌ مِنْ أَخْشَى بَغِيبٍ وَأَرْهَبِ
 تَقُولُ : فِيمَا كُنْتُ لَا بَدَ فَاعِلًا فِيمَمَّ بَنَى الْبُلْدَانَ وَلَتْنَا يَثْرَبَ^(٢)
 فَقُلْتُ لَهَا : بَلْ يَثْرَبُ الْيَوْمَ وَجْهَنَا وَمَا يَشُرُّ الرَّحْمَنُ فَالْعَبْدُ يَرْكَبُ
 إِلَى اللَّهِ وَجْهِي وَالرَّسُولَ وَمَنْ يُقِمَّ إِلَى اللَّهِ يَوْمًا وَجْهَهُ لَا يَجِيبُ

* * *

ونزل عبد الله بن جحش ، وأخوه أحمد ، على عاصم بن ثابت
 أبي الأفلح ، وتفرق بقية الحى بين بيوت الأنصار ، يعيشون فى
 رحابهم .. حتى نادى منادى الجهاد .. وأراد رسول الله أن يُخْرِجَ
 لقريش مَنْ يَرْتَضِدُّ لَهُمْ ، فبعث رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن
 جحش ، وأمره أن يخرج مع ثمانية من أئمة المهاجرين ، ليس فيهم من
 الأنصار أحد ، قال سعد بن أبى وقاص : قال النبی ﷺ : « لأبعثن
 عليكم رجلا ، أصبركم على الجوع والعطش » . فبعث علينا عبد الله
 ابن جحش ، وكتب له كتاباً ، أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم
 ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً .

(١) غادياً : المراد سائراً

(٢) فيمم بنا : توجه بنا . لتنا : لتبعنا من التأتى وهو البعد .

سارت كتيبة المهاجرين ، وعلى رأسهم « عبد الله بن جحش »
يومين ، ثم فتح الكتاب وإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا ،
فامض حتى تنزل نخلة ^(١) ، بين مكة والطائف ، فترصد ^(٢) بها
قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال : « سمعاً وطاعة » .
ثم التفت إلى أصحابه قائلاً : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى
نخلة . أرسدُ بها قريشاً حتى آتية منهم بحجر ، وقد نهاني أن أستكره أحداً
منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق ، ومن كره
ذلك فليرجع ، فأما أنا فهاض لأمر رسول الله ﷺ .

فمضى ومضى معه أصحابه . ولم يتخلف عنه منهم أحد ، وسلك
على الحجاز . حتى إذا كان بمعدن - فوق الفرع - أضلَّ سعد
ابن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان بعيداً لهما ، كانا يعتقبانه ^(٣) . فتخلفا
عنه في طلبه . ومضى عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة . ففرت
به غير ^(٤) لقريش تحمل تجارة لها ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان
ابن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل .

(٣) يعتقبانه : يتناوبان الركوب عليه .

(١) نخلة : مكان

(٤) غير : المراد قافلة التجارة .

(٢) فترصد : فتربص وانتظر .

ورآهم القرشيون وقد نزلوا قريباً من القوم . فتشاور المسلمون - وذلك في آخر يوم من رجب - فقالوا : « والله لن تركم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، لن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام » .

تردد القوم قليلا ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على مهاجمتهم ، وهجمت كتيبة الله على المشركين . فقتل عمرو ابن الحضرمي بسهم ، وأسرع عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وهرب نوفل بن عبد الله .

* * *

فلما قدم عبد الله بن جحش بالأسيرين والعير على رسول الله ﷺ قال لهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » (١) .

وأبى أن يأخذ من الغنيمة شيئاً . واتخذت قريش من هذه الغزوة دعاية قاسية ضد رسول الله : « قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدماء ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال » ، وزاد تعنيف المسلمين لعبد الله ، وسقط في يده ولكن

(١) الشهر الحرام هي الأشهر التي يحرم فيها القتال وهي : ذو القعدة - ذو الحجة - المحرم - رجب .

الوحي ينزل من مالك الأرض والسموات :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) ^(١) .

الله أكبر .. ذهب عن عبد الله وأصحابه ما كان بهم من خوف وروع ، وقسم رسول الله الغنائم بين المسلمين ، وزاد في فرح المسلمين أن أحد الأسيرين - الحكم بن كيسان - أسلم لله ورسوله .

تعدّون قتلا في الحرام عظيمةً وأعظمُ منه لو يرى الرشد راشدُ ^(٢)
صدّوكمُ عما يقولُ محمد وكفرُ به واللهُ راء وشاهدُ ^(٣)
وإخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يرى الله في البيت ساجدُ

واشتبك المسلمون في بدر ، وأبلى « عبد الله » مع بني غنم بن دودان أحسن بلاء ..

• • •

(١) سورة البقرة : ٢١٧ .

(٢) الرشد : الصواب والخير .

(٣) صدودكم : إعراضكم .

المسلمون في ظاهر المدينة يستعدون لأحد... وهذا عبد الله بن جحش ينادى سعد بن أبي وقاص : « ألا تأتي ندعو الله » .

وسار الصحابيَّان الجليلان إلى مكان خال ، وهناك وقفا فدعا سعد : « اللهم إذا لقيت العدو غداً فلَقِّنِي رجلاً شديداً بأسه ، شديداً حرده ، فأقتله فيك وآخذ سلبه » فأَمَّن عبد الله على ذلك ، ثم وقف ودعا هو : « اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه ، شديداً حرده ، أقاتله فيك ويقَاتِلَنِي ، ويأخذني فَيَجِدْعُ أُنْفِي وَأُذُنِي ، فإذا لقيتك وقلت : يا عبد الله ، فيم جُدْع أنفك وأذنك ! فأقول : فيك وفي رسولك » . قال سعد : « صدقت » .

واشتبك الفريقان في حرب طاحنة ، وقد وفي « عبد الله » أحسن الوفاء ، وفعل الله به ما دعا له . فقد اُقتتل - بعد أن أبلى في القتل أحسن بلاء - مع أبي الحكم بن الأحنس بن شريق ، فقتله هذا الأخير وكان عمره يومئذ نيفاً وأربعين سنة .

لقد مات المجدع في الله - كما كانوا يدعونه - ومربه سعد بن أبي وقاص ، فتذكر الأُمس القريب . فقال له : كانت دعوتك خيراً من دعوتي ، لقد رأيتك آخر النهار ، وإن أنفك وأذنك معلقتان في خيط .

ثم دفن هو وخاله « حمزة بن عبد المطلب » في قبر واحد .

* * *

انتصر المسلمون ودخلوا مكة ، وتوجه أبو أحمد إلى رسول الله ،
يطالب بدارهم ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ .

فقال المسلمون لأبي أحمد : يا أبا أحمد ، إن رسول الله ﷺ
يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم ، فأطاع أبو أحمد
وأمسك عن كلام رسول الله ، وقال لأبي سفيان .

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبيه ندامه
دار ابن عمك بعثها تقضى بها عنك الغرامه
وحليفكم بالله رب الناس مجتهد القسامه
أذهب بها .. أذهب بها طُوقتها طوق النعامه

* * *

وقف سعيد بن المسيب - إمام التابعين - في مسجد رسول الله ،
يقص حياة عبد الله بن جحش .. ثم قال : « فإني أرجو أن يبر الله آخر
قسمه كما بر أوله » .

لقد باع داره واستريح الثمن داراً في الجنة . فنعمة العقبى .

أصبحت الدار التي سلبت منه - في الله - ظللاً ماضياً ، وهو الآن
في دار البقاء .. وتمتع الناس بلذائذ الحياة ، لذائذ الأرض . أما هو
ففي لذات السماء .

الأوفياء

يا وقعة أحد أنت مصدر الإنسانية الشامل ،
فيك سائر المعاني والمشاعر ، فيك الوفاء وفيك
الحيانة ، فيك الصدق وفيك الكذب ، فيك
الثبات وفيك الفرار ، فيك الإيمان وفيك
النفاق ، فيك الخير وفيك الشر ، فيك كل شيء
يا وقعة أحد ، فأنت العبرة التي يستمد المسلمون
منها كل شيء » .

اقترب المشركون من المدينة بجيشهم الجرار ، لسبع خلون من
شوال ، وباتت وجوه الأوس والخزرج « سعد بن معاذ » ، و « أسيد
ابن حضير » و « سعد بن عباد » ، في ليلة الجمعة ، عليهم السلاح في
المسجد ، خوفاً على رسول الله من المشركين . وحرس المدينة تلك
الليلة ، من جميع وجوهها ، وفي الصباح ، ظهر الرسول ﷺ على
المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس إني رأيت في منامي
رؤيا ، رأيت كأنني في دِرْع حصينة ، ورأيت كأن سفي ذو الفقار

انقصم من عند ظُبيته^(١) ، ورأيت بقرأ يُذبح ، ورأيت كأني مُردِفٌ كَبْشاً .

فقال الناس : يا رسول الله فما أولتها ؟

قال : « أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما انقصام سيفي من عند ظُبيته ، فقتل رجل من أهل بقي ، وأما البقر المذبح ، فقتلي من أصحابي ، وأما مردف كَبْشاً ، فكبش الكتيبة ، نقتله إن شاء الله . »

ورأى رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، ثم قال : « أشيروا عليّ أيها الناس » ، ورأى عبد الله بن أبيّ ألا يخرج ، ولكن قام « حمزة » و « سعد بن عباد » و « النعمان بن مالك بن ثعلبة » وغيرهم من الأوس والخزرج قائلين : « إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا ، أنا كرهنا الخروج إليهم ، جُبناً عن لقاءهم فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت (يوم بدر) في ثلثمائة رجل ، فَظَفَرَكَ الله عليهم ، ونحن اليوم بشركثير . قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا . » ورسول الله من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم ، ويتسامرون كأنهم الفحول ، ووقف

(١) ظبة السيف : حده وستانه .

حمزة - وكان صائماً يوم الجمعة - فقال : « والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي » ، وخرج حمزة يوم السبت صائماً ، ومات وهو صائم ، ورفعت الملائكة إلى السماء صائماً عن الدنيا كلها .

ووقف النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم وقال : « يا رسول الله ، أنا أشهد أن البقر المذبح قتل من أصحابك وأنى منهم ، فلم نحرمنا الجنة ؟ فوالذي لا إله إلا هو لأدخلها » .

فقال رسول الله : بئس ؟

- إني أحب الله ورسوله ، ولا أفر يوم الزحف .
- صدقت .

والتقى الجمعان ، وارتفع اللواء ، فلم يهن النعمان بن مالك ، ولم يجزع ، بل كان أول الموفين بعهدهم . فَرَزَقَ الشهادة التي أراد .

* * *

وقال إياس بن أوس بن عتيك : « يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح ، نرجو - يا رسول الله - أن نُذَبِّحَ في القوم ويُذَبِّحَ القوم فينا ، فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار . مع أني - يا رسول الله - لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا

محمدًا في صياحي يثرب وآطامها^(١) ، فتكون هذه أجرة لقريش وقد
وطثوا سَعَفْنَا^(٢) ، فإذا لم نذب^(٣) عن عرضنا لم يزرع ، وقد كنا -
يارسول الله - في جاهليتنا ، والعرب يأتوننا ، فلا يطمعون بهذا منا .
حتى نخرج إليهم بأسيا فنفذ بهم عنا ، فنحن اليوم أحق ، إذ أيدنا الله
بك ، وعرفنا مصيرنا ، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا » .

وارتفع اللواء .. لواء رسول الله .. وكان إياس بن أوس - المظمئ
إلى مصير خالد في جنات عدن - أول المذبوحين .

» » »

«مالك بن سنان» اجتمع عليه جَدْبُ الحياة وخلو المال ، فلم
يبأس . ولم يهن ، ولم يمد يده إلى كائن من كان ، وفرغ المال جميعه
من يده ، ولكنه لم يسأل ولم يلجأ إلى مخلوق .
(يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيَأُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ الْخَافًا)^(٤) .

(١) الصياحي والآطام : هي الحصون والمرتفعات .

(٢) وطثوا سَعَفْنَا : المراد داسوا أرضنا .

(٣) نذب : ندافع .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٣ .

وتعمر به أيام ثلاثة وهو لا يذوق طعاماً ، يعلم هذا رسول الله فيقول للمسلمين في المسجد : « من أراد أن ينظر إلى العفيف ، فليُنظر إلى مالك بن سنان » .

وفي صباح يوم الجمعة الذي اجتمع فيه المسلمون لتقرير خروجهم ، أو عدم خروجهم ، وقف « مالك » فقال : « نحن والله بين إحدى الحسينين ، إما أن يظفرنا الله بهم ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى - يا رسول الله - يرزقنا الشهادة ، والله - يا رسول الله - ما أبالي أيهما كان ، إن كلاً ففيه الخير » .

وارتفع اللواء .. لواء رسول الله .. وفر كثير من المسلمين .. ولكن مالكاً ثبت في وجه الكفار . يقاتل قتال الأبطال ، ثم أقبل نحو الرسول ، فرأى وجهه قد أصيب ، فاستقبله « مالك » ، ومسح الدم عن وجه الرسول الأعظم ، ثم ازدرده ^(١) ، ووقف أمام المشركين يقاتل ، حتى مزقته الطعنات .

وقبل أن يسجى ^(٢) في قبره صاح الرسول في المسلمين : « من أحب أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فليُنظر إلى مالك بن سنان » .

(١) ازدرده : بلعة بسرعة .

(٢) يسجى : يغطى ويدفن .

« السُمَيَّا بنت قيس » إحدى نساء بنى دينار ، بايعت رسول الله ﷺ ، فلما جاء يوم أحد أرسلت ابنها « النعمان بن عبد عمرو » و« سليم بن الحارث » .

وخرجت « السُمَيَّا » وذلك قبل أن ينزل الحجاب على نساء المسلمين إلى أحد ، لتسأل عن نتيجة القتال ، وكان ابنها قد استشهدا ، فنعيا لها ، فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ ، قالوا : خيراً ، هو بحمد الله صالح ، على ما تحبين .
- أروني أنظر إليه .

فأشاروا لها إليه ، فقالت : كل مصيبة بعدك جَلَلٌ - أى بسيطة - ثم حملت ابنها على ناقتها ، ورجعت إلى المدينة ، فقابلت « عائشة » أم المؤمنين ، فقالت : ما وراءك ؟ !

فقالت السُمَيَّا : « أما رسول الله - بحمد الله - فبخير لم يمِت » ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)^(١) .

فقالت عائشة : « ومن هؤلاء معك » قالت : ابناى ..
وتلك صورة من صور نساء المسلمين الأوليات .

(١) سورة الأحزاب : ٢٥ .

« الحارث بن أنس » من بني عبد الأشهل ، وكم لبني عبد الأشهل من أياد^(١) على الإسلام ! .. خرج الحارث بن أنس ، ويكنى « بأبي الحيسر » إلى مكة العباس الحلف على الخزرج ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، خمسة عشر رجلاً ، فيهم « إياس بن معاذ » ، وأظهروا أنهم يريدون العمرة ، فترلوا على عتبة بن ربيعة ، فأكرمهم ، وطلبوا إليه وإلى قريش أن يحالفوهم على قتال الخزرج ، فقالت قريش : « بَعُلْتُ دَارَكُمْ مِنْ حَتَّى يَجِيبَ دَاعِينَا صِرْحَكُمْ ، وَحَتَّى يَجِيبَ دَاعِيَكُمْ صِرْحَنَا » . وسمع بهم الرسول فأتاهم ، فجلس إليهم فقال : « فهل لكم إلى خير مما جئتم له ؟ » قالوا : وما ذاك ؟ قال : « أنا رسول الله ، بعثني الله إلى عباده أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وقد نزل على الكتاب » .

فقال إياس بن معاذ : « يا قوم هذا - والله - خير مما جئتم له » . فأخذ « أبو الحيسر » - وقد تملكته حمية الجاهلية - كفاً من البطحاء ، فرمى بها وجهه ، ثم قال : ما أشغلنا عن هذا يا قوم ! ولم يقدم وفد على قوم بشر مما قدمنا به على قومنا ، إنا خرجنا نطلب حلفاً على عدونا ، فنرجع بعداوة قريش مع عداوة الخزرج .

(١) أياد : نيم جمع يد بمعنى النعمة .

ثم لم ينشب إياس حين رجع أن مات ، فلقد سمعناه يهلل حتى مات ، فكانوا يتحدثون أنه مات مسلماً ، لما سمع من رسول الله . وتستدير الأعوام ويؤمن « أبو الحيسر » بالله ورسوله ، ويخرج إلى بدر ، فيقاتل أحسن القتال ، وفي أحد ، لم يفر ، ولم يهرب .. بل وقف كالطود الثابت حتى قتل . وكان موطنه السرمدي^(١) ، جنات لا تزول .

(١) السرمدي : الدائم الذي لا ينتهي .

١ - تحت اللواء آل نسيية بنت كعب

« نامت نسيية بنت كعب في جنة البقيع مع
الصدقين والشهداء ، وارتفع مقامها العلوى في
الأرض إلى مقام أعلى في السماء ... »

انتشرت دعوة الله في يثرب ، وسارع هذا الحى منها « بنو النجار »
إلى الإيمان بها ، وكان في مقدمتهم « زيد بن عاصم » وزوجته « نسيية
بنت كعب » « أم عمارة » وولداها « عبد الله » و « حبيب » . أضواء
الإسلام جوانب هذا البيت العظيم ، واختلط بدماء أهلته ؛ فكانوا أول
المؤمنين به ، وأول الداعين له . واستدار العام وخرج المسلمون إلى
الكعبة للحج ، وخرجت معهم « نسيية » وزوجها وولداها.
كانوا جميعاً يتحرقون شوقاً لرؤية مصدر النور الإلهى ، الذى نعموا
به ، وسينعمون ، وستنعم به الدنيا من بعدهم ، والإبل ترتفع
وتتخفض في درّب الطرق ، حتى أقبلوا على مكة .

مضى ثلث الليل ، ونامت مكة ولكن أطيافاً تمر في هذا الظلام
 المُدْلِهِم ، مُشْرِعَةً الخَطَى نحو العقبة ، مستخفية ما استطاعت .
 وهناك في الشَّعْب ، وقف الأنصار في مهابة وجلال ، ينتظرون
 مقدم النبي الأعظم .. لِيُشْهَدُوا إله السموات والأرض ، على عهودهم
 ومواثيقهم .

وأقبل رسول الله ﷺ ومعه عمه « العباس » .
 شهدت الدنيا في هذه الليلة أعظم صفحات الطهر والوفاء ، لقد
 عاهد الأنصارُ رسولَ الله ﷺ أن ينعوه مما ينعون منه نساءهم
 وأبناءهم .

وبايعوا ، لم يتخلف منهم إنسان ، وتحت ظلال سيوفهم المسلوطة
 بايعت أم عمار « نسيبة بنت كعب » ، رسول الله ﷺ .
 ورجعت « نسيبة » مع قومها إلى يثرب ، تبعث في نفوس أبنائها
 روح التضحية والإقدام ، وتَجَبُّب في نفوسهم غاية المسلم الحق :
 القتال والاستشهاد .

وهاجر رسول الله ﷺ إلى يثرب . ثم دعا إلى الجهاد ، فخرج
 عبد الله إلى بدر ، يقاتل تحت اللواء .. لواء التوحيد الحق ، الذي أراد
 الكفرة والمشركون أن ينزلوه من عليائه فما استطاعوا ، لقد دافع عنه

المسلمون ، وكانت الدائرة على الكفرة والمجرمين .
وعاد عبد الله إلى أمه ، قرير العين راضياً ببلائه في سبيل الله .
أما « حبيب » فلم يكن قد بلغ الحلم بعد ، ولكن هذه الروح
الصادقة التي تنبعث من « نسيية » أمه تبعث في نفسه أناشيد النصر ،
أناشيد القوة ، والأناشيد التي تفجرت من ينبوع هذا الدين ، فكانت
له السيادة على العالمين .

ومات « زيد بن عاصم » فخطبها « غزية بن عمر » ، وتزوجها ،
حتى إذا كان يوم أحد خرجت « نسيية » لتسقى الجرحى ، ولم تكن
آيات الحجاب قد نزلت بعد ، وخرج معها زوجها وابنها .
الربيع والدولة للمسلمين ، ولكن أقواماً منهم - وبين يدي
الرسول - ينظرون إلى متاع الدنيا الفاني ، فيحاولون الاغتراف منه ،
فيقبل عليهم عدوهم من كل جانب ، فيقلب النصر خذلاناً ، ويفر
الأبطال الأشاوس ^(١) منهزمين ، لا يُرجعهم شيء ، والمشركون يحيطون
برسول الله من كل جانب ، وكلهم عدو موتور ^(٢) منه ، فلو اجتمعت
عداوة الدنيا ما بلغت عداوة هؤلاء ، وفي يد كل منهم سلاح ماحق ،

(١) الأشاوس : جمع أشوس وهو الرافع رأسه تكبراً .

(٢) موتور : من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

وعتاد هائل ، وهم - فوق هذا وذاك - عدو متصر ، وعدو لجب من الخلق .

فى تلك اللحظات .. اللحظات التى لا تنسى من تاريخ الخلائق ، ارتفع اللواء ، لواء رسول الله ﷺ ، يطلب من أولئك الذين آمنوا حق ما سعدوا به من إيمان .

إنها حقيقة أبدية ، إن خفظوها اليوم ، كانوا بعد اليوم من عناصر تلك الحقيقة ، فلا تعرف إلا وهم من أجزائها ، انطوت جوانحهم عليها ، فرعايتها اليوم حق الرعاية هى أبسط ما يتطلب جوهرها السامى منهم ، ولكن أين ؟ أين ؟ .. أين كل هذا فى هذه اللحظة العنيفة ، لقد اندفعوا لا يلوون على شىء .

ارتفع اللواء ، لواء رسول الله ، يذكر الذين عاهدوا عهودهم ، الذين ارتبطوا بمواثيق الله موافقهم .

ولكن ما العهود وما المواثيق والموت يقط الرقاب قطاً ؟ لقد مات « حمزة بن عبد المطلب » . لقد مات « مصعب بن عمير » . لقد مات « عبدالله بن جحش » . ماتت الصفوة المختارة من صحابة الرسول ، فما للباقين إلا النجاة ..

ارتفع اللواء . لواء رسول الله ، ولكن هل للحقيقة الإلهية أن

تنتهى وتنفى ؟ هل لدعوة الله أن تتحطم وتلاشى ؟ أبداً أبداً .

لقد ثبت حول اللواء ، حفنة قليلة مؤمنة ، لا تزيد على عشرة ، وسط هذا الجحفل المشرك الكافر .

آمنوا وكان إيمانهم يزن إيمان الأمة جميعها ، إذ ادلهم عليهم الخطب ، وأحاط بهم المشركون من كل جانب .

ارتفعت صيحاتهم بكلمة التوحيد ، والله يسمعها ؛ والملائكة كانوا الأوفياء ، الذين حفظوا ادعوة الله ، يوم أن كادت تؤذن بالزوال ، وتساقطوا واحداً بعد واحد ، ولكنهم كانوا كلما سقط واحد منهم ، ازدادوا مثابرة وصبراً و يقيناً .

ومن بين هؤلاء كانت « نسيبة بنت كعب » ، وكان ابنها « عبد الله » وكان زوجها « غزية » .

» » »

ألقت « أم عمارة » نسيبة بنت كعب سقاءها ، حين هزم المسلمون ، واستلت سيفاً تقاتل دون رسول الله ﷺ : وأخذت تلتقي النبل دونه .

يقول رسول الله ﷺ « ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها ، تقاتل دوني » .

ثبت معها ابنها « عبد الله » وزوجها « غزية » في نفر . ما يتمون

عشرة ، والناس يمرون منهزمين ، ورآها رسول الله لا تُرْسَ لها ، فلمح رجلاً مُولِياً معه ترس فقال له : « أَلْقِ تُرْسَكَ إِلَى مَنْ يِقَاتِلُ » . فَأَلْقَى ترسه ، فَأَخَذَتْهُ أُمُ عِمَارَةَ تُرْسُهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ .

وَأَقْبَلَ فَارِسٌ مِنْ فَرَسَانِ قَرِيشٍ فَضَرَبَهَا ، فَتَرَسَتْ لَهُ ، فَلَمْ يَصْنَعْ سِيفَهُ شَيْئاً ، وَوَلَّى فَهَجَمَتْ عَلَيْهِ « أُمُ عِمَارَةَ » وَضَرَبَتْ عِرْقُوبَ فَرَسِهِ فَوَقَعَ عَلَى ظَهْرِهِ . فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصِيحُ : « يَا بَنَ أُمِ عِمَارَةَ . أَمْكُ ، أَمْكُ » فَعَاوَنَهَا ابْنُهَا ، حَتَّى قَتَلْتَهُ .

يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ : جُرِحْتُ يَوْمَئِذٍ جَرْحاً فِي عِضْدِي الْيَسْرَى ، ضَرَبَنِي رَجُلٌ كَأَنَّهُ الرِّقْلُ ^(١) ، وَلَمْ يُعْرِجْ عَلَيَّ ، وَمَضَى عَنِّي وَجَعَلَ الدَّمُ لَا يَرِقُ ^(٢) ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَغْصِبُ جَرْحَكَ ، فَتَقْبَلُ أُمِّي إِلَيَّ وَمَعَهَا عَصَائِبُ فِي حَقْوِيهَا ^(٣) ، قَدْ أَعَدَّتْهَا لِلْجِرَاحِ ، فَارْبَطْتُ جَرْحِي ، وَالنَّبِيُّ وَاقِفٌ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، ثُمَّ قَالَتْ : « انْهَضْ نِصَارِبَ الْقَوْمِ » ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « وَمَنْ يُطِيقُ مَا تُطِيقِينَ يَا أُمُ عِمَارَةَ ؟ ! »

(١) الرِّقْلُ : النخل الطوال الواحدة رَقْلَةٌ (المصباح) .

(٢) لَا يَرِقُ : لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَجْفُ .

(٣) حَقْوِيهَا : مَفْرَدُ الْحَقْوِ وَهُوَ مَوْضِعُ شَدِّ الْإِزَارِ وَهُوَ الْخَاصِرَةُ ثُمَّ تَوَسَّعُوا فِيهِ حَتَّى سَمَّوْا الْإِزَارَ الَّذِي يَشُدُّ عَلَى الْعَوْرَةِ حَقْوًا وَاجْمَعُوا أَحَقُّ وَحَقُّ وَحَقَاءُ .

لك الله أيتها السيدة الطاهرة ! لم تكن الحياة لديك نعيماً يقبل عليه الإنسان ، أو راحة يستعذبها المترفون ، وإنما كانت دفاعاً عن دين خالد ، وعقيدة علوية ، فحين كان الموت يتمشى خلال الصفوف ، وكانت الدماء تسيل أنهاراً- ، وأنت وابنك وزوجك وسط مَعْمَعَان الموت ، لم يأخذك الوهن ، أو الضعف ، أو الخوف على نفسك وولدك وزوجك ، بل كان كل هذا ضئيلاً حقيراً ، بجانب الدفاع عن دين الله ورسوله ، لك العقبي وخير الأخرى !

• • •

وأقبل الرجل الذى ضرب عبد الله ، فقال رسول الله : « هذا ضارب ابنك » ، فاعترضت له ، وضربت ساقه فبرك ، فتبسم الرسول عليه الصلاة والسلام حتى رأت نواجذه وقال : « استقدت يا أم عمارة » . ثم أقبلت تعلوه بالسلاح ، حتى أتت على نفسه ، فقال النبي ﷺ : « الحمد لله الذى أظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك تارك بعينك » .

وأقبل عبد الله مرة أخرى إلى جانب الرسول فقال : أين ابن أم عمارة ؟ فقال : نعم ! قال : ارم . قال : « فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر ، وهو على فرس ، فأصبت عين الفرس ، حتى هوى

هو وصاحبه ، وجعلت أعلاه بالحجارة حتى نضدت عليه منها
وقراً» (١) .

° ° °

هجم المشركون المهجوم الأخير على رسول الله ، لكي يستأصلوا
شأفة المسلمين ، ويقتلوه عليه الصلاة والسلام ، فصبر الثابتون تحت
اللواء ، وأقبل « ابن قبيصة » يقول : دلوني على محمد ، لانجوت إن
نجنا ، فاعترضت له « نسيبة » مع مصعب بن عمير ، فقتل المشرك
مصعباً ، فوقفت في وجهه « نسيبة » ، فضرها ضربة هائلة ، وأصابها
في عنقها إصابة شديدة ، لكنها ما وهنت ، بل ضرته ضربات ،
ولكن عدو الله كان له درعان .

يقول « ضمرة بن سعيد المازني » - يحدث عن جدته - : إن النبي
ﷺ كان يرى « نسيبة بنت كعب » يومئذ تقاتل أشد القتال ، وإنها
حاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً ثم يقول : وإني
لأنظر إلى ابن قبيصة وهو يضربها على عاتقها ، وهو أعظم جراحها .
ونظر رسول الله ﷺ إلى جرح « نسيبة » على عاتقها ، فنادى ابنها
عبد الله : « أملك أملك أعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل

(١) نضلت عليه منها وقراً . المراد تراكت الحجارة فأصبحت ثقيلة .

بيت ! مقام أمك خير من مقام فلان وفلان . رحمكم الله أهل البيت .

وسمعت « نسيية » صوت الرسول ﷺ بهذا ، والدم ينفجر منها انفجاراً ، فصاحت : « ادع الله أن نرافقك في الجنة » .
فأجابها الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة » .

فهتفت حينئذ : « ما أبالي ما أصابني من الدنيا » .
وانهارت حُجْبُ الزمان والمكان أمام عينيها ، ولم يعد أمامها إلا رسول الله ﷺ ، حقيقة سامية نزلت من إله السموات ، تمثلت فيه ، فيجب حفظها ، ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً ، ولقد وَفَّتْ « نسيية بنت كعب » تحت اللواء ، كما وفى ابنها وزوجها ، ما وفى غيرهم من الثابتين ، حتى كانت المعجزة الكبرى إنقاذ الرسول .

وفي المدينة أقيمت الأُحْزَانُ في كل مكان ، لقد قُتِلَ الصَّفْوَةُ الأَخْيَارُ من أصحاب رسول الله ، ولكن « نسيية » لم تجزع ولم تن ، بل كانت صابرة على جرحها ، ولقد نادى منادى رسول الله إلى « حمراء الأسد » لتتبع المشركين ، فنفر المسلمون جميعاً إليه ، وأرادت أم عمار « نسيية » أن تخرج أيضاً ، فشددت عليها ثيابها ، فما استطاعت

من نَزَفَ الدم ، فمكث بعض نساء المسلمين حولها يكمدن الجراح حتى الصباح ، فلما رجع رسول الله من الحمراء ، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها « عبد الله بن كعب المازني » يسأل عنها . فرجع إليه يخبره بسلامتها ، ففرح بذلك .

* * *

آيات الحجاب تنزل على رسول الله ، فتقبلها المسلمات ، راضيات قانعات ، ويصبح جهادهن ضم الذبول وقرار البيوت . وهذه أم عمارة « نسيبة بنت كعب » تشعل في نفس ولديها آيات الجهاد ، فيشهدان المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، و« حبيب » ابنها الصغير ينشأ في طاعة هذا الدين الأقدس ، و« نسيبة » - كما قلنا - راضية بجهادها في بيتها ، وجهاد ولديها في ميادين القتال . ودعا رسول الله ﷺ إلى الحج ، فخرجت « نسيبة » ، غير أن قريشاً منعت المسلمين من دخول الكعبة ، وكادت الحرب يشتعل أوارها .

وتحت الشجرة بايع المسلمون رسول الله ﷺ على الموت « بيعة الرضوان » ، وشهدتها « نسيبة بنت كعب » ، فلما وهنت ، وما جزعت .

ولقد صاحب أبناؤها رسول الله في كل غزواته ، حتى قضى .

* * *

اكتمل « حبيب » ابنها ، حياة وقوة وجمالاً وجهاداً ، وبعثه المسلمون إلى مسيلمة الكذاب الخنفي صاحب البمامة برسالة منهم ، فلم يرعَ مسيلمة حرمةَ الرسل ، بل قبض عليه وأوثقه ، وجعل يقول له : « أفشهد أني رسول الله ؟ » ، فيقول : « لا أسمع » ، وجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات في يده . لا يزيده على ذلك .

إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن به وصلى ، وإذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع .

وعلمت أم عمارة « نسيبة بنت كعب » باستشهاد ولدها على يدى مسيلمة .

قُتِلَ « حبيب » عضواً عضواً وهو صابر على قضاء الله ، لا يذكر سوى الصلاة على رسول الله ، ألم يتعلم في مدرستها ومن حياتها أن الجهاد غاية المسلم ونهايته ، وأن الشهادة أمنيته ومطلبه ، لقد بعثت الإيمان في نفسه ، فملك عليه كل شيء ، فما أحس بألم أو عذاب ، كانت روحه فوق الدنيا هائمة ، مخلقة فوق عالم الآلام والأوصاب .

... علمت أم عمارة بكل هذا ، ولكن ألم تكن رضية حياة المجاهدين ، ورضيت لأولادها هذه الحياة ؟ وصحابة رسول الله ﷺ يَمُرُّونَ بِبَيْتِ أُمِّ عِمَارَةَ ، فيحسون أن في جوفه قلباً يحترق ، وأنها صابرة

كما كانت ، وقد نذرت لله أن تشهد مقتل مسيلمة ، وتشارك فيه .
وسار جيش خليفة رسول الله ﷺ إلى بني حنيفة ، ليقضى على
دعوة مسيلمة الكذاب ، وخرج فيه عبد الله بن زيد ، ومعه أمه
أم عمار ، مُحَجَّبةً في هَوْدَجِها .

لقد نذرت لله أن ترى مقتل مسيلمة ، وتركها المسلمون لتخرج مع
الجيش ، لتنفى بنذرهما ، وكانت تبلغ من العمر أكثر من ستين عاماً .
فكانت سنّها الكبيرة ، وسابق جهادها ، وقتل ابنها على يد مسيلمة
الكذاب - كل هذا كان شافعاً لها في الخروج مع الجيش . وعدم منع
الصحابة إياها من اصطحاب المجاهدين .
وقامت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وانهمز المسلمون وفروا
لا يلوون من كل جانب .
ولكن قائدهم العظيم خالد بن الوليد ، ما لبث أن صاح فيهم :
« وا محمداه » !

وارتفع اللواء .. لواء رسول الله ﷺ مرة أخرى ، فأقبل الصحابة
الخلص ، المهاجرون والأنصار .

وهنا استلّت « أم عمار » المجاهدة القديمة ، التي بلغت هذا العمر
الطويل ، استلّت سيفاً وهجمت مع كوكبة من الأنصار فيها ابنها ، لقد
ارتفع اللواء أمامها ، فذكرها بجهادها القديم ، وانقضّت هذه

الكوكبة من الأنصار على أعداء الله ، وأصاب أمّ عمارة اثنا عشر جرحاً ، فلم تبال .

أيها اللواء ، لقد ارتفعت أمامي مرة أخرى ، فلا حياة إلا تحت ظلك ، ولا سعادة إلا في النضال تحت مبادئك . وقطعت ذراعها ، فلم تأبه لشيء . حتى وصلت الكوكبة إلى مسيلمة الكذاب ، فانقض المسلمون عليه ، وفي مقدمتهم « عبد الله » ابنها ، يقتله بسيفه ، يثار لدينه ولأخيه .

وعادت أم عمارة بذراع واحدة ، وآلام هائلة ، لا يتصورها بشر . غير أنها وفّت نذرها ، وثأرت لابنها ، وحُمِلَتْ إلى بيتها ، وعلم خليفة رسول الله بإصابتها ، فذهب إليها وعادها .

° ° °

ومرت الأعوام ، وأم عمارة في خدّرها ، تتذكر تلك الأعوام الماضية ، والصحابة يعرفون لها مقامها ، هذا المقام الذي رفعها إليه رسول الله .

وأخيراً عادت النفس الراضية المطمئنة إلى ربها ، فانامت « أم عمارة » في جنة البقيع ، مع الصديقين والشهداء ، وارتفع مقامها العلوى في الأرض ، إلى مقام أعلى في دار البقاء ، ولقد

حاربت في الأرض ، وثابرت تحت لواء الحق ، لتفوز بالبعث تحت اللواء .

وبقي « عبد الله بن زيد » يجاهد في جميع المواقع ، ويطلب الشهادة .

ثم مرت على المسلمين السنون العجاف واغتصب الخلافة بنو أمية ، ثم ولي يزيد بعد معاوية الخلافة ظلماً واقتداراً ، فلم يقبل صحابة رسول الله ﷺ بيعة فاجر ، ورفضوا طاعته ، فبعث إليهم يزيد بمنافق فاجر هو « مسلم بن عقبة » وأمره أن يقضى على صحابة رسول الله ﷺ يقتل رجالهم ، ويستبيح ديارهم .

واجتمع صحابة رسول الله ﷺ على رأس جيش من أهل المدينة وفي مقدمتهم « عبد الله بن زيد » ، والتحم الجيشان ، وشاء الله أن ينتصر مسلم ، وجالت خيول بني أمية تقتل وتنهب ، وتعتدى على حرمان النساء .

وهنا طلب قوم من أهل المدينة من « عبد الله » أن يعلنهم بمكانته من رسول الله فقال : « والله لا أقبل لهم أماناً ، ولا أبرح حتى أقتل ، لا أفلح من ندم » .

وأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول : « والله لا أبرح حتى أقتلك » .

فقال له « عبد الله » : شر لك خير لي ، وضربه بفأس في يده .
ورأى المسلمون - وهو يسقط ميتاً - نوراً ساطعاً من السماء ، وكان
« عبد الله » صائماً ذلك اليوم .

ومرّ مسلم بن عقبة بين الجرحى فأجهز عليهم .. وبين القتلى ، فقال
ساخراً : « ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة » ، حتى إذا ما وصل إلى
« عبد الله » أمر به ، فحز رأسه .

في جوار الله اجتمع آل « نسيبة بنت كعب » بعد فراق طويل .
وغداً في جنة الله سيجتمعون مع رسول الله .. فطاب المقام ، وطاب
الصاحب !

٢ - تحت اللواء أشراف بنى سلمة

« لقد بنوا دين الله على أكثافهم ، ومضوا قبل أن
تقبل الدنيا على الإسلام .. فأجرهم وقع عليك
وحبك .. يامن خلقت الأرض والسماء .. لقد
وعدتهم فأسرعوا إلى عهدك .. ومن أوفى بالعهد
منك ؟ »

مرت الأيام على « عمرو بن الجموح » بطيئة ثقيلة . لقد كان
شريف بنى سلمة ينتظر عودة حبيج يثرب ، وقد قصدوا مكة لزيارة
بيت قريش وحضور موسمها ، وكان من بين هؤلاء الحبيج ولده
« معاذ » وصديقه وصفيه « عبد الله بن عمرو بن حرام » ، وعاد
الركب أخيراً إلى يثرب . ولكم سرّ « عمرو بن الجموح » بعودة ولده
وصديقه ، وأسرع إليهما ليقابلهما ، ولكن ما لابنه وصديقه ينأيان عنه
ويتعدان ؟ وما هذا الازورار في وجهيهما كلما أقبل نحوهما ؟
وما للشباب الحى .. شباب بنى سلمة جميعاً يملكون به فلا يحادثونه
ولا يحيونه ؟ إنه فى الذروة بين رجالهم ، وفى الأوج بين سادتهم .. طالما

فكر هو و « عبد الله بن عمرو بن حرام » صديقه فيما آمن به قومه من دين جديد ، نزل على شريف بن عبد مناف وسيدها « محمد ابن عبد الله » ﷺ ، طالما فكرا فيما فيه من حق و قدسية ، ولكن عبادة آبائهما وأجدادهما كانت تبعدهما عن الضياء الذي أتى .

غير أن هذا الدين لم يمنع من قبل ولده « معاذاً » من زيارته والحذب ^(١) عليه ، ولم يمنع فتیان بن سلمة من تحيته والإقبال عليه . وما لعبد الله بن عمرو بن حرام لا يقبل عليه، وهو - فيما يظن - على دين الأوثان؟.

لم يكن « عمرو بن الجموح » علم بعد أن المسلمين من بنى سلمة ، وعلى رأسهم « كعب بن مالك » قد دعوا عبد الله بن عمرو بن حرام إلى دين الله ، وأن يلتمس من نور النبوة ما يضيء به جوانب نفسه . قالوا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من سادتنا ، وشريف من أشرافتنا ، وإنما نرغب عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار . إنا ندعوك إلى الإسلام ، فأسلم .

كانت النفس مفتحة للحقيقة الإلهية السامية فأسلمت .

لم يكن عمرو بن الجموح يعلم كل هذا ، ولم يكن يعلم أن اليربيين

(١) الحذب عليه : العطف عليه .

جميعاً قد بايعوا البيعة الكبرى ، وأن البراء بن معرور ، سيد بني سلمة كلها ، كان أول من ضرب يده على يد الرسول مبايعاً ، وأنه أول من أجاب الرسول حين قال لهم : « أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم » .

فأجاب البراء ، نعم ، والذي بعثك بالحق . لئلا تمنع مما تمنع منه أزربنا^(١) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أهل الحلقة ، وأهل الحروب ، ورثناها كابراً عن كابر .

بايع عبد الله بن عمرو بن حرام ، وكان نقيب قومه ، وبايع معاذ ابن عمرو بن الجموح ، وبايع غيره من المسلمين .
وأثوا جميعاً وفي قلوبهم من الإيمان ما يزلزل الدنيا وما فيها ، ومن كراهية لعباد الأوثان ، ما جعل الواحد منهم يعادى أباه وأهله ، وينكر عشيرته وخلاته .

عرف « عمرو بن الجموح » كل هذا آخر الأمر . فعاد إلى بيته يلتمس الهدوء في عبادة « مناة » الصنم الذي أقامه في فناء البيت - على عادة أشراف العرب - ويستمد منه القربى والزلفى ، ودار حوالبه في بطاء يُحدَقُ فيه بقسوة شديدة .

(١) أزربنا : جمع إزار : كل ما سترك ، والمراد ما تمنع منه عفافنا .

وأقبل الليل ففضى « عمرو » إلى فراشه . وأدلىج فتیان بنی سلمة معاذ بن جبل ، ومعاذ بن عمرو بن الجموح ، وآخرون معها ، وحملوا الصنم « مناة » . ثم طرحوه في بعض الحفر التي يَقْضَى فيها أهل الحى حاجاتهم ، ثم مَضَوْا .

وفي الصباح مضى عمرو إلى « مناة » فلم يجده ، فصاح : « وَيْلَكُمْ ! مَنْ عَدَا عَلَى آلِهَتِنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ ؟ » ثم قام يتلمسه ، فوجده في حفرة قدرة ، مُنْكَسًّا عَلَى رَأْسِهِ ، فحمله وغسله ، وطهره ، وطيبه ، ثم وقف في الحى يقول - مخاطباً الصنم - : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأُخْرِجَتْهُ .

وفي اليوم التالى عَدَوْا عليه إذ أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فيغدو عمرو ، فيجده مثل ما كان فيه ، فيغسله ، ويطهره ، وَيُطِيبُهُ ... وتكرر الأمر ، ويتَرَصَّد « عمرو بن الجموح » لهم ... ولكن النوم يغلبه كل ليلة ، فيعاود الفتیان عملهم .

فلما أَكْثَرُوا عليه ، استخرجه من حيث ألقوه يوماً ، فغسله وطيبه وطهره ، ثم جاء بسيفه ، فعلقه عليه ، ثم قال له : « إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك .. » .

استيقظ ضمير الرجل أخيراً .. وأدرك أن هذا الصنم لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ولا يمكنه أن يرد عن نفسه عادية الناس .
أفَّ له .. إن لم يمنع نفسه الليلة !

... نام عمرو ، فغدا فتيان بنى سلمة على الصنم ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أوثقوا بكلب ميت ، فقرنوه به بجبل ، ثم ألغوه في بئر من آبار بنى سلمة ، فيها عذر من عذر الناس ، وغدا « عمرو » فلم يجده في مكانه الذي كان به ، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر ، مُنكساً مقروناً بكلب ميت ، فوقف أمامه محترقاً . وفي تلك اللحظة أقبل عليه من أسلم من قومه ودعوه إلى دين الله ، فأجاب متوجهاً نحو الصنم :
والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلبٌ وَسَطَ بئرٍ في قرنٍ
أفَّ للملّاق إلهاً مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلي ذى المنز الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبرٍ مُرْتَهَنٍ
بأحمد الهادى النبى المرتهن

وأسلم أولاد « عمرو بن الجموح » جميعاً ، وعاد عبد الله بن عمرو ابن حرام ، إلى صديقه يتآخيان فى الله وفى ظل دينه ، حتى دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى القتال ، وخرج عبدالله بن عمرو بن حرام شهيداً للإسلام

كما خرج أولاد عمرو بن الجموح «خلاد» و«معاذ» و«أبوايمن» و«معوذ»، وأراد عمرو أن يخرج فمنعه أولاده بأمر رسول الله ﷺ. لقد كان في قدمه عرج شديد، يمنعه من القتال، كما كان يؤلم هذه النفس الكبيرة، أن يحول بينها وبين الجهاد - لأجل دين الله - حائل جسماني، كما تعطشت إلى جنة عرضها السموات والأرض! كم أرادت أن تفوز بنعيمها السرمدي!.. ولكن أراد الرسول ﷺ ألا أذهب. إذن فلأبقى.

ومرت «بدر»، وعاد المسلمون وأكاليل النصر فوق رؤوسهم، ولكن هناك منهم مَنْ ذهب، تحمله الملائكة في رياض الجنان، هؤلاء هم الشهداء، أولئك الخالدون الذين يرثون الفردوس ونعيمه.. أفكار كان يحيا فيها عمرو، ويُسرُّ بها إلى صديقه عبد الله بن عمرو ابن حرام.. إيه^(١) يا أبناء الدنيا، أنتم تطلبون المال والجاه، وهذا كان لهما الغاية منهما، فما طلبوهما، وإنما أرادا العيش المقيم في ديار الخالدين.

» » »

أقبلت «أحد» ففاضت النفس الكبيرة - نفس عمرو ابن الجموح - ضياء ونورا.. ومضى لبنيه قائلا: منعموني الخروج إلى بدر، فلا تمنعوني الخروج إلى أحد.

(١) إيه: اسم فعل للاستزادة من حديث أو عمل معهود.

- إن الله قد عَذَرَكَ :

ففضى إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إن بنى يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، ووالله إني لأرجو أن أطأ بعرجى هذه فى الجنة .

فقال له الرسول : أما أنت ، فقد عذرك الله ، ولا جهاد عليك .
ثم قال لبيه : لا عليكم ألا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ..
فأخذ عمرو سلاحه ومضى قائلاً : اللهم ارزقنى الشهادة ،
ولا تردنى إلى أهلى خائباً .. ومضى هو وصديقه « عبد الله بن عمرو »
وأولاده ، مع كتيبة الله .

ونادى عبد الله بن عمرو ابنه « جابراً » ، قبل أن يخرج إلى القتال ، وقال : « إني أرجو أن أكون أول من يصاب غداً ، فأوصيك ببنات عبد الله خيراً » .

سار المسلمون حتى وصلوا إلى الشوط ، وهناك نافق « عبد الله بن أبى بن سلول » زعيم المنافقين فى المدينة ، ورجع بثلاث الناس من الضالين ، وأهل الريب ، وآلم « عبد الله بن عمرو بن حرام » هذا الموقف فى تلك الساعة الحرجة ، من تاريخ الدعوة الإسلامية ،

فَاتَّبِعْهُمْ يَقُولُ لَهُمْ ، يَا قَوْمَ ، أَذَكَّرُكُمْ اللَّهَ ، أَلَا تَتَّخِذُوا قَوْمَكُمْ وَنَبِيِّكُمْ
عِنْدَمَا حَضَرَ عَدُوَّكُمْ .

فرد المنافقون : « لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكن نرى
أنه لا يكون قتال » ، فناشدهم الله ، وذكرهم بالبعث واليوم الآخر ،
فاستعصموا عليه ، وأبوا إلا الانصراف فقال : « أَبْعَدُكُمْ اللَّهُ ، فسيغنى
الله عز وجل عنكم نبيه ﷺ » ، وعاد إلى جيش المسلمين .

* * *

بدأ الصراع الخفيف بين الجيشين ، وتخطى عبد الله بن عمرو بن
حرام الصفوف حتى وصل إلى قلب جيش المشركين ، وهو يطعن
ويصول ، حتى تناولته الرماح ، فسقط قتيلًا وانتصر المسلمون ، ثم
انهزموا وولوا الأدبار ، ولم يثبت إلا من عصم الله .

وارتفع اللواء ... لواء رسول الله . والملائكة تنادى من سماواتها :
« يَا مَنْ عَفَّتْ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا . مقامكم اليوم فأقبلوا » . وسمع عمرو بن
الجموح النداء .. فأقبل . إنه يرجو الخلود .. وهذا طريقه . فحمل هو
وابنه « خلاد » على المشركين ، وسقط هو وابنه بجانب صديقه
« عبد الله بن عمرو بن حرام » واختلطت دماؤهما .. لقد تحابا في الحياة
واجتمعوا في الممات .

ومر بهما الرسول بعد الموقعة ، فرآهما يتوسدان الثرى متجاورين ،
وبحانبيهما «خلاد» ، فقال : ادفنوا هذين المتحايين في الدنيا في قبر
واحد .

ثم يُحَدِّقُ في وجه «عمر بن الجموح» ، وتصمَّت الكائنات
وتهدأ ، إن رسول الله يكلم الوحي .. ثم حين يذهب عنه يقول :
«والذى نفسى بيده لقد رأيت عمرو بن الجموح يطأ في الجنة
بِعَرْجَتِهِ» .

ثم وقف أمام عبد الله بن عمرو بن حرام ، وأقبل «جابر
ابن عبد الله» على أبيه وهو مُسَجَّى ، فكشف عن وجهه وجعل يقبله ،
والصحابة تنهاه ، والنبي صلوات الله وسلامه عليه صامت هادئ ،
وأقبلت فاطمة بنت عمرو تبكي أخاها عبدالله . فقال النبي صلوات
الله وسلامه عليه : «فبكيى أو لا فبكيى . مازالت الملائكة تظلمه
بأجنحتها حتى رفعتموه» .

لقد ناما في أرض «أحد» في قبر واحد ، ووقف النبي ﷺ
يقول - مخاطباً شهداء أحد جميعاً - : «زَمُّوْهُمْ^(١) بجراحهم ، فإنى

(١) زملوهم بجراحهم : المراد لفوهم بأثوابهم كما هم دون غسل .

أنا الشهيد عليكم ، ما من مسلم يُكَلِّمُ^(١) في سبيل الله إلا جاء يوم
القيامة يسيل دما ، اللون لون الزعفران ، والريح ريح المسك .
إيه يا يوم البعث ! .. يا يوم العرض العظيم يوم تَرْدان بكمال
البشر . يوم تطلع عليك تلك الوجوه التي أخضعت الدنيا وشهواتها ،
ثم لم تأخذ منها شيئا .

لقد بنوا دين الله على أكثافهم ، ومضوا قبل أن تقبل الدنيا على
الإسلام ، فأجرهم وقع عليك وحدك ، يامن خلقت الدنيا والسماء .
لقد وعدتهم فأسرعوا إلى عهدك ومن أوفى بالعهد منك ؟

(١) يكلم : يجرح .

٣ - تحت اللواء ...

١ - سعد بن الربيع

هنا عبرة الدنيا التي لا تنقضى ، وحكمة الدهر التي لا تروى ، هذا رجل آمن وأسلم فكان قلبه وقوداً للحب والإيثار ، يقدمها لسيد الأنبياء .

ثارت الحرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية ، والتحم أشراف المدينة في حرب طاحنة ضروس . وكان سعد بن الربيع سيد بني الحارث (حي من أحياء الخزرج) يصلى نيران تلك الحروب التي تذهب بقومه العرب ، على حين كان اليهود ثعالب الجزيرة يزدادون قوة ومنعة ، ويسيطرون على مصير يثرب في دهاء وخبث ، ووضعت الحرب أوزارها أخيراً ، ولكن بعد أن أهلكت الحرث والنسل ، وتركت الحيين جميعاً محطّمي القوى ، وعادت الحياة إلى يثرب مرة ثانية ، هادئة لا يُعكّر صفوها إلا هؤلاء اليهود ، ويحاولون في كل آن إثارة البغضاء مرة أخرى بين الحيين ، هؤلاء العرب سرعان ما تتور بينهم الأحقاد والأضغان .

ما أخف تلك الأحلام الجاهلية ، التي لا ضابط لها ولا رادع !
ويسمى « سعد بن الربيع » إلى تسكين الفتى والأحقاد ، ولكم أبغض
اليهود هذا الهدوء ، وهذا السكون الذى يسود يثرب ، ولكم غاظهم
اجتماع الحيين !

ويمرون على الأوس والخزرج ، وفى قلوبهم مراجل^(١) من الغيظ
تغلى ، ويمر أحبارهم فيقولون لأهل يثرب : « لقد أطل زمان نبى
يبعث ، نجد وَصَفَه فى كتابنا نقتلكم به » ، ويصبر الأوس والخزرج
صبراً جميلاً ، ويصبر سعد بن الربيع .

ولكن ما هذا القلق الذى يتردد فى أعماق نفسه نحو هذه الحياة ،
نحو جوهر هذا الوجود وحقيقته .

قلق يأخذ على هذا العقل المتزن الكبير كل مأخذ ، ويجعل أيامه
جحيماً نفسياً لا يطاق .

كان له من المال الغاية ، ومن شرف أسرته ومقامها الكبير النفوذ
والسلطة . ومن العلم نهايته بين العرب ، لقد كان يكتب ويقرأ ،
والكتابة كانت نادرة فى العرب .

لقد أطمع الجائع ... لقد كسا الغادى والرائح ... لقد ملأ يثرب

(١) مراجل : جمع مرجل وهو الموقد .

ذكراً عاطراً ، لم يكذب مرة ، ولم ينافق ، آثر الناس على نفسه في كل ما فعل ، وعرف أهل يثرب إثاره ، فكان له في أنفسهم مقام . ولكن هذا لم يهدئ من هذا القلق الذي يهزه هزاً ، هذا القلق الذي كان يشعره ، أن هناك شيئاً في هذا الوجود لم يعرفه بعد . أيها الليل الطويل .. ليل ظلمات النفس ، ألا تنجلي ، أيها الصبح .. صبح اليقين ألا تقبل ؟ !

° ° °

وأقبل صبح اليقين أخيراً ...

هبت نسامته من الجنوب .. هادئة تحمل فلسفة الوجود ، لقد ظهر المبعوث بجوار البيت العتيق ، وهؤلاء الثيبيون يسبقون إليه قبل أن يسبق إليه اليهود ، فوا صباح هؤلاء ... لقد ظهر المبعوث من رب السماء ، يتحدثهم عن وجودنا ، وعن خلقنا ، وعن المصير .

فيا رواد الحقيقة ، هذا منبع الحقيقة .. ويا طلاب اليقين ، بدأ اليقين أروع وأثبت ما يكون . وآمن سعد بن الربيع ، وكان إسلامه وإيمانه للإسلام نصراً عظيماً . لقد بدأ سعد بن الربيع ، الشريف الإيثاري في الجاهلية ، يضرب في الإسلام أسمى معاني الإيثار^(١) .

(١) الإيثار : تفضيل غيرك على نفسك وعكسها : الأثرة بمعنى الأنانية .

هدأت النفس الكبيرة ، ورأت في كتاب الله ما تصبو إليه من
هدوء نفسى ملاً جوانحها ، ودُعِى الأنصار إلى بيعة الرسول . وخرج
سعد مع قومه ، وفي ليلة العقبة الكبرى كان نقيب قومه .
وهاجر المسلمون من قريش إلى المدينة ، وهاجر الرسول الكريم ،
وكان لابد من إقامة الدولة الجديدة على أساس دعوة الله .
وأهم أساس لهذه الدعوة ، الأخوة والإيثار .

فآخى سيد الأنبياء بين المهاجرين والأنصار ، هذا الإخاء الرائع
الذى امتاز به هؤلاء الذين أخضعوا الدنيا ، وسجد لهم قياصرتها
وأقيالها .

وآثر الأنصار المهاجرين على أنفسهم ، ففسحوا لهم دورهم
وما لهم ، ثم رفعوا السيوف والموت فوق رؤوسهم يوم طلب منهم
التضحية والفداء ، ثم ألقوا بأنفسهم في مقدمة الصفوف ، طالبين
الموت ، مؤثرين إخوانهم المهاجرين بالحياة .

ولكم اختلطت دماؤهم مع دماء المهاجرين ، وارتبطت بينهم
العهود ، حتى كانوا قلباً واحداً .

هذا رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، يؤاخى بين سعد
ابن الربيع ، وعبد الرحمن بن عوف ، ولقد أسرع الشريف الإيثاري

إلى عبد الرحمن بن عوف يقول له : « لى امرأتان ، وأنت أخى فى الله
لا امرأة لك ، فأترل عن إحداهما فَتَزَوَّجَهَا » ، فرفض عبد الرحمن
ابن عوف قائلاً : لا والله .

فعاد سعد يقول له : هَلُمَّ إِلَى حَدِيقَتِي أَشَاطِرُ كَهَا ^(١) .

- لا ، وبارك الله فى أهلك ومالك .

فألح سعد بن الربيع .. وعبد الرحمن بن عوف يصصر على
الرفض ، طالباً منهم أن يَدُلُّوهُ عَلَى سَوَاقِ الْمَدِينَةِ ، فقد كان تاجراً من
أغنى تجار قريش .

ولكن قريشاً عدت على ماله ، حين خرج مهاجراً إلى الله
ورسوله ، غير أنه يستطيع أن يزاول التجارة فى يثرب . وأثرى - حقاً -
عبد الرحمن بن عوف من تجارته ، بعد أن وجد فى جوار سعد مقاماً
كريماً ، وإيثاراً مطلقاً .

• • •

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

لَقَدِيرٌ) ^(٢)

(١) أَشَاطِرُ كَهَا : نَقَسَمَهَا نَصْفَيْنِ .

(٢) سورة الحج : ٣٩ .

قاتل سعد بن الربيع في بدر ، وأبلى أحسن البلاء .
 وفي أحد .. حدث ما حدث من عصيان الرماة أمر رسول الله
 وتركهم مواقعهم ، فانقلب النصر هزيمة وخذلانا ، وأخذ القرشيون
 يستأصلون شأفة المسلمين . والمسلمون يولون الأدبار ، ويلقون
 أسلحتهم وعتادهم .

وارتفع اللواء .. لواء رسول الله ﷺ خفاقاً فوق الأعناق ، يذكر
 النفوس التي عاهدت .. ينادي أهل العقبة الكبرى ونقباءها .. ويردد
 لهم أناشيد الفداء .

وسمع سعد بن الربيع ، فلم يهن ولم يتردد ، بل صال صولة
 الضرغام . ينازل أبطال قريش ، تخمسه السيوف فلا يسقط ، وتتناوله
 الرماح وتكثر عليه الجراح فلا يوهنه شيء أبداً ، حتى سقط - وفيه
 بقية من حياة - أخيراً بعد أن وفى فأحسن الوفاء ..

* * *

عادت قريش إلى مكة ظافرة منتصرة ، ورسول الله ﷺ يسأل
 الصحابة أول ما يسأل : « من رجل ينظر إلى ما فعل سعد بن الربيع ؟
 أفي الأحياء أم في الأموات ؟ » ، فقال رجل من الأنصار : « أنا أنظر
 لك يا رسول الله ما فعل سعد » .

فخرج الصحابي ، فوجده جريحاً في القتلى ، وبه رمق ، فقال له
سعد : ما شأنك ؟

- إن رسول الله ﷺ سأل أن أنظر : أفي الأحياء أنت أم في
الأموات ؟-

- أنا في الأموات ، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام ، وقل
له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن
أمته . وأبلغ قومك عنى السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول
لكم : إنه لا عذر لكم عند الله ، إن خلص إلى نبيكم ﷺ ، وفيكم
عين تطرف .

ثم مضى ... مضى السيد الإيثارى إلى أرض البقاء .. لقد آثر
السيد الإيثارى الرسول في الحياة ، وآثره في الممات ، وأنشدت له
كائنات السماء أناشيد الخلود :

(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ) ^(١) .

هنا عبرة الدنيا التي لا تنقضى . وحكمة الدهر التي لا تزول ، هذا

(١) سورة المؤمنون : ١١ ، ١٢ .

رجل آمن وأسلم .. فكان قلبه وقوداً للحب والإيثار ، يقدمهما لسيد الأنبياء .

هذا ذكره في السماء ، فما ذكره في الأرض ؟

دخل رجل على أبي بكر الصديق فرأى طفلة صغيرة يحملها

أبو بكر ، يدللها ويقبلها ، فقال له الرجل : من هذه ؟

- هذه بنت رجل خير مني : « سعد بن الربيع » ، كان من النقباء

يوم العقبة ، وشهد بدرًا ، واستشهد يوم أُحد .

٢ - أنس بن النضر

مات أنس بن النضر ، ولكن رسول الله قد عاش ، ويا لها من سعادة سرمدية لهذه النفس الكبيرة ، حين تطلع من عالمها الأخرى على الأرض .. فترى رسالة الله ، ما أضعافها الله ، بل حفظها ورعاها ، وسارت حتى انتظمت فيها الدنيا ، وسادت العالمين .

لقد ارتفع اللواء .. لواء رسول الله . إن الحقيقة تكاد تنهار ونخبو ، إن تركتم هذا اللواء - بإصحابة الرسول - يُنكسُ اليوم في الأرض ، وأنس بن النضر قد استل سيفه ، ووقف يُحدِّقُ في الفضاء . تذكر أنه غاب عن بدر ، وأنه ذهب بعدها إلى رسول الله فقال له : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع .

تذكر أنس كل هذا ، والمسلمون ينكشفون وهربون . فصاح بأعلى صوته : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني

أصحابه) ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) .
ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال له : يا سعد بن معاذ ، اللجنة
ورب « النضر » .. إني أجند ربحها من دون أحد .
وهجم أنس بن النضر على صفوف المشركين ، واستعرت^(١)
الحرب ، وصارت هولاء مقيماً ، وأنس - في وسط الصفوف -
كالعلم الأشم^(٢) .

وصاح صائح من قريش : قتل محمد .. فلم يهن أنس ، ولم
يصمت عن قتال ، حتى مر بعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله في
رجال من المهاجرين والأنصار ، ولقد ألقوا بأيديهم ، فقال :
ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله . فصاح فيهم : فماذا تصنعون
بالحياة بعده ؟ .. فوثقوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل
الكفار .. مات رسول الله فما الحياة بعد رسول الله إلا غرور ووهم !
يا لها من حياة ملأى بالقاذورات والأرجاس ، تلك الحياة التي
يتغلب فيها عبادة الشهوات والشیطان على كتيبة الطهر والإيمان !
مات رسول الله ، فلا تكن أول الساعين إليه ، وأول العاملين تحت

(١) استعرت : اشتدت والتهبت .

(٢) الأشم : المرتفع .

لوائه فى الآخرة ... وسقط أخيراً أنس بن النضر ، وفى جسمه ثمانون ضربة ، فما عرفته أخته إلا من بيناته (١) .

قال سعد بن معاذ : فما استطعت يا رسول الله ما صنع .
وقال أنس بن مالك : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمج ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ، وقد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته بيناته ...

مات أنس بن النضر ، ولكن رسول الله قد عاش .
ويا لها من سعادة سرمدية لهذه النفس الكبيرة ، حين تطلع من عالمها الأخرى على الأرض ... فترى رسالة الله ما أضعاعها ، بل حفظها ورعاها ، وسارت حتى انتظمت فيها الدنيا ، وسادت العالمين ! .

هذه هى الغاية التى مات لأجلها ، تحت لواء رسول الله ، أنس ابن النضر .

(١) بناته : طرف أصبعه .

٤ - تحت اللواء ..

١ - صور من أهل أحد

«يا أهل الكون العلوى: أطلوا من
عليانكم على الأرض لقد ارتفع اللواء..
لواء رسول الله. وما بقى حوله إلا قليل»

١

وعلت في الكون أنغام حزينة - لم يسمعها الغافلون - تردد :
يا أهل الكون العلوى .. سلام على الدنيا ومن فيها .. لقد شغل رجالها
وذادة الحق^(١) فيها بشهوات أنفسهم عن حق ما كان أعلاه في
أعينهم ، وأيقنه في صدورهم ! .. سيطرت عليهم روح أرضية ليس
فيها إلا خداع وغرور .

يا أهل الكون العلوى ، لقد قرأ أصحاب سيد الأكوان من جبل
أحد ، بعد أن ضربوا له الموائيق والعهود .

إنه يتحمل الآن بقوة نفسه ، وهى فوق قوة العالم كله ، نتيجة

(١) ذادة الحق : المدافعون عن الحق .

ما وقع منهم ، ثم لا يغضب ولا يشور ، بل يطلب لهم من رب
الأكوان جميعاً الأيد^(١) في الدنيا ، والمغفرة في الآخرة .

يا أهل الكون العلوى .. أطلُّوا من عليائكم على الأرض ، لقد
ارتفع اللواء .. لواء رسول الله ﷺ ، وما بقى حوله إلا قليل .

* * *

وسمع « خيشمة » ، سيد بنى عمرو بن عوف ، تلك الأنغام
العلوية ، تبعث في نفسه ألوان الألم الممض ، وتثير صوراً من الماضى
القريب .

أين عهود هؤلاء الذين أشهدوا الله أنهم مانعوه مما يمنعون منه
نساءهم وأبناءهم .

لقد فر الكثير منهم اليوم ، بين مهاجرى وأنصارى ، لكن ما زال
حول الرسول بقية تذبّ عنه .

واقترب خيشمة يفرق الصفوف ، ويدفع دفاع الكماة الأشاوس ،
وهو يفكر : ألم يسبقنى ابنى « سعد بن خيشمة » في هذا الموقف من
بدر ؟

(١) الأيد : النصر والقوة .

لقد كان سعد سيد قومه ونقيبه في يوم العقبة ، وقد وفى ، ما كان على قيد الحياة .

إنه ليذكر كل هذا ، ويذكر أنه قال لابنه يوم بدر : « لا بد لأحدنا أن يقيم ، فأثري بالخروج ، وأقم أنت مع نسائنا » .
فأبى سعد وقال له : « لو كان غير الجنة لآثرتك به ، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا » .

فاستهما ، فخرج « سعد » ، وأبلى يوم « بدر » أحسن البلاء ، ثم قتل .

قد حقق الله ما أُمِّلَ وارْتَجَى ...

إن « خيثة » ليذكر كل هذا ، ويذكر أنه لم يحزن على سعد ، لأنه في جوار ربه ، وفي رضوان من الله أكبر .

وأحب « خيثة » أن يلحق بابنه ، وأن يفوز بما فاز به .

فلما طلب الرسول من الناس المشورة - وقف « خيثة » فقال :
يا رسول الله ، إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع ، وتستجلب العرب في بواديها ، ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا وقد قادوا الخيل وامتطوا الإبل ، حتى نزلوا بساحتنا ، فيحصرونا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرین ، لم يُكَلِّمُوا ، فيجرئهم ذلك علينا

حتى يشنوا الغارات ، ويصيبوا أطرافنا ، ويضعوا العيون والأرصاد علينا ، مع ما قد صنعوا بحروثنا ، وتجترئ علينا العرب حولنا ، حتى يطمعوا فينا ، إذا رأونا لم نخرج إليهم ، فَنَذِبُهُمْ ^(١) عن قرانا ، وعسى الله أن يظفرنا بهم ، فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى في الشهادة .

لقد أخطأتني وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصاً ، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه ، فزق الشهادة ، وقد كنت على الشهادة حريصاً . وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ، وهو يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، وقد - والله يا رسول الله - أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ، ورق عظمي ، وأحب لقاء ربي ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ، ومرافقة سعد في الجنة .. فدعا له الرسول بذلك . تذكر خيشمة كل هذا .. وترددت دعوة الرسول في أذنه ، كأنها ما زالت ترن بعد ، وفي تلك اللحظة تناولته الرماح ، فسقط شهيداً .

(١) نذبهم : نمنهم .

٢

وفى وسط المعمعان ، وأطيايف الهزيمة تملأ قلوب المسلمين ..
 والمشركون حول الرسول .. ارتفع اللواء .. لواء رسول الله خفأً فوق
 الأعناق ، ونظر إليه زياد بن السكن بن رافع ، فقال أنه يملأ الدنيا
 جميعاً ، فاقترب منه ، ومرت أمامه فى تلك اللحظة صورة ابنة
 « عمارة بن زياد بن السكن » ، وقد مات فى « بدر » شهيداً ،
 ورفعته الملائكة إلى العلا ، يدعوهُ إلى الوفاء ، وكانت البيعة الكبرى
 بايعها الخالصون من صحابة الرسول ، ومنجل الموت يقط رقابهم !
 بايعوه بيعة الموت . وكانوا ثلاثين من أئمة الأنصار والمهاجرين ، وفيهم
 « عمارة » ، وأقبل المشركون من كل شعب من شعاب الجبل ، فصاح
 المبايعون بصوت واحد ، وقد توجهوا إلى الرسول جميعاً : وجهى دون
 وجهك ، ونفسى دون نفسك ، والسلام عليكم غير مودع ...
 وانقضوا على المشركين انقضاضاً ، ولكنهم كانوا قطرة فى بحر
 عجاج ... فصاح الرسول : « أيها الناس ، من رجل يشرى نفسه ؟ »
 فقام سبعة من الأنصار ، وعلى رأسهم زياد بن السكن . فأحاطوا بسيد

الأنبياء ، إحاطة السوار بالمعصم ، وقاتلوا تحت لواء رسول الله ، وتساقطوا واحداً بعد واحد ، وترس زياد بنفسه دون الرسول ، يتلقى الرماح والنبل بجسده ، حتى خلصت إليه الجراح ، ومزقته السيوف والنبال ، فلم يبق في جسده موضع إلا وقد أصيب .. ونام .. نام تحت قدمي الرسول ، والرسول يوسده ويودعه إلى حيث المقام الآمن .. إلى حيث يلحق بالشهداء والصديقين من قومه .

لقد اجتمع خييمة بابه سعد ، واجتمع زياد بابه عمارة .. والله والملائكة يشهدون بأنهم كانوا الأوفياء ، أزالوا أطماع الدنيا من قرارة نفوسهم ، فتساوى عندهم الحياة والموت ، فلم يرعهم الموت يوم طلب منهم الفداء ، بل أقبلوا بلا تردد ولا إحجام ، فتركوا الإسلام بعدهم صرحاً مشيداً ، وعلم أعداء الإسلام حقيقة دينهم ، فأرادوا القضاء عليه ، فزينوا للناس الشهوات وحبها ، ففلأت نفوسهم ، ولم يعد فيها إلا هي ، وأى مجد يقام على شهوات النفس ؟

٣

وامتدت صفحة الصحراء ، صفراء لانهاية لها ، تحاول العين الإحاطة بها فلا تستطيع ، وسمع صوت رجلين يرجزان من بعيد ،

يسوقان أمامها قطيعاً من الغنم ، وكان هذان الرجلان هما « وهب بن قابوس المزني » وابن أخيه « الحارث بن عقبة » ، يسيران بغنم لهما من جبل مُزَيَّنة ، حتى وصلا إلى المدينة ، فوجدا بها بعض من تخلف عن رسول الله ﷺ ، فسألا : أين الناس ؟ .. فأجابوهما : بـ « أحد » خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين ، فقالا : نسأل أثراً بعد عين^(١) ، ثم خرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد .. فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله وأصحابه ، فأغاروا مع المسلمين ، ولكن ما لبث الكفار أن هجموا من الجبل ، واختلط المسلمون بعضهم ببعض ، وثبت « وهب » وابن أخيه ، وقاتلا قتالا شديداً .

وهجمت فرقة من أشداء أعداء المسلمين على رسول الله ، فقال الرسول : « من لهذه الفرقة ؟ » فقال وهب : « أنا يا رسول الله » وقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ، ثم رجع : فهجمت فرقة من المشركين ، فقال الرسول : « من لهذه الكتيبة ؟ » ، فقال المزني : « أنا يا رسول الله » ، فقام فدبها بالسيف حتى ولوا ، ثم رجع المزني . فطلعت كتيبة أخرى ، فقال : « من يقوم لهؤلاء ؟ » ، فقال المزني :

(١) أثراً بعد عين (مثل يضرب لمن ترك شيئاً يراه ثم تبع أثره بعد فوات عينه

« أنا يا رسول الله » ، فقال : « قم وأبشر بالجنة » ، فقام المزني مسروراً يقول : « والله لا أَقِيلُ ولا أَسْتَقِيلُ »^(١) . ثم انقض على المشركين يضرهم بالسيف ، ورسول الله ينظر إليه قائلاً : « اللهم ارحمه .. اللهم ارحمه » ، وهو يدور حولهم ، ويضرهم بالسيف ، لكنهم أحذقوا به أخيراً حتى اشتملت عليه أسياфهم ورماحهم ، فقتلوه فوجدوا به يومئذ عشرين طعنة برمح ، كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثَّلَ به أقبح تمثيل يومئذ ، ثم قام ابن أخيه فقاتل كما قاتل وهب حتى قتل .

ووقف رسول الله على قدميه - وكان مجروحاً ، والقيام يشق عليه - ونظر إلى جثة وهب وقال : « رضى الله عنك ، فإني عنك راض » ، وهذا عمر بن الخطاب يقول : « إنَّ أَحَبَّ ميتة أموت عليها ، ما مات عليها المزني ! »

٤

كان فتى قريش ، جالاً ووضاءة ، لم يعرف من الحياة إلا نعيمها وترفها حتى أسماه القرشيون شماساً لوضاءته ، حتى غلب على اسمه ،

(١) لا أقيل ولا أستقيل : لا أسريح ولا أصفح عنهم .

فإذا ما نادى الوحي من أعلى السماء محمداً . استجاب الشريف القرشي « شماس بن عثمان » لرسول الله ، وتحمل معه ما تحمل ، حتى أذن له الرسول بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر في الهجرة الثانية ، غير آبه لأهله ولا لوطنه - إن حاملي لواء العقيدة هم الوقود الذي يشتعل لأجلها - ثم عاد من الحبشة . وهاجر مع من هاجر إلى يثرب ، ونزل في يثرب على مبشرين المنذر ، ثم آخى الرسول بينه وبين حنظلة بن أبي عامر .

واشتعلت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وفي المشركين أهل « شماس » وعشيرته وخلاته ، لكن ما كان للمسلم الحق أن يهادن في الله قوماً أخرجوا النبي وآذوه في نفسه وفي دينه ، ولو كانوا أهله وعشيرته .

خرج شماس في بدر ، فأذاق المشركين الويل ، وقتل منهم من كانوا أخلص خلاته وصحبه .

وفي « أحد » . ارتفع اللواء ، لواء رسول الله وَفَّرَ مَنْ فَرَّ . والرسول يدعوهم في أصرهم ، ولكن « شماساً » ثبت ثبوت الأطواد^(١) يقاتل يميناً وشمالاً ، والرسول لا يرمى ببصره إلا رآه يقاتل

(١) الأطواد : جمع طود وهو الجبل .

في كل مكان .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهاً في الجنة » .

ثم غُشِّيَ على رسول الله ، وسقط من سقط من الصحابة قتيلاً ، فأقبل شماس وترس بنفسه دون رسول الله ، والسيوف تأكله أكلاً ، والنبل يمزق جسده تمزيقاً ، وهو لا يصيح ولا يئن ولا يتحرك ، بل يتقبل كل هذا بقوة لاتلين ، حتى سقط ، وحمل إلى المدينة وبه رمق ، ومات بعد يوم وليلة ، في سن الرابعة والثلاثين .

إيه . . يامنْ ضربتم للناس أرفع المثل ، انظروا بعدكم إلى الناس ، كم أقبلوا بعدكم على الدنيا ، ففَتَّتَهُمْ مِنْهَا شَهْوَتَانِ : شهوة البطن ، وشهوة الفرج ، تنكبوا طريقكم فعاشوا كالبهائم والأنعام !

* * *

وصاح النعم الحزين يردد : « يأهل الكون العلويّ ، أطلُّوا من عليائكم على الأرض . لقد ارتفع اللواء . . لواء رسول الله . وما بقي حوله إلا قليل » .

٥- تحت اللواء

٢ - صور من أهل أحد

« إن الفداء الحق ، فداء من أقبلت عليه الحياة
وملكها ، لافداء من أدبرت عنه وخرجت من
يده ، فضحى وفدى ، أما الأولون فهم الأموات
الخالدون ، وأما الآخرون فهم الأموات أبدًا ،
ومن ذلك الصنف الأول كان أهل أحد » .

١

بعد التولية

سته من أهل يثرب ، يسرون في بطحاء مكة ، لا يفكرون إلا في
تجارتهم وفي إقامة علائق ودَّ مع سدنة البيت العتيق - بيت العرب
جميعًا - لا يفكرون أنه بعد لحظات سيكونون الرعيل الأول
للأنصار . . . خير أمة في الوجود . . . وأن يثرب - بلدهم - ستصبح
خالدة مابقيت الدنيا ، وأنه سينام في أرضها سيد الأنبياء ، فتصبح
أذكى الرياض . . . يقبل الناس عليها من كل فجٍّ ، فيقفون أمام القبر

المطهر ، مناجين الروح التي طُلما أشرقت على الدنيا ذراتها ، وستشرق
أبد الأبدين فتفتك نفوسهم - التي ملئت بأدران الدنيا وقذارتها - عن
جسومهم لكي تتصل قليلا بموطن النور الأعظم ، فتخلص من شرور
البشر وآثامهم . ياله من نور يفتي كل شيء ولا يفتي ، فتتقص الكائنات
جميعاً من شمس وكواكب ونجوم ، غير هذا النور . ثَبَّتْ أَبَدًا
وسيثبت !

* * *

التقى رسول الله بالثَّيْرِيِّينَ الستة . . ودعاهم إلى عبادة الواحد
الأحد ، فأمنوا جميعاً ، وكان بين هؤلاء الستة « العباس بن عبادة
ابن فضلة الخزرجي » . . . آمن الثَّيْرِيُّونَ وبايعوا الرسول البيعة الأولى .
وعاد العباس كما عاد أصحابه إلى يثرب ، ينشرون دين الله ، حتى
انتشر الإسلام في المدينة .

وخرج العباس في العام الذي يليه - ولما توافى الأنصار ليلاً لبيعة
الرسول بيعة العقبة الكبرى ، كان العباس في مقدمتهم ، فإذا ما همُّوا
بالبيعة صاح العباس فيهم : « يامعشر الخزرج - هل تدرُونَ علامَ
تبايعون رسول الله ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ، فإن
كنتم ترون أنها إذا نهَكَتْ أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا ،

أسلمتموه - فَمِنَ الْآنَ ، فهو والله - إن فعلتم - خِزْيُ الدنيا والآخرة .
وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، على نهكة الأموال ،
وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة » .

قالوا : فإننا نأخذُه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا
بذلك يا رسول الله إن نحن وَفَيْنَا ؟ قال : الجنة .

قالوا : ابْسُطْ يدك . فبسط يده ، فبايعوه ..

هذا صوت في الظلام ، يصيح في قريش ينبئهم بالأمر . فيقف
العباس ويقول : « يا رسول الله ، إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل منى غداً
بأسيافنا » . فيقول النبي : « لم نؤمر بذلك . ولكن ارجعوا إلى
رحالكم » .

* * *

صورة من صور عظماء الرجال . لم تر الدنيا لها مثيلاً ... تَفْتَحُ
نفس نحو الحق ، فلا يناديها الحق إلا وقد أقبلت .. ورسوخ إيمان
تتحرك الجبال المحيطة بالبيت الحرام ولا يتحرك ، وَسُمُوُّ على الناس
لا يدانيه سمو ، وفناء في دين الله يجعله لا يرهب قريشا بأكملها ، وهم
قلة مستضعفة ، وصرامة في الحق ، عرفها له الناس ، فَسُودوه في
الجاهلية والإسلام ، تلك هي صورة « العباس » بن عبادة وهو

يصيح : « يا رسول الله إن شئت لتميلن عليهم غداً بأسيا فنا » .

كيف يصبر على بعد الزار من عرف النور؟ كيف يرضى الابتعاد عن مواطن الحق من عرف الحق؟ لم يصبر، ولم يرض العباس بن عبادة.. فرحل - بعد قليل من عودته - إلى الرسول ثانية في مكة.. هاجر العباس من المدينة إلى مكة وأقام بها مع رسول الله، يغترف من الضياء ما يغترف، ويتحمل من عنت المشركين ما يتحمل، حتى أذن الله لأصحابه بالهجرة، فهاجر العباس ثانية من مكة إلى المدينة... فكان مهاجراً أنصارياً. وآخى الرسول بينه وبين عثمان بن مظعون. ودعا داعي الجهاد، ولم يخرج العباس مع الرسول في « بدر » لم يحسب أنه يلقي قتالا.. واشتبك المسلمون في العام الثاني مع الكفار في « أحد » وتولى عن الرسول صحبه، وارتفع اللواء.. لواء رسول الله. وبلغ المنهزمون بنى حارثة بالقرب من المدينة. وهناك تذكروا عهودهم ومواثيقهم... تذكروا هذا اللواء الذي يرتفع فوق هام الرجال، فلا يذود عنه إلا الأقلون، فرجعوا سراعاً، وكان أول من أتى بعد التولية « قيس بن بلحارث » مع طائفة من الأنصار، فصادفوا المشركين في كرتهم، فدخل قيس في حومتهم، فلما أفلت منه هو

وأصحابه رجل . وقد قاتل قيس بن بلحارث ، وامتنع منهم بسيف حتى قتل منهم نفرأ ، ولكن رماحهم تكاثرت عليه فقتلوه . ووجد به أربع عشرة طعنة قد جافته ، وعشر ضربات في يده .

وأسفاه على الأوفياء الذين ولوا ! أنتم يا بني الموت تخشون الموت ، ولكل منا ضجعة . ولوا يوم التقى الجمعان ، ولكنهم عادوا ولم يَرْتَدُّ الطَّرْفُ . وعباس بن عباد بن فضلة في مقدمتهم ، وخاضوا المعمعان وصاح عباس : « يا معشر المسلمين ، الله ونييكم ، هذا الذي أصابكم بمعضية نبيكم ، فوعدكم النصر ما صبرتم » . ثم نزع مَغْفَرَه ^(١) عن رأسه ، وخلع درعه ، وقال لخارجة بن زيد : هل لك في درعي ومغفري ؟

فقال خارجة : أنا أريد الذي تريد .

إنهما يريدان الموت ، ويتسابقان فيه . فكان لهما في تلك اللحظة غاية وهو الذي يفر منه اليوم الجبناء ويتناسون أنه الكأس المحتومة ، ولو تذكروا هذا لاعتدال ميزان الدنيا ولما اضطرب ، ولكنهم غفلوا عن نهاية أمرهم ، ولم يتبينوا إلا يوم أن تأق ، وحينئذ يرجون العيش لحظة ، ليعملوا غير ما كانوا يعملون ، أبدأ ، إنهم لا يرجعون !

(١) مغفره : خوذته .

وصاح عباس : ما عذرنا عند ربنا ، إن أصيب رسول الله ومعنا عين تطرف ؟

فقال خارجة : لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة .

ثم قتل سفيان بن عبد شمس السلمي عباساً بعد أن تكاثرت عليه الجراح ، وقد ضربه عباس ضربتين قبل أن يموت ، فجرحه جرحين عظيمين - وأخذت خارجة الرماح فجرح بضعة عشر جرحاً ، فمر به صفوان بن أمية فعرفه فقال : هذا من أكابر أصحاب محمد ، وبه رمق ، فأجهز عليه ، ومكّل به ، وقال : هذا ممن أغرى بأبي يوم بدر ، الآن شفيت نفسي حين قتلت الأمثال من أصحاب محمد - قتلت ابن قوقل (أى إياس بن عبادة) ، وقتلت أبا زهير (أى خارجة) وابن إياس (أى إياس بن أوس ، استشهد يومئذ أيضاً) . وقاتل ذكران بن عبد قيس حتى قتل ، بعد أن أصاب من المشركين كثيراً ، وغسلوا هزيمة أصحاب الرسول بدمائهم ، وأدخلهم الله جنات ، يمرحون فيها ، جزاء بما فعلوا وصبروا .

٢

غسيل الملائكة

زعيان من أكبر زعماء يثرب ، وثريان من أكبر ثرائها ، هما عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم الخزرج ، وأبو عامر بن صيفي زعيم الأوس ، سلبهما الإسلام جاههما الجاهلي الوثني ، أما أولهما فقد أقام في المدينة منافقاً يُبْطِنُ الكفر ويظهر الإيمان ، وأما ثانيهما فقد لَجَّتْ^(١) به العداوة والبغضاء ، فخرج إلى قريش مستنقراً على رسول الله ، وكان يلقب في الجاهلية بأبي عامر الراهب ، فأسماه المؤمنون أبا عامر الفاسق .

أما ابن عبد الله بن أبيّ بن سلول - وهو عبد الله بن عبد الله - فقد آمن بالله ورسوله ؛ وجاءت «أحد» ، وخرج الرسول ، وخرج معه عبد الله بن أبيّ بن سلول ، حتى إذا كان قبل الموقعة بقليل انخذه عنه عبد الله بن أبيّ بن سلول مع كسبة من قومه المنافقين .

أما أبو عامر فخرج في خمسة عشر رجلاً من الأوس ، وكان يذكر

(١) لَجَّتْ به العداوة : تَمَادَى في العناد .

لقريش أنه إذا نادى قومه من الأوس المسلمين استجابوا له ، وانضموا إلى قريش ، فخرج فنادى : « يا معشر الأوس - أنا أبو عامر . فأجاب الأوس المسلمون : « لا أنعم الله بك يا فاسق » ثم هجموا عليه مقاتلين فهرب . . وكان منهم ابنه حنظلة بن أبي عامر .

صفحة من صفحات الفناء الذائق في رسالة الله لا تتصور : حنظلة ابن أبي عامر ابن سيد قومه - وفي شرح الصبا . نعم كان صحابة رسول الله كلهم شباباً زاهراً ، لم يكونوا شيوخاً قد لجم بهم العمر ، فزهدوا في الدنيا بعد أن أخذوا منها الكفاية ، أبدأ ، لقد رشفوا من دين الله - وهم في زهرة الحياة . . ثم ضحوا بكل شيء في أيام التضحية . وفي ليلة الجمعة كان عرس حنظلة بن أبي عامر . . . فقد تزوج « جميلة » بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، وفي صباح ذلك اليوم نادى المنادى إلى الحرب ، فما سمعها حنظلة حتى تقلد سيفه ودرعه سراعاً ، ثم سار إلى القتال ، فلما بدأت الحرب قاتل قتال الأبطال . ثم انكشف المسلمون ، فأخذ حنظلة يقاتل ، وهو يمر بعينيه بين صفوف المشركين حتى يجد أباً سفيان ، فلما وجدته هجم عليه ، فوقع أبوسفيان ، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فصاح أبوسفيان مستنجداً بقريش : يا معشر قريش ! أنا أبوسفيان بن حرب ، فسمع الصوت

رجال من قريش ، فهجموا على حنظلة وضربوه ضربة قاتلة من وراء ظهره ، فاستدار إليهم ، ولكنهم تناولوه بالرماح . . . فمات .

• • •

ومر أبو سفيان بعد الموقعة بأبي عامر الفاسق ، وجعلا يطوفان بين القتلى ، هل يريان محمداً ، فرا بخارجة بن أبي زهير ، فقال أبو عامر :
يا أبا سفيان ، هل تدري من هذا القتل ؟
- لا .

- إنه خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي ، هذا سيد بلحارث ابن الخزرج .

ثم مرا بعباس بن عباد بن فضلة وهو نائم على جنبه فقال :
يا أبا سفيان هذا قَوْلٌ ^(١) ، هذا الشريف في بيت الشرف ، ثم مرا
بذكوان بن عبد قيس فقال أبو عامر : هذا ذكوان بن عبد قيس
الشريف اليثربي . .

ثم رأى أبو عامر ابنه ، وقد تناولته الرماح ومزقته ، فوقف أمامه
صائحاً : يا أبا سفيان ، أتدري من هذا ؟ . . قال : لا . قال : هذا
أعز من ههنا على ، هذا حنظلة بن أبي عامر . . ولدي إن كنت

(١) القَوْل : الصمود والارتقاء .

لأحذرك من قبل هذا المصراع - والله إن كنت لبراً بالوالد ، شريف الخلق في حياتك . . . وإن حِمَامَكَ لَمَعَ سَرَّاءِ أصحابك وأشرافهم ، وإن جَزَى الله هذا القَتِيل - حمزة - خيراً أو أحداً من أصحاب محمد فجزاك الله خيراً .

ثم نادى بأعلى صوته : « يا معشر قريش » حنظلة « لا يمثل به ، وإن كان خالفني وخالفكم ، فلم يَأَلِ لنفسه فيما يرى خيراً » .
فقتل بالناس ولم يمثل به .

* * *

ولكن حنظلة كان في عالم آخر غير عالمنا ، وها هو ذا الرسول يطلع على هذا العالم ، ثم يقول لأصحابه : « إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن ^(١) من صحاف الفضة » . ويُسرِع الصحابة إلى حنظلة ، ينظرون إليه ، فإذا رأسه يقطر ماء . . فعادوا إلى الرسول ﷺ فأخبروه ، فبعث إلى امرأته يسألها ، فأخبرتهم أنه ما سمِعَ هَيْعَةً ^(٢) الحرب حتى خرج وهو جُنُب لم يغتسل ، فَغَسَّلَتْهُ الملائكة . . فطوبى لك ، يا غسيل الملائكة ، مقامك العلوى !

(١) المزن : المطر .

(٢) هَيْعَةٌ : الصوت تفزع منه وتخافه من عدو .

حبر اليهود

(وَشَهِدَ شَهِيدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) ^(١)
 كان حبر اليهود وعالمها وسيدها ، أدرك الحق في رسالة رسول الله
 فعرفه ، ودلائل نبوته في كتابهم ، فعلام لا يتبعونه ولا يسرون وراءه ؟
 ولكنها فتنُ النفس ، تَقْلِبُ الحقَّ باطلا ، والباطل حقاً .
 (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا
 جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
 عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
 الْكَافِرِينَ) ^(٢) .

كم كانت تلك الآيات تبعث في نفس « مُخَيَّرِق » حبر اليهود من
 الآلام ، وَوَحْزِ الضمير ، ما يسهره الليالي الطوال ، فعاش في قلق
 مستمر ! قد آمن عبد الله بن سلام حبر اليهود من قبل ، فأذاع عنه

(١) سورة الأحقاف : ١٠ .

(٢) سورة البقرة : ٨٨ ، ٨٩ .

اليهود ، ووقعوا فيه ، وخشى مخيريق أن يحدث له ما حدث لعبد الله ، ولكن أبييع مجد الآخرة بمجد الأرض ؟ مجد الخلد بمجد الفناء ؟ ما هذه الأرض الواسعة التي لك ؟ وما هذا المال الوفير الذي تمرح فيه إذا ما أعقبه تأبيد في نار تَلْظَى ؟ . . . إيه أيتها النفس ! يتنازعك أبداً سلطانان : سلطان من الباطل يثير فيها التعميم الإنساني ، وسلطان من الحق يثير فيها الجزاء الخالد الإلهي .

المال والبنون والحياة . . .

جنة عرضها السموات والأرض . . .

وأنصت مخيريق لصوت الضمير . . . واستمع إليه يثير فيه أقدس الدواعي ، فخرج من بيته إلى أكابر قومه ، ورسول الله بأحد ، ووقف عليهم قائلاً : يا معشر اليهود ، والله إنكم لتعلمون أن محمداً لنبى ، وَأَنَّ نَصْرَةَ عَلَيْكُمْ لَحَقٌّ .

ففرزعا فرزعا شديداً وقالوا : إن اليوم يوم السبت .

قال : لا سَبَبَ لَكُمْ عِنْدِي أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ أُصِيبَتْ فَأَمْوَالِي لِمُحَمَّدٍ يَضَعُهَا حَيْثُ أَرَاهُ اللَّهُ .

ثم حمل سيفه ، وحضر أحداً والدائرة على المسلمين ، فلم يجزع ولم يهن ، بل دخل في القتال ، فذهب بسيفه حتى قتل .

وعلم رسول الله بأمره ، فقال : « مخيريق خير يهود » .
 وفُرِّقَت ثروته على فقراء المسلمين . والملائكة تطل على أحد تردد :
 (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) .

٤

السيد القرشي

« أبو سلمة بن عبد الأسد » سيد من سادات قريش ، وعظيم من
 عظمائها ، أمه برة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ .

دعا داعي الله ، فأسلم أبو سلمة ، قبل أن يدخل النبي دار
 الأرقم ، وقبل أن يدعو فيها ، وأسلمت امرأته أم سلمة هند بنت
 أمية ، ونشأ أولادهما « سلمة » و « عمر » و « زينب » و « درة » في
 رحاب الإسلام وطهره . وتحمل أبو سلمة من قريش أقصى الاضطهاد
 فلم يهن . حتى أمر رسول الله صحابته بالهجرة إلى الحبشة . فهاجر
 أبو سلمة المهجرتين . الأولى والثانية ، وقد صحب زوجه العظيمة معه
 في المهجرتين .

وعاد أبو سلمة إلى مكة ، حين فكر النبي في التوجه - الهجرة - إلى المدينة .

وبدأت الهجرة إلى المدينة ، فكان أبو سلمة أول مهاجر إليها ، ونزل بقاء على مبشرين المنذر . وحين تكون المجتمع الإسلامي الأول العظيم - مجتمع المؤاخاة والحب - آخى الرسول بين أبي سلمة ، وبين سعد بن خيثمة .

واستعرت نار الحرب بين المسلمين والمشركين ، فشهد أبو سلمة بدرا .

وفي «أحد» دافع تحت اللواء العظيم ، وجرح جرحاً شديداً ، إذ قذفه أبو سلمة الجشمى بمعبلة في عضده ، فكث شهراً يداوى جرحه ، حتى اندمل الجرح على آثار مُسَمِّمة وهو لا يعلم .

وأراد النبي أن يبعث سرية إلى بني أسد ، فبعثه على رأسها ، فغاب بضع عشرة ليلة ، ثم قدم المدينة ، فانتفض به الجرح وزاد التريف ، وعلم النبي بالأمر ، فأسرع إلى صديقه الوفي ، وسمع النبي بكاء أهله ، وفاضت نفس أبي سلمة ، فأغمض النبي عينيه ، ونام الرجل نومته الأخيرة بين يدي رسول الله - والرسول ﷺ يردد : « اللهم افسح له في قبره ، وأضيئ له فيه ، وعظّم نوره ، واغفر

ذنبه ، اللهم ارفع درجته في المهديين ، واخلفه في تركته في الغابرين » .

ولقد أضيء القبر العظيم ، وعظم النور الذي مات لأجله أبوسلمة ، فانتشر الإسلام عظيمًا في العالمين .

إن الفداء الحق ، فداء من أقبلت عليه الحياة وملكها ، لا فداء من أدبرت عنه وخرجت من يده ، فضحى وفدى ، أما الأولون فهم الأموات الخالدون ، وأما الآخرون فهم الأموات أبدأ ، ومن ذلك الصنف الأول كان أهل أحد .

سعد بن معاذ

« من رجل من أمتك مات الليلة اهتر لموته عرش

الله ؟ »

« من رجل من أمتك مات الليلة استبشر بموته

أهل السماء ؟ » .

تسامع أهل يثرب بخبر النبوة من نفر الذين عادوا من بطحاء مكة، وَصَبَتْ^(١) نفوسهم الفطرية نحو هذا النبع الجديد ، فَأَخَذُوا يَرْتَشِفُونَ منه ، وَيُقْبِلُونَ نحو مصعب بن عمير رسول رسول الله ، فَيَسْلِمُونَ بين يديه في منزل الصحابي الجليل أسعد بن زُرَّارَة ، وقد خرج به أسعد يوما يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ، وجلسا على حائط ، واجتمع إليهما نفر ممن أسلم ، وسمع سعد بن معاذ ، وأُسَيْدُ بن حضير سيدا عبد الأشهل بهما ، وكانا مشركين على دين قومهما - فقال سعد لأسيد : « لا أبا لك ! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا لِيُسَفِّها ضِعْفَانَا فَازْجُرْهُمَا ، وَانْتَهِهَا عَنْ أَنْ يَأْتِيا

(١) صَبَتْ : هفت ومالت .

دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كَفَيْتَكَ ذلك ، هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مُقَدِّمًا . وهنا أخذ أُسَيْدُ حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك ، فأصدق الله فيه : قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

وهنا أقبل أُسَيْدُ شاتما صائحًا : ما جاء بكما إلينا تُسَفِّهانِ ضعفاءنا ، اعتزِلانَا ، إن كانت لكما بأنفسكما حاجة . فقال له مصعب : « أَوْ تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرًا قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عَنْكَ ما تكره » .
- أنصفت .

ثم رَكَرَ حربته ، وجلس إليه ، وبدأ الداعية العظيم يعرض عليه الإسلام ، ويقرأ عليه القرآن ، وقد أحس الاثنان أن الرجل أخذته روعة الحق وقداسته ، في إشراق وجهه وتَسَهُّله ، ثم قال - أخيرًا - : « ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين » ! قالوا له : « تغتسل فتطهر ، وتطهر ثيابك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي » ؛ فقام فاعتسل ، وطَهَّرَ ثوبه ، وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : « إن ورأى رجلا إن أتبعكما

لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، « سعد بن معاذ » .
ثم أخذ حربته ورجع إلى سعد وقومه ، وهم جلوس في ناديتهم ،
فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد
بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟
- كَلَّمْتُ الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهَيْتُهُما ،
فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدث أن بنى حارثة قد خرجوا إلى
أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ،
ليحرقوك .

فقام سعد كالأسد الكاسر مغضباً مبادراً متخوفاً ، فأخذ الحرية من
يده ثم قال : « والله ما أراك أغنيت شيئاً » . ثم خرج إليهما ؛ فلما
رآهما « سعد » مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع
منهما ، فوقف عليهما متشتماً ، ثم قال لأسعد : « يا أبا أمامة ، لولا
ما بيني وبينك من القرابة مارمت هذا منى ، أتغشانا في دارنا بما
نكره ؟ »

وأسعد بن زرارة يُسرُّ إلى مصعب بن عمير : « أى مصعب جاءك
والله سيد من وراءه من قومه . إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم

اثنان» . وقد طلب منه مصعب أن يجلس ، فجلس لسمع كما جلس أسيد ، وقد أشرق هذا الوجه العبوس وتسهل ، وحملت الرياح إلى أطام المدينة وأرجاء مكة أن سعد بن معاذ سيد المدينة قد أسلم وآمن ، وأسلم معه أهله وآمنوا ، فلقد ذهب إليهم قاتلا :

يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمئنا نقيية .

قال : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

وحول سعد بن معاذ مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة إلى داره ، فكانا يدعوان الناس إلى الإسلام فيها ، وكان سعد وأسيد يكسران أصنام بنى عبد الأشهل .

وهاجر النبي صلوات الله عليه إلى المدينة ، وأخى بين سعد بن معاذ وسعد بن أبي وقاص . وهنا تبدو صفحة البذل والفداء التي كتبها آل معاذ في سفر الوجود .

وخرج المسلمون لعير قريش في « بدر » ، وحمل لواء الأنصار سعد بن معاذ ، فلما وصلوا علموا أن قريشاً خرجت لتحمي غيرها .

وهنا كانت مشكلة من أدق المشاهد .

لقد عاهد الأنصار على الدفاع عن رسول الله في بلادهم ، ولكنهم لم يعاهدوا على أن يسبوا معه لقتال عدو غير مغير على بلادهم ، فاستشار المهاجرين فوعده على بذل أنفسهم رخيصة في سبيل الله ، وهنا نظر إلى الأنصار وقال : « أشيروا عليّ أيها الناس . . » فقال سعد بن معاذ : والله لكأنتك تريدنا يا رسول الله .

قال : أجل .

قال سعد : لقد آمنا بك وصدّقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله ، لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسير بنا على بركة الله . فسرّ رسول الله ﷺ بقوله ذلك ، ثم قال : « سبوا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني - الآن - أنظر إلى مصارع القوم » .

وسار المسلمون حتى وقفوا أمام « بدر » وهنا قال سعد بن معاذ :

« يا نبي الله . ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحققت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ، يا نبي الله ، ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك » .

فأثنى عليه الرسول الأعظم ، ودعا له بخير ، وبني العريش ، واستعرت الحرب ، وقام سعد على بابه متوشحاً بالسيف ، في نفر من الأنصار ، يخافون عليه كرة العدو ، وانتصر المسلمون ، وبدءوا يأسرون الكافرين ، وهنا رأى الرسول الأعظم في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الرجال ، فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه : والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل ، والله يارسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإيخان^(١) في القتل بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال .

واستدار العام ، وخرج المسلمون إلى « أحد » وحدث الهرج في صفوف المسلمين . وهنا ثبت آل معاذ مع من ثبت حول الرسول

(١) الإيخان في القتل : المبالغة والغلظ فيه .

صلوات الله وسلامه عليه ، فأما « عمر بن معاذ » فقتل ، وأما « سعد » فقد كان يحول ويصول كالأسد الكاسر .

وجاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة ، ولم يأخذ أم أسعد - هنداً بنت سمالك - ضعف أو حزن ، لقد بايعت رسول الله ، وقدمت له كل شيء ، فما عادت ترى إلا محمداً صلوات الله وسلامه عليه .

وَحَلَّ عام الخندق ، إذ أقبلت قريش بنخيلها ورجلها ، تحاصر الرسول في عقر داره ، غير أن الخندق وقف في وجوههم ، فلم يجدوا مكاناً يدخلون منه المدينة إلا إذا حاصر اليهود الرسول عليه الصلاة والسلام من ناحية دورهم . وهنا لم يحفظ يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ ، فأرسل إليهم سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج ، ومعهما بعض الصحابة ، يذكرونهم بعهودهم ، قائلاً : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فآلجئوا لى لحنأ أعرفه ، ولا تفتؤا فى أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس ، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان

رجلا فيه حِدَّةٌ وقوة . فقال له سعد بن عباد : دع عنك مشائمتهم فما بيننا وبينهم أَرْبَى^(١) من المشائمة . ثم أقبلوا على الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأنخروه .

عَمَّ البلاء المسلمين ، فرأى رسول الله ﷺ أن يرسل إلى سيدَيْ غَطَفَانَ يعطيها ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معها عنه وعن أصحابه ، وبينه وبينها الصلح ، وأرسل إلى سيدَيْ الأوس والخزرج في ذلك فجاءاه ، قال سعد بن معاذ : « يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون منا ثمرة إلا قَرَى^(٢) أو بيعاً ، أَفَحِينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم » . قال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك » فتناول سعد الصحيفة فحما ما فيها من الكتاب ، ثم قال : لِيَجْهَدُوا علينا .

حان هجوم المشركين الأكبر على المسلمين . تقول عائشة أم المؤمنين - وكانت في حضن ابن حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز

(١) أرى : أكثر .

(٢) قرى : ما يقدم للضيف من طعام .

حصون المدينة ، وكانت أم سعد بن معاذ في الحصن : « . . . وذلك قبل أن يُضْرَبَ علينا الحجاب ، فسمعت وَثِيدَ الأرض ^(١) ، فالتفت فإذا سعد بن معاذ ، ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس ، يحمل مِجَنَّهُ ^(٢) وهو يَرْكُزُ :

لَبْتُ قليلاً بِدُرِّكِ الهيجا حمل لابأس بالموت إذا حان الأجل ^(٣) »
فقال له أمه : الحق يا بني ، فقد والله أخرت ، فقالت لها عائشة : « والله لَوَدِدْتُ أن درع سعد كانت أُسْبِغُ ^(٤) مما هي عليه »
وأخذ سعد يُناوِشُ المشركين حتى رماه جهان بن قيس بن العرقة بسهم ، فقطع منه الأكحل ^(٥) ، وهو يقول : خذها وأنا ابن العرقة .
فقال سعد : عَرَّقَ الله وجهك في النار . اللهم لا تُمِثْنِي حتى تُشْفِيَنِي من قُرَيْظَةٍ .

فَرَقًّا جرحه ، وبعث الله الريح على المشركين ، ففروا ، ورجع بنو قريظة إلى صياصيمهم ، وتحصنوا فيها .

(١) وثيد : شدة الوطء على الأرض يسمع كالندى من بعيد .

(٢) مِجَنَّهُ : ترسه الذي يحمي به .

(٣) لبث : انتظر . الهيجا : الحرب . حان الأجل : جاء الموت .

(٤) أُسْبِغُ : أطول .

(٥) الأكحل : عرق في الذراع .

أما سعد فقد جُعل في خيمة في المسجد ، تقوم على مداواته فيها
« رُقَيْدَة » ، سيدة من أسلم ، وهبت نفسها لخدمة المرضى .

سار الرسول الأعظم إلى يهود بني قريظة ، وقد كانت خيانتهم
ستؤدى - لولا نصر الله - إلى القضاء على المسلمين والإسلام .
وحاصروهم حتى خضعوا ونزلوا على حكمه ؛ فحكم فيهم سعد بن معاذ
قائلا حين خاطبوه في ذلك : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم
رجل منكم ؟

- بلى .

- فذاك الأمر إلى سعد بن معاذ .

فأتاه قومه فحملوه على حمار ، وقد وَطَّئُوا له بوسادة من آدم ^(١) ،
وكان رجلا طويلا جسيما جميلا . . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ
وهم يقولون : يا أبا عمرو : أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ
إمّا وَلَّاكَ ذلك لتحسن ففهم فلما أكنزوا عليه قال : لقد آن لسند ألا
ناخذ في الله لومة لائم .

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فغنى
لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ، ويفصح عن حكمه

(١) آدم : أى من جلد .

فيهم . فلما وصل سعد إلى رسول الله ﷺ ، قال الرسول للمهاجرين والأنصار : « قوموا إلى سيدكم » . فقاموا إليه وقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولّك أمرَ مواليك ، لتحكم فيهم . قال سعد عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه ، أن الحكم فيها لما حكته .

- نعم ، وعلى مَنْ ههنا .

يشيرون بذلك إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ ، وهو مُعرض عنه إجلالاً له ، فقال الرسول الأعظم : نعم . قال سعد : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال . وتسبي^(١) الذَّراري والنساء . فقال الرسول ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

وكان هذا أعدل حكم جزاء خيانتهم ، ونكالهم برسول الله . ثم دعا الله سعداً : « اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهد فيك من قوم كذَّبوا رسولك وأخرجوه . اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم ، حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت قد وضعت الحرب فيما

(١) السبي : الأسير .

بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتى فيها».

وعاد إلى خيمة «رفيدة» - فانفجر جرحه ودخل عليه الرسول واعتنقه ، والدم ينقع في وجه الرسول ﷺ . وما نقع الدم إلا ازداد منه قرباً ، قائلاً : « اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك ، وصلق رسولك ، فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحاً » . فلما سمع سعد كلام رسول الله ﷺ فتح عينه : « السلام عليكم يا رسول الله ، أما أنا فأني أشهد أنك رسول الله » .

ثم حمله أهله إلى ديار بنى الأشهل ، ليمرض فيهم . وخرج رسول الله ﷺ ، وأسدل الليل أسجافه^(١) ونامت الكائنات .. واستيقظ محمد صلوات الله وسلامه عليه ، لقد أتاه جبريل منادياً : « مَنْ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِكَ مَاتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ اسْتَبْشَرَ بِمَوْتِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ » .

وزدّد المنادى : ألا إن سعداً قد مات .

فقام الرسول إلى ديار بنى الأشهل ، وخرج معه الناس ، وسار عليه الصلاة والسلام في سرعة حتى إن شوعهم^(٢) لتقطع من

(١) أسجافه : ظلماته .

(٢) شوعهم : جمع شع وهو النعل .

أرجلهم ، وإن أَرَدْتَهُمْ لَتَقَعَ عَنْ عَوَاتِقِهِمْ ، فقال رجل : يا رسول الله قد أجهدت الناس ، فقال عليه السلام : « إني أخشى أن تسبقنا إليه الملائكة كما سبقتنا إلى « حنظلة » .

وكان الميت مسجى على سريرته - ودخل الرسول وحده ، وسمعه الناس يقول : « هنيئاً لك أبا عمرو ، هنيئاً لك أبا عمرو . جزاك الله خيراً من سيد قوم ، فقد أنجزت الله ما وعده ، ولينجزك ما وعده » وأمه تبكى :

ويل امك سعدا صرامسة وحباً

فقيل لها : « أتقولين الشعر على سعد » ! فقال النبي ﷺ : « دعوها فغيرها من الشعراء أكذب » .

وحملوه إلى قبره ، فلما وضع فيه تغير وجه الرسول الأعظم ، وسبح ثلاثاً ، فسيح المسلمون ثلاثاً حتى ارتجّ البقيع ، ثم كبر الرسول ، وكبر المسلمون حتى ارتجّ البقيع .

فسئل عن ذلك فقيل : يا رسول الله رأينا بوجهك تغيراً ، وسبّحت ثلاثاً . فقال : « تضايق على صاحبكم قبره ، وضمه ضمة لو نجا منها أحد لنجا سعد » .

وجاءت أمه تنظر إليه في اللحد فردوها ، فقال النبي صلوات الله

وسلامه عليه : دعوها ، فأقبلت حتى نظرت إليه ، وهو في اللحد قبل أن يبنى عليه باللبن والتراب ، فقالت : احتسبتك عند الله . ثم سوى القبر ، ورش عليه الماء .

مات سيد الأوس في السابعة والثلاثين من عمره ، وكانت حياته المثل الأعلى في التضحية والوفاء .

تقول عائشة : وما كان أحد أشد فقداً على المسلمين بعد رسول الله ﷺ وصاحبيه أو أحدهما من سعد بن معاذ .

الأمراء ...

صَلَّى إِلَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَتِيَةٍ . وَسَقَى عِظَامَهُمْ الْغَامُ الْمَسِيلَ
صَبَرُوا بِمَوْتِهِ لِلإِلَهِ نَفُوسَهُمْ حَذَرَ الرَّدَى وَمَخَافَةَ أَنْ يَنْكَلُوا

١

زيد بن حارثة

« أنت مولاي ومنى وأحب القوم إلى » .

صحا الكلبيون على نغمات صوت حزين ، يردّد أغاني باكية

حلوة :

بكيت على زيد ولم أذرمافعل
أحى فيرجى أم أنى دونه الأجل^(١)
فوالله ما أدرى وإنى لسائل^(٢)
أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل^(٣)
وياليت شعري هل لك الدهر أوبة^(٣)
فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل^(٣)

(١) الأجل : الموت .

(٢) أغالك : اغتالك .

(٣) أوبة : رجوعاً .

وسألت امرأة زوجها : من هذا المنشد ؟

- إنه حارثة بن شراحيل يبكي ابنه زيداً . خرجت أمه سعدى بنت ثعلبة معه تزور قومها بني مَعْن ، فأغارت خيل لبني القيس بن جسر ففروا على أبيات بني معن فاحتملوا زيداً - وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً - ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه .

ألا تسمعين ؟ لقد عاد الرجل إلى إنشاده :

تُدَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَتَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا غَرِبَهَا أَفْلَ
وَإِنْ هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ هَيَّجْنَ ذِكْرَهُ فَيَاطُولُ مَا حَزَنِي عَلَيْهِ وَمَا وَجَلَ
سَاعَمِلُ نَصَ الْعَبَسِ فِي الْأَرْضِ جَاهِداً وَلَا أَسَامُ الثَّطُوفَ أَوْ تَسَامُ الْإِيْلَ
حَيَاتِي أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِيْقِي فَكُلُّ أَمْرِي فَانٍ وَإِنْ غَرَّهَ الْأَمَلُ
وَقَامَ شَيْخٌ عَجُوزَ نَحْوِهِ : حَتَّانِيكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بَعْضُ مَا أَنْتَ فِيهِ .
- لَقَدْ فَرَى كِبْدِي .

وكان موسم الحج قد أقبل ، فحجج قوم من كلب ، وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكي ، حارثة بن شراحيل ، ومضوا يطوفون بالبيت .

وهناك رأوا زيداً ، فعرفهم وعرفوه ، وأقبل عليهم فقال : بلغوا أهلي هذه الأبيات ، فإني أعلم أنهم جزعوا على :

ألا أبلغوا قومي وإن كنتُ نائياً بأني قطين البيت عند المشاعر
فكفُّوا عن الوجد الذي قد شجَّأكم ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة كرام معد كابرًا بعد كابر
وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ،
فاستراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد
بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قریش محمد بن عبد الله ، وهبته
له .

* * *

وانطلق الكليون وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب
بفدائه ، وقدا مكة ، فسألا عن النبي صلوات الله وسلامه عليه ،
فدخلوا عليه وقالوا : يا بن عبد الله ، يا بن عبد المطلب ، يا بن هاشم ،
يا بن سيد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكُّون العاني ،
وتُطعمون الأسير ، جئنا في ابنتنا ، فامُتُّ علينا ، وأحسن إلينا في
فدائه ، فإنا سندفع لك الفداء .

- من هو ؟

- زيد بن حارثة .

- فهل لكم غير ذلك ؟

— من هو؟

— ادعوه فَخَيَّرُوهُ ، فَإِنْ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ بَغِيرِ فِدَاءٍ ، وَإِنْ اخْتَارَنِي فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلَى مَنْ اخْتَارَنِي .

— قَدْ زِدْتَنَا عَلَى النَّصْفِ ^(١) وَأَحْسَنْتَ .

فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ : هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ ؟

— نَعَمْ .

— مِنْ هُمَا ؟

— هَذَا أَبِي ، وَهَذَا عَمِّي .

— فَأَنَا مِنْ عَلِمْتَ وَرَأَيْتُ صَحْبَتِي فَاخْتَرَنِي أَوْ اخْتَرْتَهُمَا .

— مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلَيْكَ أَحَدًا ، أَنْتَ مَنِ بِمَكَانَةِ الْأَبِ وَالْأُمِّ .

فَقَالَا : وَيْحَكَ يَا زَيْدُ ! اخْتَارَ الْعَبُودِيَّةَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ وَعَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ .

— نَعَمْ ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنَ الرَّجُلِ شَيْئًا مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلَيْهِ أَحَدًا أَبَدًا .

فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ ، أَخْرَجَهُ إِلَى الْحَجَرِ ، فَقَالَ : يَا مَنْ حَضَرَ ، اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي ، أَرْتُهُ وَيَرْتَنِي .

(١) النصف : العدل والإنصاف .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك طابت أنفسهما وانصرفا .

ونزلت الرسالة على محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فكان زيد أول من آمن به ، ولم يترك النبي صلوات الله وسلامه عليه لحظة ، فأحبه حباً شديداً .

وأذن النبي ﷺ في الهجرة لأصحابه . وهاجر زيد ، ونزل في المدينة على سعد بن خيثمة ، ولما هاجر الرسول الأعظم إلى يثرب وآخى بين المسلمين كان حمزة سيد الشهداء وزيد أخوين في الله ، ثم آخى النبي الأعظم - بعد مقتل حمزة - بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين . وكان زيد من الرماة المذكورين ، فشهد بدرًا وأحدًا ، واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة حين خرج إلى « المُرْسِيع » وشهد الخندق والحديبية وحنيناً ، وخرج زيد أمير سبع سرايا أولها القردة ، فاعترض لعير قريش فأصابها ، وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر زيد فرات بن حيان العجلي ، وقدم بالعير على النبي ﷺ وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت عائشة : « ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم ، ولو بقي بعده لاستخلفه » .

وأراد الرسول الأعظم أن يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين ، وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : (عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة) . فوقف جعفر فقال : « يا رسول الله ماكنت أرغب أن تستعمل عليَّ زيدا » . فقال : « أمضه فإنك لا تدري أى ذلك خير » .

وسار المسلمون وعلى رأسهم زيد حتى وصلوا إلى مؤتة ، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم في أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا . . ولكن مالبت الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التي يريدها . . وتناوته السيوف بالطعن وهو يقاتل دون راية رسول الله ﷺ .

. . . وأخيراً قُتل الأمير .

أيّتها النفس الكبيرة ، لقد عرف النبي الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء والصالحين . .

. . . وفي المدينة وقف النبي ﷺ يقول : « استغفروا لزيد ، لقد

دخل الجنة وهو يسعى » . ثم أتى أهله فجهشت بنت زيد في وجهه ، فبكى حتى انتحب .

فقال له سعد بن عباد : يا رسول الله ما هذا ؟ !

- هذا شوق الحبيب إلى الحبيب !

جعفر بن أبي طالب

« لقد رأيت جعفرًا في الجنة له جناحان مضرجان
بالسما مصبوغ القوادم »

مات عبد المطلب سيد مكة ، وترك لابنه أبي طالب هذا المجد
العريض المُوْتَل (١) ، ولكن السيد الجديد كان يقاسى الفقر وشَطَفَ
العيش ، وكان ما ينوء به كاهله كثرة الأولاد ، وقد مرت بمكة أيام
جَدَبٍ عِجَافٍ ، وأصاب قريشاً أزمة شديدة ، فقال رسول الله ﷺ
للعباس عمه ، وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس إن أخاك أبا طالب
كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا
إليه ، فَلَنُخَفِّفْ عنه من عياله ، آخذ من بنيهِ رجلاً ، وتأخذ أنت
رجلاً ، فنكفلها عنه ، فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا
أبا طالب ، فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك ، حتى
ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لهما : إذا تركتما لى عقيلاً فاصنعا

(١) المُوْتَل : الأصيل الشريف .

ما شئتما ، فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرأ
فضمه إليه .

وقد بقي جعفر عند العباس في ترف وثناء حتى بعث الله نبيه ،
فأسلم جعفر قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها .
واستغنى حينئذ عن عمه ، وأصاب جعفرأ من قريش أذى كثير ،
دعاه إلى الخروج إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، وكان هناك أمير
المهاجرين .

وبعثت قريش إلى النجاشي عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن
العاص ، يطلبان تسليم أولئك النفر الذين خرجوا على دين اللات
والعزى ، فدعا النجاشي جعفرأ وسأله عن هذا الدين الذي يدينون
به ، فأجابه إجابة صريحة واضحة ، رأى النجاشي بعدها
ألا يُسلمهم ، وأن يمنعهم في أرضه ، وردّ إلى الرسولين هدايا قريش .
فلما عاوده عمرو بن العاص طلب منه أن يسأل جعفرأ عن قول الإسلام
في ابن مريم : إنه ليس إلا عبداً أنعم الله عليه . أجابه جعفر أيضاً في
صراحة واضحة أبى النجاشي بعدها إلا أن يقيموا في أرضه آمنين سالمين .

وقضوا في الحبشة ما أراد لهم الله حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى
المدينة وبعث إلى النجاشي عمرو بن أمية يطلب منه إعادة المسلمين إلى

وطنهم وسارع جعفر وصحبه إلى المدينة ، والنبي صلوات الله عليه بخير سنة سبع من الهجرة .

ورجع النبي ﷺ من خير ، فلتقاه جعفر ، فالتزمه النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقبل ما بين عينيه وقال : « ما أدري بأيهما أفرح : بقدم جعفر ، أم بفتح خير » . وآخى بينه وبين معاذ بن جبل . وعاش سيد شباب بني هاشم في المدينة مدة قصيرة الزمن دُعي بعدها إلى الجهاد في مؤتة ، فلم يتردد ولم يهن^(١) ، بل ودع زوجته وأطفاله ، وخرج غازياً . وتقابلوا مع الروم في مؤتة ، وقتل أميرهم « زيد بن حارثة » أمام أعينهم . فحمل اللواء « جعفر » فتى بني هاشم ، فجاءه الشيطان ومناه الحياة الدنيا ، وكره له الموت فقال جعفر : « الآن حين استحکم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنى الدنيا » ؟ ، ولم يتردد لحظة بل اقتحم عن فرس له شقراء وهو يقول :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
على إن لاقيتها ضرابها

ثم انقض على الروم يقتل فيها يميناً وشمالاً ، ولكن ما لبثت سيوفهم

(١) لم يهن : لم يضعف .

أن قطعت يمينه ، فأخذ اللواء بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه ، فضربوه بسيوفهم حتى قطعوه نصفين ، وأقبل عليه المسلمون فوجدوا فيما بقي من بدنه تسعين ضربة ، بين طعنة برمح ، وضربة بسيف .

مات فتى بنى هاشم في الثالثة والثلاثين من عمره . بعد أن ترك وراءه أبناء لا متاع لهم في الحياة ولا مال . وكانت زوجته « أسماء بنت عُمَيْس » وقتئذ تنظف أولادها وتعطرهم . . . فأنامهم الرسول الأعظم وقال : اثبتني ببني جعفر ، فأنته بهم ، فَتَشَمَّمَهُمْ ، وذرفت عيناه ، فقالت : يا رسول الله أنت أبأي وأمى ! ما يبكيك . أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟

— أصيبوا اليوم .

فقامت تصيح ، واجتمعت النساء ، فخرج نبي الله صلوات الله عليه وقال : « لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » . . . ووقف صلوات الله عليه وسلامه يقول في وسط المسلمين : « لقد رأيته في الجنة له جناحان مُضَرَّجان بالدماء مصبوغ القوادم » .

وأنت أسماء إلى رسول الله فذكرت يُتَمَّهُمْ فقال : « العيلة تخافين عليهم ، وأنا وَلِيُّهُمْ في الدنيا والآخرة ؟ » .

عبد الله بن رَواحة الأمير الشاعر

« نعم الرجل عبد الله بن رواحة »

سارت قافلة من يثرب إلى مكة ، وفيها سبعون من بني الأوس والخزرج ، ذهبوا إلى الجنوب ليبايعوا الرسول الأعظم على نصرته حتى الموت ؛ فكانوا هم بعد ذلك الأنصار الذين آووا^(١) ، والذين نصروا ، والذين آثروا رسول الله وصحبه على أنفسهم وعلى أولادهم ونسائهم .

وفي العقبة بايعوا الرسول الأعظم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، ثم طلب منهم أن يخرجوا إليه اثني عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرج بنو الحارث بن الخزرج عبد الله ابن رواحة نقيباً لهم ، وكان عبد الله كبير القدر في الجاهلية ، وكان كاتباً ، والكتابة قليلة في العرب . . واستقبل الأنصار الرسول صلوات

(١) آووا : نصروا .

الله وسلامه عليه حين هجرته وكانوا له العشيرة الأوفياء ، وفى عبد الله ابن رواحة فى دعوة الله وطاعة رسوله ... أتى النبي الكريم وهو يخطب فسمعه يقول : اجلسوا ، فجلس مكانه خارجاً من المسجد حتى فرغ النبي ﷺ من خطبته ، فبلغ ذلك النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فقال له : زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله ، ولما آذن القتال كان عبد الله أول خارج إلى الغزو ، وأول قافل ذبَّ عن رسول الله بلسانه ، وحضر المشاهد كلها . وأرسله رسول الله ﷺ إلى العالية ، ليشر أهلها بوقعة بدر ، ودخل النبي الأعظم بعد سنوات الجهاد مكة فى عمرة القضاء ، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام ناقته يقول :

خَلُّوا بَنَى الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فِكْلَ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ أَعْرِفْ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ
.. فقال عمر : يا ابن رواحة ، فى حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ هذا الشعر ؟ فقال الرسول ﷺ : خل عنه يا عمر ، فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل ، ثم قال :

يَا رَبُّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا
إِنَّ الْكُفَّارَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

فقال النبي ﷺ : اللهم ارحمه ، فقال عمر : وجبت ،
ولما نزلت : (والشُعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) ^(١) قال عبد الله : إني
منهم . . . فأنزل الله :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ^(٢) .

وبعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين راكباً إلى أسير بن قرام اليهودي
بخيبر فقتله ، وبعثه بعد فتح خيبر فخرص عليهم ، يقول أبو الدرداء :
أعوذ بالله أن يأتني على يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا
لقيني مُقبلاً ضربي بين ثُدَيَّي ، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي !! ثم
يقول : يا عويمر ، تعال ساعة فلنجلس فنذكر الله ما شاء ، ثم يقول :
يا عويمر هذه مجالس الإيمان ، وسألوا امرأته عنه ، فقالت : كان إذا
أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين ، وإذا دخل صلى ركعتين ، لا يدع
ذلك . وكان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل .

* * *

وتبها المسلمون للخروج إلى مؤتة ، فلما ودع عبد الله بن رواحة من

(١) سورة الشعراء : ٢٢٤ .

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

ودع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ، فقالوا : ما يبكيك يا بن رواحة ؟

— أما والله ما بى حب الدنيا ، ولا صباة إليها ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) ^(١) .

فلست أدري كيف لى بالصبر بعد الورود ؟!

فقال المسلمون : صحبكم الله وردكم إلينا صالحين .

فقال ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وَضِرَّةَ ذاتِ فَرَعٍ تقذف الزبدًا
أوطعنةً يَبْدَى حَرَّانَ مُجْهَرَةً بحربة تنفذ الأحشاء والكبدًا
حتى يقولوا إذا مروا على جدتى أرشده الله من غازٍ وقد رشداً

ثم أتى رسول الله ﷺ فودعه ، ثم قال :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدرُ
فَبَتَّ اللهُ ما آتاك من حسن فى المرسلين ونصراً كالذى نصروا
إنى تَفَرَّستَ فيك الخير نافلةً فِرَاسة خالفت فيك الذى نظروا
ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم ، حتى إذا

ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خلف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مشيع وخليل
ثم سار الجيش ، وكان في رجال عبد الله بن رواحة زيد بن
أرقم ، وكان يتيماً له ، وقد أردفه على حقيبة رحله ، وقد سمعه ليلة
وهو ينشد :

إذا أذْنَيْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدَ الْحَسَاءِ
فَشَأْنُكَ أَنْعَمِي وَخَلَائِكَ ذَمِي وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَصْلِي وَرَأَى
وَجَاءَ الْمُؤْمِنُونَ وَغَادَرُونِي بِأَرْضِ الشَّامِ مَشْهُورِ الْكُؤَاءِ
وَرَدَّكَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعِ الْإِخَاءِ
هَنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَعْلٌ وَلَا نَخْلٌ أَسَافِلُهَا سِوَاءِ
فلما سمعه زيد بكى ، فخفقه بالدرة ، وقال : « ما عليك أن

يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبي الرحل » .

ومضى المسلمون حتى نزلوا « معان » من أرض الشام ، فبلغ الناس
أن هرقل قد نزل (مآب) من أرض « البلقاء » في مائة ألف من
الروم ، ثم مثلهم من المستعربين ، فلما علم ذلك المسلمون أقاموا على
« معان » ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ
نخبره بعدد عدلونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فتمضى

له ، فشجع عبد الله بن رواحة الناس وقال : « يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور ، وإما شهادة » ؛ فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

ففضى الناس حتى إذا كانوا بقربة مشارف ، دنا العدو منهم ، وانحاز المسلمون إلى مؤتة ، ثم بدأ فهجم زيد بن حارثة فقتل ، ثم اقتحم جعفر الروم فقتل ، فلما قتل جعفر دعا الناس عبد الله بن رواحة وهو في جانب العسكر فتقدم ، فقال وهو يخاطب نفسه :
يا نفسُ إلا تُقَتِّلِي تموتِ هذا حياضُ الموت قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد لقيتِ إن تفعلِي فعلها هُديتِ
وإن تأخرتِ فقد شقيتِ

يعنى زيدا وجعفرأ ، ثم قال : يا نفس إلى أى شىء تتوقين ؟ إلى امرأتى ؟ فهى طالق ، إلى غلمانى ؟ فهم أحرار ، إلى صحن حائط ؟ فهو لله ورسوله ، ثم أخذ اللواء واستقبل فقاتل برهة . . ثم عاد . . وأخذ يؤنبُ نفسه على ترده كل التائب ، يلوم نفسه على لحظة صغيرة تردها فعاد يقول :

يَا نَفْسُ مَا لَكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ أَقْسَمَ بِاللَّهِ لَنَنْزِلَنَّكَ
طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرِهَنَّاهُ فَطَالَمَا كُنْتُ مَطْمَئِنَّةً
هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَظْفَةٌ فِي شَتَّى قَدْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّهْنَ
فَلَمَّا نَزَلَ لِلْقِتَالِ طَعَنَ ، فَاسْتَقْبَلَ الدَّمَ بِيَدِهِ فَدَلَكَ بِهِ وَجْهَهُ ، ثُمَّ
صَرَخَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ حَتَّى قُتِلَ .

* * *

وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَخَذَ
زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الرَّابِيَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرُ بْنُ
أَبِي طَالِبٍ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً... » ثُمَّ صَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى
تَغَيَّرَتْ وَجْوهُ الْأَنْصَارِ ، وَظَنُّوا أَنَّ كَانَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ
مَا يَكْرَهُونَ ، فَقَالَ : « ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ
شَهِيداً... » ثُمَّ لَقْدَ رَفَعُوا إِلَى الْجَنَّةِ عَلَى أَسِيرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَرَأَيْتُ فِي
سَرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ أَزْوَراً^(١) عَنْ سَرِيرِي صَاحِبِيهِ ، فَقُلْتُ :
عَمَّ هَذَا ؟ فَقِيلَ لِي : مُضِيَا ، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بِعَظْمِ التَّرَدُّدِ !

(١) أزوراراً : ميلاً .

على ماء الرُّجِيع

« ما قام الإسلام إلا على هذا النوع من الإيثار
الرفيع . والإيثار ما هو ؟ إنه ليس إلا فناء في
رسالة محمد ، فلا يرى غيرها إلا سراباً ووهماً . . .
وإنه ليس إلا تخلياً عن الوجود الذاتي ، وترفعاً
عنه لحياة أخرى كلها خير إلهي . . . فلم يخش
الفرد منهم عذاباً ولا وصباً ، إنما تعلو نفسه عن
كل تلك الدنايا ، ويصغر في عينه عالم الأرض ،
محلّقاً هائماً نحو عالم البقاء ، وهكذا كان صحابة
الرسول الأول . . . »

ونادى المتنادى في مسجد الكوفة يقول : أَلَا مَنْ يَريدُ أَنْ يسمع
زياد بن عبد الله الصوفي^(١) ، وهو يقص عن هؤلاء الذين ذهبوا في
نفرة الحياة ، وخُيروا فاختاروا بلا تردد ولا إحجام ؟
واجتمع الناس حول زياد ، وتصدر زياد المجلس ، وهذا الناس
جميعاً .

(١) زياد بن عبد الله الصوفي شخصية متخيلة وضع المؤلف قصة أبناء الرجيع الحقيقية
على لسانه .

أصاب الرسول الأعظم من عشيرته وقومه ما أصابه من أذى وألم وإرهاق . . . وكأني أستعيد تلك الصور القاسية وألمحه أمامي متقلباً على الأذى صابراً فيه ، وهاجر النبي الكريم إلى يثرب ، وهناك نصره الله بأسود الأنصار ، يحمون دياره ، ويدافعون عن حوزته ، ويمنعونه مما منعوا نساءهم وأولادهم وأنفسهم .

وقامت بدر وأحد . . . وهُزِمَ المسلمون في هذه الواقعة الأخيرة ، وتلمس أعداؤهم الفرص للإيقاع بهم والقضاء عليهم ، وفشا النفاق في المدينة وكثر .

وفي تلك الأثناء أقبل على الرسول الكريم رهط من « عضل » ، يعرضون نصرهم وإسلامهم على الرسول فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئونا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ، واستبشر المسلمون خيراً ، وأرسل الرسول فيهم ستة من أعلام أصحابه . . من البدرين الذين أيدتهم الملائكة ، وأطل عليهم الله المتعالى ، وقال لهم : « افعلوا ما شئتم ، لقد غفرت لكم » ؛ كان هؤلاء الستة من البدرين ، ومن السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين : مرثد بن أبي مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير الليثي ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وخبيب بن عدى ، وزيد

ابن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وأمر رسول الله ﷺ مرثد بن أبي مرثد ، ومضوا حتى إذا كانوا على الرجيع - ماء لهديل - غدروا بهم ، فاستخرجوا عليهم هُدَيْلًا ، فلم يُرْعِ القومَ في الرجال غير الرجال يحيطون بهم من كل جانب ، وبأيديهم السيوف ، فأخذ الصحابة الأطهار سيوفهم ليقاتلوهم ، فقال لهم أعداؤهم : « إنا والله ، ما نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، ولكم عهدُ الله وميثاقه ألا نقتلكم » .

* * *

ولكأنى أراهم الآن . . أرى عاصم بن ثابت بن أبي الألقح وهو يتذكر ليلة بدر ، وفيها قال النبي ﷺ للأنصار : « كيف تقاتلون ؟ » فقام عاصم وأخذ القوس والنبل ، وقال : إذا كان القوم قريباً من مائتي ذراع كان الرمي ، وإذا دَنَوْا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة ^(١) حتى تَقْصَفَ ؛ فإذا تقصفت وضعناها وأخذناها بالسيوف ، وكانت المجالدة ؛ فقال النبي ﷺ : « هكذا نزلت الحرب ، من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم » ، فكأنى أرى عاصماً يتذكر هذا يوم الرجيع ، ويتذكر كيف أبلى يوم بدر . وكيف كان له يوم أحد ، يوم ثبت مع

(١) المداعسة : أى الطعن .

الرسول الكريم ثبوت الأطواد ، وكان له القدح الملقى في القتال ، فقتل كثيرين من قريش منهم مسافع بن طلحة وأخوه الجلاس بن طلحة كلاهما يقذف بسهمه عليهما فيأني أمه « سلاقة » فتضع رأسه في حجرها فتقول : يا بني من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلاً حين رماني يقول : خذها وأنا ابن أبي الأفلح ، فنذرت إن مكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر . لكأنى بعاصم يفكر في ذلك كله . ويفكر في عهده الرهيب الذي أعطاه الله ألا يمس مشرك ولا يمس مشركاً نجساً ، فكيف يتزل إذن في ذمة مشرك غادر ؟ . . لا . . دون هذا الجلال والطعان .

• • •

ومرثد بن أبي مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب ، وأحد عبايلة بدر ، كيف يرضى لنفسه الهوان والذل في جوار مشرك ؟ ! ومخالد بن البكير قد اصطفاه رسول الله مع عبد الله بن جحش في رهط المهاجرين في أول سرية ، كيف يعطى بيده لا ، أبداً ، لقد صاح ثلاثتهم : « والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً » .

واستلوا سيوفهم وعاصم على رأسهم يناوش القوم مرتجزاً :

ما علتي وأنا جلد نابل والقوس فيها وتر عنابيل
وترل عن صفحتها المعابيل الموت حق والحياة باطل

وكل ما حم الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيل
 إن لم أقاتلكم فأمى هابل

ودار القتال عنيفاً شديداً بين جَمٍّ غفير من المشركين ، وثلاثة من
 المسلمين ، فقتل عاصم وهو يقول : اللهم إني حميت دينك أول
 نهاري ، فاحم لي لحمي آخر نهاري ، وقتل مرثد ، وقتل خالد في مبة
 الصبا وشرح الحياة ، فقد كان في الرابعة والثلاثين .

آن إذن لسلافة بنت سعد أن تشرب الخمر في رأس عاصم .
 واقترب المشركون من هذيل من جسد عاصم ، ليقطعوا رأسه ، ليسيّعوه
 إلى سلافة بأجنس الأثمان ، ولكن لم يعلموا أن الله منع جسده منهم ،
 فقد أحاطت الدُّبُر بعاصم ، فما استطاع مشرك أن يقترب منه ، فقالوا :
 دعوه حتى يمسي فيذهب عنه ، وأمطرت السماء ، وبعث الله الوادي
 فاحتمل عاصماً معه .

• • •

أما زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق ،
 فقد رفقوا ولانوا ، فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة - ليسيّعوهم بها ،
 حتى إذا كانوا بالظهران - ناحية قرب مكة - صاح عبد الله بن
 طارق : « والله إن لي في عاصم وصاحبيه لأسوة » ، فانتزع يده من

القيد، ثم أخذ سيفه ، فاستأخر عنه القوم ، ورموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبروه بالظهران .

أما زيد وخبيب فقد قدموا بهما مكة ، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل ، كانا بمكة ، فابتاع حجر بن أبي إهاب الغيمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر خبيياً ليقتله بأبيه ، وابتاع صفوان بن أمية زيدا ليقتله بأبيه أمية بن خلف . . وسجن الأول في بيت ماوية مولاة حجر بن أبي إهاب . والثاني في بيت صفوان . وكانت حياة كل منهما في تلك الفترة التي قضياها في مكة سموا على الحياة كلها وإعجازاً للقرشين ، وما كان لتلك القلوب أن تلين . . كانت كالحجارة أو أشد قسوة .

وكانا يقضيان نهارهما في العبادة ، وليلهما في التهجد . وقد رفض زيد وخبيب أن يأكلا مما لم يذكر اسم الله عليه ، فكانا يتناولان اللبن ، وتقول ماوية لنا بعد ذلك : « كان خبيب عندي حبساً في بيتي ، فلقد اطلعت عليه يوماً ، وكان في يده قطف من عنب مثل رأس الرجل ، يأكل منه ، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل » . وقد طلب منها يوماً ، حين عرف موعد قتله ، موسى يتطهر بها للقتل ، قالت : فأعطيت غلاماً من الحمي الموسى ، فقلت : ادخل بها

على هذا الرجل البيت ، ثم قالت : فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه حتى قلت لنفسى ماذا صنعت ؟ أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام ، فيكون رجلاً برجل ، فلما ناوله الموسى أخذها من يده ، ثم عطف وحنا عليه وقال : لعمرك ما خافت أملك غدري حين بعثتك بهذه الحديدية ، ثم أخذ يلاعبه ويناغيه ، وهنا أقبلت المرأة فنظر إليها خبيب وقال : أتحسبن أنى أقتله ، إن ديفى ينهى عن الغيلة .

وخرج يزيد وخبيب إلى القتل وفى وسط المدينة تقابل الشهيدان . ومع كل واحد منهما جماعة من قريش فتعانقا ، وأوصى كل منهما الآخر بالصبر على ما أصابه ، ثم ساروا بزيد إلى التنعيم ليقتل هناك ، وسار خلفه طائفة من أهل قريش من الرجال والنساء والصبية ، وهناك قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟

قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى .

قال أبو سفيان : « ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحُب أصحاب محمد محمداً » . وفى تلك الآونة انقض عليه نسطاس فقتله .

ثم ساورا بخيب بعده إلى التنعيم أيضاً ، ليصلبوه ، وهناك قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا .
- دونك فاركع .

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزءاً من القتل لا سكتت من الصلاة ، فكان خيب أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، ثم رفعوه على خشبة وأوثقوه ثم قالوا له : ارجع عن الإسلام نُخلُ سبيك . فقال : لا والله ! ما أحب أن أرجع عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعاً .

- ارجع يا خيب .

- لا أرجع أبداً .

- أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك .

- إن قتلى في الله لقليل .

وجعلوا وجهه من حيث جاء ، فقال أما صرفكم وجهي عن القبلة فإن الله يقول : « فأيما تولوا فثم وجه الله » . ثم قال : اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو ، اللهم إنه ليس ههنا أحد يبلغ رسولك عني السلام ، فبلغه عني أنت السلام .

وفى تلك اللحظة اقتربوا منه بالرماح ، وقد أوتوا بأربعين من أبناء قتلى بدر ، وأعطوهم الرماح ، ثم قالوا : هذا الذى قتل آباءكم بيدى ، فقال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فأبلغه الغداة ما يصنع بنا ، اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بَدَدًا^(١) ، ولا تغادر منهم أحداً ، وهنا ألقى معاوية بن أبى سفيان - وكان من بين القرشيين - نفسه إلى الأرض فرقاً^(٢) من دعوة خبيب ، وهرب حكيم ابن حزام واختفى جبير بن مطعم . . ثم بدعوا يضعنونه ، فاستدار إلى الكعبة فقال : « الحمد لله الذى جعل وجهى نحو قبلته التى رضى لنفسه ولنبيه وللمؤمنين » . ثم عاودوا طعنه مدة ساعة وهو ينادى : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

• • •

وكان الرسول الكريم فى المدينة بين صحبه ، فأخذته غيبة كما كان يأخذه إذا نزل عليه الوحي ، ثم قال : هذا جبريل يقرئنى من خبيب السلام ، وتركه أهل مكة مصلوباً أياماً عدة ، أرسل الرسول الكريم بعدها عمرو بن أبى أمية الضمري فى سرية لقتل أبى سفيان ، وقد

(١) بدداً : متفرقين .

(٢) فرقاً : خوفاً .

غافل عمرو الحراس واحتمل جسد خبيب ، ولكن ما لبث القرشيون
أن كروا عليه فترك الجثة ومضى ، ولكن قبل أن يغيب رأى الأرض
تنفرج فرجة وتبتلعه . . .

تلك هى قصة أهل الرجيع . .

• • •

وما قام الإسلام إلا على هذا النوع من الإيثار الرفيع ، والإيثار
ما هو ؟ إنه ليس إلفاء فى رسالة محمد . فلا يرى غيرها إلا سراباً
ووهماً . . . إنه ليس إلا تخلياً عن الوجود الذاتى . وترفعاً عنه الحياة
أخرى كلها خير إلهى . . فلم يخش الفرد منهم عذاباً ولا وصباً ، إنما
تعلو نفسه على كل تلك الدنيا . وتصغر فى عينيه الأرض ، محلقاً هائماً
نحو عالم البقاء ! .

أولاد أبي أُحِيحة

« أقبلوا على الإسلام والدنيا عنه في إِدبار
فجاهلوا وتركوا الدنيا يوم كانت على الإسلام في
إقبال فأتوا واستشهدوا » .

١

... ووقفت الحلقات المنتشرة في البيت العتيق إجلالا لسيد بنى
عبد شمس : أبي أُحِيحة « سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس » ،
وحوله أولاده الكثيرون . وتطلعت الأعين إلى الرجل في إجلال ، وهو
يسير في وسط تلك الكوكبة من أولاده ، يرفلون جميعاً في
الدمقس^(١) وَيُزَيْنُ رِعْوُسَهُم الریش ، ويفوح من أعطافهم
الطيب .: وأبو أُحِيحة في مقدمتهم يَعْتَمُ بِعامة أخذ أهل مكة على
أنفسهم أَلَا يَعْتَمُّوا بِلُونِهَا إجلالاً له وإعظاماً... وكان يقال له
« ذوالتاج » . وقضى أبو أُحِيحة وقتاً في البيت العتيق يتسامر مع أشراف
قريش : أبي سفيان وأبي جهل وأبي طالب وغيرهم . وانتشر أولاده في

(١) الدَّمَقْس : الحرير .

حلقات القرشيين يتسامرون ، ويقصون ما شاء لهم . حتى إذا ما أَدْلَجَ^(١) الليل عادوا إلى بيوتهم مع أبيهم . حياة ناعمة يَحْيُونَهَا ويحيّاها معهم القرشيون ، يأخذون من الحياة نعيمها وترفها . ويقبل كل منهم على شهواتها ولذاتها . ألم يكن هذا كله أمنية القرشيين جميعاً ؟ لا رادع ولا قانون إلا قانون الصحراء الجاهلي . هذا القانون الذى لا يدعمه نظام كامل مستقر ، إنما كانت تنظمه شهوات الإنسان ونوازعه ، شهوات الإنسان القوى ونوازعه . فلم يكن ثَمَّةَ^(٢) عدل ولا عدالة ، بل سيطر القوى على الضعيف . أى تطبيق للعدل تستطيع الدنيا أن تشهد ، إن لم يكن هناك إيمان به ؟ وأى عدل فى الدنيا إذا لم يكن هناك مصدر ثابت يحدده ويميزه ؟ فليست الفضائل السامية والمثل العليا من عمل الإنسان المخلوق التعس ، الجمرة المشتعلة من الأثرة والردائل ، بل من عمل يوازى تلك المثل ، أو ممن هو أرفع منها ، لم يخطر هذا على فكر القرشيين ، بل كانوا فى عوالمهم المترقة ، حتى جَابَهُتْهُمْ حربُ الفِجَارِ ، تلك الحرب التى اصْطَلَّوا^(٣) ناراها فى

(١) أدلج الليل : دخل أول الليل .

(٢) ثمة : هناك .

(٣) اصطلوا : احترقوا .

الأشهر الحرم . والتي كانت واحدة من تلك الحروب التي كانت تثار بين بطون العرب وتمتد السنين الطوال . ألم يكن هذا نتيجة لاختلال أوضاعهم الجاهلية التي لم تعرف مقاييس العدالة ، ولم تنظم علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالله ، يدفعه تنظيم الأولى إلى احترام الوجود الإنساني ، وتدفعه الثانية إلى احترام الوجود الإلهي ! !

وكان لابد لأشراف قريش أن يشاركوا في هذه الحرب ، وأن يلقوا فيها بأنفسهم مدافعين عن حقوقهم . وخرج أبوأحيحة « سعيد بن العاص » ومعه أولاده ، مَنْ كَبِرَ منهم يقاتل ، ومن صغير يرمى بالنبل ، والتحمت قريش وهوازن التحاماً شديداً قُتِلَ فيه « أحيحة بن سعيد بن العاص » . وبعد صفحات داميات من القتال وضعت الحرب أوزارها ، وعاد القرشيون إلى مكة ، وفي قلوب أقارب من قتل من أبنائها غُصَصٌ^(١) وإِحْنٌ^(٢) وآلام ، وعاد أبوأحيحة إلى مكة وذهب إلى أملاكه بالظريبة يتلمس في الهدوء والعزلة سكناً لنفسه الحزينة ، فقد قتل في الحرب أكبر أولاده وأعزهم عليه ، وفارقه إلى الأبد ،

(١) غصص جمع غصة وهي ما غصَّ به الإنسان من طعام أو ماء واعترض في حلقة

شئ منه فتمعه النفس .

(٢) إحْن : الأحقاد جمع إحنة .

وذهب ولكن ما هذا الذهاب ؟ ما هو ؟ وما وراء هذا الموت ؟
 واجتمع العرب فى عكاظ . ومضى إليها أبوأحيحة فى أولاده ، وفى
 تلك اللحظة اجتمع العرب على رجل امتطى جملاً أحمر ، هو
 (قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ) وهو يقول : « أيها الناس اجتمعوا . ثم اسمعوا
 وَعُوا . من عاش مات ، ومن مات فات . وكل ما هو آت آت .
 يا معشر إِيَاد ، أين ثمود ، وعاد ! ! وأين الآباء والأجداد ؟ ! وأين
 المعروف الذى لم يشكر ؟ وأين الظلم الذى لم ينكر ؟ ! أقسم قس حقاً
 إن لله لديناً هو أرضى عنده من دينكم » ، ثم أنشد قس :

فى الذَّاهِبِينَ الأولين من القرون لنا بصائر
 لما رأيتُ مواردًا للموت ليس لها مصادر
 ورأيتُ قوميَ نحوها تمضى الأصاغر والأكابر
 لا يَرْجِعُ الماضى إلى ولا من الباقين غابر
 أيقنتُ أَنِّي لا محالَةَ حيث صار القوم صائر

سمعها العرب جميعاً ووعتها قلوبهم ، لكن نسوها جميعاً حين
 طوتهم الحياة بنعيمها ولذائدها ، فهذه الحياة هى المستقر النهائى طالما
 امتلأت بالشهوات ، وهى الوحى الحقيقى طالما سادت فيها النزعات
 البهيمية التى تنطلق ولا ضابط ولا رقيب ، ولكن أباأحيحة سمعها

فذكر ابنه ، وذكر مُضِيَّه نحو هذا الموت ... أخذ يفكر ويفكر ...
ويفكر بعمق ، ثم أنسته الدنيا بنعيمها كل شيء ...

٢

الإنسان ... لا يبقى ولا يستمر ... إنه يمضى على مدرجة الطريق
حيناً من الدهر ثم يخفى . أطوار من الخلائق .. تتظم في الدنيا ثم
يطويها العدم ، إنا نصنع ونبنى ... والإنسان أليس صنعاً وبناءً ؟ فمن
الصانع والبناء ؟ كائنات الوجود ، الحياة كلها تبدو ، ثم تخبو ، أى سر
هذا ؟ وأية مشكلة ؟ الكون والفناء ، الصنع والصانع . أيتها الشمس
المشرقة هل فيك أسرار الوجود ؟ ولكن أنت أيضاً يتحكم فيك قانون
الحياة والموت ، فَتَشْرُقِينَ وَتَغْرُبِينَ ، حياتك وموتك يدوران ، ولكن
سيأتي اليوم الذى تَقْنِينَ فيه ، فَمَوْتِكَ اليومى إعداد لموتك الأخير .
أيتها الأنسام هُبِّى على الجبال والأودية طيبة رقيقة ، واحملى في
ثناياك للناس سر الوجود ... قد طال العهد على جزيرة العرب وهى
غارقة في الحيرة والضلال ... قد طال العهد على النصارى في بيعهم
وهم يعبدون الأَيْقُونَات^(١) والصور ... قد ضلَّ شعبُ بنى إسرائيل

(١) الأيقونات : جمع أيقونة وهى الصورة والمثال يقابلها فى العربية (النصمة) وهى

فغير وبدل ... قد عبد الفرس في شرق الأرض النار والطاغوت .
 أيتها الأنسام هُبِّي على الوجود رحمة وضياء ، ونحطِّي للإنسان
 طريق الخالدين ... ولوبعد هذه الحياة ! ... أى تفسير للإنسانية إذا
 كان منتهاها الموت ؟ ! وأى أمل للإنسان في الإنسان إذا كان منتهاه
 الفناء بعد أعوام قصار ؟ فلتكن إذن بدونك أيتها الأنسام مأساة نرسمها
 على مسرح الوجود نصور فيها آلامنا ، فإنها ليست إلا آلاماً فحسب ،
 وتلك المأساة أملنا في وسط تلك الآلام . إنا نرى فيها بوُسنا فنسكن
 إليه ، ونعهد فيه قصر الحياة ... وأى شيء يسرى عن النفس آلامها
 أكثر من تصورها لتلك الآلام وتحليلها ... إيه أيتها الأنسام مرّى بنا ،
 وابعثي بترياقك ^(١) الشافي ... وسكنت كائنات الحياة ... في ظلمات
 ليل أَدْلَجَتْ ظلماته ، وانتشرت سُجُفُه ^(٢) . لقد مرت الأنسام ،
 أنسام الوحي من أعلى السماء إلى جبال « فاران » ^(٣) حيث كان هناك
 رجل ينتظر ، يتنظر طويلاً ، فست قلبه واستكنت فيه ، ثم نقشت
 على صدره سر الوجود ، وسر المات ، وسمعت قريش صوت محمد من

(١) ترياق : دواء .

(٢) سُجُفُه : ظلمته .

(٣) جبال « فاران » : هي جبال مكة .

على الصفا يناديها ويدعوها : إني أنا محمد بن عبد الله ، رسول الله وعبده ، أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد ، أحمل إليكم من بديع الأرض والسموات مصايركم وغاياتكم ، وأقدم لكم من لدنّه غاية تلك المعالم ونهايتها ، وما استمع إليه إلا امرأة وفقى .
أما الآخرون الذين تَلَمَّسُوا سر الوجود فقد ولوا مدبرين لما جاءهم .

٣

الأصنام تنتشر هنا وهناك في رحبة البيت العتيق ... ولكنها تبدو اليوم باهتة ساهمة عليها قُترة^(١) مرعبة .. قد خال القرشيون هذا حين دخلوا بيت الله ... وطالعتهم وجوه تلك الأصنام ... وكانت تشبه وجوههم في هذا اليوم . إن قُترة وسهوماً يعلوها ، حيرة ترتسم عليها وتَسِمُها بميسمها^(٢) ... واجتمعت قريش تنظر في هذا الحدث الأعظم الذي نزل بساحتها ... قد كشف محمد بن عبد الله غرورهم وضلالهم ، ولكنهم تمسكوا بهذا الضلال وهذا الغرور ... قد أبان لهم أن هذه

(١) قُترة : غبار والجمع قُتَر .

(٢) تسمها بميسمها : تميزها بعلامة .

الأصنام لن تغنى عنهم من الله شيئاً ، ولكنهم تعلقوا بها . ففي ضياعها ضياع سلطانهم وملكتهم ، وكان أكثرهم عداوة لرسول الله « سعيد بن العاص » ، كان يفكر كيف يُضِلُّ محمد بن عبد الله - وهو في أعلى الذرى من قريش - قريشاً عن آلهتها ؟ كيف ينكر اللات والعزى ؟ وكيف يسلبها هذا الملك الذى لهما ؟ واصباح قريش إن نجح فى دعوته ! ثم إنه يحدثهم عن مصابريهم عما بعد الحياة من حياة ، وما فى تلك الحياة من عذاب لمن طغى وبغى ، وما فى تلك الحياة من ثواب لمن اتقى وعمل صالحاً ، وحياتهم كلها طغيان وإرهاب ، أبداً إنهم لن يؤمنوا برسالته ، ولتكن أنت يا أبا أحيحة شراً مستطيراً عليه ...

وتدور الأيام ومحمد رسول الله يدعو فى منعة من قومه بنى عبد مناف ، يسفه آلهتهم ويسخر من دينهم ، وأبو أحيحة سعيد بن العاص دائب على عدوانه ... وعاد يوماً إلى بيته والعص أولاده فوجدهم جميعاً ما عدا أكبر أولاده خالد بن سعيد ، فسأل عنه ، فلم يجب إخوته .

٤

إيه ^(١) يا رسالة الله ! ... أى قلوب تفتحت إليك ؟ وأى عقول
 آمنت بك ؟ ! أنت الحقيقة التى خفيت عن الناس آماداً طويلاً ... إيه
 يا رسالة الله ! أى عقبات تعترض طريقك ، وأنت تكنسين من الدنيا
 أقذارها ، لتعود إلى فطرتها الأولى التى فطر الله ؟ .. إيه يا رسالة
 الله ! حدثني من آمن بك فى فجر عهدك وأنت تحملين للبشرية جوهر
 البشرية .

وفى شِعْبٍ من شعاب جبل مكة انتظمت صلاة أبدية يقوم بها
 النبی الأعظم ، وقد وقف وراءه امرأة وفقى ...
 أما المرأة فكانت خديجة بنت خُوَيْلِد .
 وأما الفتى فكان على بن أبى طالب .
 وهذا هو المجتمع الإسلامى الذى أشرق عليه النور ، والدنيا كلها
 فى ظلام ، والذى تفجرت عليه ينابيع الحق ، والباطل يسود الكون
 كله .

إنهم صور الجلال الذى لا ينقضى ، ومثال الجمال الحق الذى

(١) إيه : اسم فعل للاستزادة من حديث أو فعل .

لا يزول ، إليه تقبل الإنسانية حين يظلم عليها الكون ... وإليه يُهرع
الظالمون يَرْتَوُونَ من نوره . !

إنه المجتمع الخالد ... الذى تشرق خَلَسَات النور على الناس منه
فينعمون بها ، ويمرحون فى رحابها . إنه المجتمع الإنسانى الخالد الذى
أضاء نوره أوديةَ جزيرة العرب ، ثم أضاء العالم بأجمعه ، فأسعد
الأشقياء ، ومحا بؤس البائسين . إنه المجتمع الإنسانى الذى أطل الله
عليه وظلّله ملائكته ، إنه استعان بقوة الله على قوة البشر ، واستعان
البشر بقوتهم عليه . فماذا كان ؟ ... ندع التاريخ يَقُص .

قد آمن أبو بكر بن أبى قحافة - تاجر قريش وعالم أنسابها ، وتسامع
القرشيون ، فكأن النار الموقدة تحرق أفئدتهم إحراقاً ، فازداد المجتمع
الإسلامى الأول عضواً .. فتكون المجتمع من سيد الأكوان وانتظم
وراءه .

امرأة ،

وفقى ،

ورجل .

واحتمل هذا الرجل من آلام قريش وعدوانها ما لم يتصوره عقل ،
ولكنه آمن ، ولقد فهم منذ أول يوم أن الإيمان بذل وفداء ، فَبَذَلَ

وفدى .. فَحَطَّ لنفسه صحائف الخلود الباقيات . وآمن زيد بن حارثة
 مولى رسول الله ، فزاد المجتمع فرداً آخر - كتب الله له بعدُ الإمارة على
 جيش المسلمين - ثم آمن رجل ثالث هو « خالد بن سعيد بن العاص »
 فوامصية قريش إن علمت ! قد آمن ابن أبي أحيحة
 سيد بنى عبد شمس - كيف آمن وأسلم ؟ ! ... فلندع التاريخ يقص .
 كان أبو أحيحة أشد الناس على المسلمين ، وقد جمع أولاده يوماً
 وسار إلى المسجد ، وفي المسجد سمع خالد بن سعيد أخبار
 محمد بن عبد الله ودعوته ، فأصاخ بقلبه واستمع ، ثم عاد مع أبيه إلى
 بيته . ونام أولاد أبي أحيحة جميعاً ما عدا قلباً واحداً ، كان يفكر في
 هذا الليل البهيم ، ويطيل التفكير ، ويرى عداوة قريش لمحمد ﷺ
 وتأليب أبيه عليه ، ويرى تسفيه محمد لهذه الأصنام التي لا تضر
 ولا تنفع . يا لها من حيرة تأخذ عليه كل مأخذ ! ويغمض
 الكرى^(١) أحفانه أخيراً ... ولكنه يشعر أنه مازال مستيقظاً ، ويرى أنه
 واقف على شفير^(٢) نار لا حدود لها ولا آفاق ، ويرى أباه يدفعه إليها ،
 لكن ما لبث أن أخذ رجل بحقوقه^(٣) فلا يقع فيها ، أما هذا الرجل

(١) الكرى : النوم . (٢) شفير : حافة .

(٣) حقّويه : مثنى حقّ والجمع حقاء وأحق وأحقاء وحق وهو : الحق أو الإزار لأنه
 يشد على الحقو .

فكان سيد بقی عبد مناف «محمدًا رسول الله» ! وقام خالد فرعاً يصيح : أحلف بالله إن هذه الرؤيا حق ، ثم يخرج هائماً ، وتشاء إرادة الله أن يقابل أبا بكر ، فيخبره بشكوك نفسه ، وبما رآه في نومه ؛ فيقول له أبو بكر : أريد بك خيراً ، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه ؛ فإنك ستبته وتدخل معه في الإسلام الذي يحجزك من أن تقع فيها ، وأبوك واقع فيها .

ويسرع خالد إلى رسول الله بأجساد ، ويقول له : يا محمد إلام تدعو ؟ .

- إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يدرى من عبده ممن لم يعبد .

- فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

ولكم كان فرح رسول الله بإسلامه شديداً ! وعلمت قريش ، ومر ذو التاج في حلقاتها فلم يجرؤ أحد على إخباره ... فسأل أولاده عنه ، وألح في السؤال . وأخيراً علم أبو أحيحة أن خالدًا قد أسلم ، فأظلمت الدنيا في عينيهِ .. وكان هناك في شعاب من الجبل سيد الأكوان ووراءه :

امرأة ،

وفى ،

ورجال ثلاثة : أبو بكر وزيد وخالد .

هذا هو المجتمع الإسلامى الأول الذى فاض على الدنيا جلالاً
وحقاً .

٥

(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) ^(١) .

أسلم خالد وآمن ... كاد أبو أحيحة يفقد رشده .. ثم صاح
بأولاده ، فوقفوا صامتين : « إلى بخالد » . فذهب أولاده فى طلبه ،
ومعهم مولى أبى أحيحة رافع ... وفى شباب الجبل كان المجتمع
الإسلامى العظيم منتظماً ، وسكت الإخوة حتى أتم الرسول وصحبه
صلاتهم ، فنادوا أخاهم وأخبروه بأن أباه يريد رؤيته ، فاستأذن خالد
رسول الله ، وسار معهم . ووقف أبو أحيحة كالوحش الكاسر يزمرجر
ويُرعد ، ينهر سيل شتائه ، ثم يهجم على ولده بمقرعة فى يده ،

(١) سورة الرعد ٢٣ ، ٢٤ .

فيشج رأسه منكراً . وخالد هادئ ودمه ينهمر . وأخيراً سأله الرجل :
 اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه قومه ، وما جاء به من عيب ألهمهم ،
 وعيب من مضى من آبائهم .

- فقد صدق والله واتبعته .

فصاح فيه أبوأحيحة : اذهب يا لكع حيث شئت ، فوالله
 لأمنعك القوت .

- إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به .

فطلب من أولاده أن يُخرجوه فأخرجوه ، ثم قال لهم : لا يكلمه
 أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به .

وانصرف الشريف القرشي إلى رسول الله آمناً مطمئناً ، وإنه ليعلم
 أنه ليس له من المال إلا مال أبيه ، ولا من موارد العيش إلا أملاك
 أبي أحيحة . فماذا يفعل الشريف المترف ؟ لن يفعل إلا ما يقدره الله .
 وليحدث له ما شاء الله أن يحدثه ، وليصبر المؤمنون . والترم خالد
 رسول الله يسير معه حيث سار ، ويلتمس منه القوة على الخلق
 أجمعين ، يمضي معه حيث يمضي ويقيم معه حيث يقيم . قد امتلأ قلبه
 بالجلال ، فهام به ولم يعد في قلبه موضع لحياة أولعش .

وأحس أبوأحيحة أن ابنه ما زال يحيا ويعيش ، فدعا أولاده

ومواليه وطلب إليهم أن يأتوا به ، فأتوا به .. فحبسه الأيام الطوال فلم يَهْنُ ، فنع عنه الطعام والماء ثلاثاً فلم يهن ، فوضعه في حرمكة ثلاثاً ما يذوق ماء فلم يهن ، فأعادته إلى الحبس ، ولكن خالداً تلمس السبيل حتى خرج واختفى في نواحي مكة . وأذن رسول الله لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر في الهجرة الثانية ، فخرج مع زوجه إلى الحبشة .

٦

علم « ذو التاج » بهجرة ولده ... وكم غاظه أن يقف خالد في وجه كبريائه ! تلك الكبرياء التي لم تذلل قط - أذلها خالد بإيمانه - وكم كان يشعر أنه ضئيل بجانب هذا العزم الخارق . ولكنه لم يكن يعلم أن خالداً العنس من موطن النبوة من القوة ما تترزل به الجبال ولا يتزلزل . شعر أبو أحيحة بانتصار ابنه عليه .. انتصار ابنه عليه في كل مواقفه معه ، انتصر عليه يوم منعه المال والحياة فلم يآبه ^(١) ، وانتصر عليه يوم حبسه ، وانتصر عليه يوم أجاعه فلم يآبه ، والنصر لا يكون مادياً فحسب ، قد يكون من النصر المعنوي ما يزلزل أشد

(١) لم يآبه : لم يهتم .

الناس طغياناً . أحسن أبو أحيحة بكل هذه المعاني ، فقال : لأعترلن في مالى . لا أسمع شتم آبائى ، ولا عيب آلهتى ، وهو أحب إلى من القيام مع هؤلاء الصُّبَاة^(١) ، ثم هاجر من مكة إلى ماله بضاحية له هى « الظريبة » ، قريباً من الطائف ... وكان فى بيت أبى أحيحة قلب آخر يفكر . هو قلب عمرو بن سعيد ، سمع بدعوة محمد رسول الله ، ورأى إيمان أخيه بها ، وثباته عليها ، وتحمله أقصى الآلام فى سبيلها ، فلم يهن ولم يجزع . رأى عمرو هذا كله ففكر فى دعوة رسول الله فوجد فيها الحق الأبلج . كم كان عمرو يعطف على أخيه من ناحية وعلى دعوة الإسلام من ناحية ، طالما مد يده إلى أخيه ، وطالما منع عن المسلمين الأذى ، ولكن كل هذا لن يحدى شيئاً ، لا بد من الإيمان بهذه الدعوة مهما كلفه هذا من ثمن ، إنه ليعلم أن أباه يحبه الحب كله ويؤثره بهذا الحب من دون إخوته حتى إنه ليقول :

ألا ليت شعرى عنك يا عمرو سائلا

إذا شب واشتدت يداه وسلما

أنترك أمر القوم فيه بلا بلا

وتكشف غيظاً كان فى الصدر موجما

(١) الصبابة جمع صابئ وهو الخارج عن دينه .

يعلم عمرو كل هذا ، ولكن دعوة الله أحب من كل شيء : من الأب والأم والعشيرة والولد . فما خرج أبو أحيحة إلى ماله بالظربة حتى أعلن عمرو إسلامه ، ولحق بخالد في أرض الحبشة مهاجراً في سبيل الله ورسوله ، وتلمس أبو أحيحة أبناءه مرة أخرى وسأل عن عمرو . وأخيراً ... أخبروه أنه أسلم وهاجر إلى الحبشة ، ففرض الرجل مدة طويلة قال في خلالها : لئن رفعني الله من مرضى هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة ببطن مكة . ويعلم خالد بن سعيد بهذا من مهاجر حضر إلى الحبشة - يعلم خالد بن سعيد هذا فيتوجه نحو ربه قائلاً : اللهم لا ترفعه ، واستجاب الله الدعاء ، فأ مات أبو أحيحة ومضى إلى جهنم خالداً فيها .

٧

مات أبو أحيحة سيد قومه ، فَخَلَفَهُ في مكان الصدارة منهم أَبَانُ ابن سعيد ، وكان أَبَانُ في حياة أبيه وبعد مماته شراً على المسلمين ، يصل بهم من الأذى مالا يطاق ، وكان إلى جانب هذا يَنْقُثُ ^(١) في إخوته نيران الحقد على المسلمين ، ولكن كان في البيت قلب يفكر .

(١) ينقث : ينشر .

يفكر في دعوة الله ورسالة نبيه . وفي فرصة من الفرص امتلأ القلب ضياء . فر الحكم بن سعيد بن العاص من ديار بني عبد شمس إلى الرسول الأعظم لكي يسلم بين يديه ، ويقول له الرسول : ما اسمك ؟
- الحكم .

- بل أنت عبد الله .

ويدعوه الرسول إلى الهجرة ، فيهاجر عبد الله إلى المدينة . وكان عبد الله يكتب في الجاهلية ، فأمره الرسول أن يعلم أطفال المدينة الكتابة . دأب عبد الله على عمله حتى دعا منادى القتال ، والتحم المسلمون بالقرشيين في بدر ، وكان بين القرشيين المشركين أولاد أبي أحيحة الذين لم يسلموا : أبان والعاص وعبيدة وسعيد .

وتنجلي المعركة عن قتل العاص وعبيدة كافرين ، وتعود قريش منهزمة ، ويعود أبان وفي قلبه من الحقد مالا يتصوره إنسان .

٨

وتسير القافلة شمالاً ، وفيها غير قريش . وعلى رأسها أبان بن سعيد ، وقد خرج تاجراً إلى الشام ، ومرت القافلة ببلاد عدة في فلسطين حتى أناخت بجوار دير منعزل لراهب ترك الحياة الدنيا

وزينتها ، ونامت القافلة جميعها . وهدأت الأصوات في الصحراء ، لكن « أبان » مسهّد واجم لا يدرك لوجومه وسهاده سرّاً . فقام يتمشى بجوار القافلة في الصحراء لعل نسيمها يُسرّي عن نفسه هذا القلق والوجوم ، إن بينه وبين قريش آلاف آلاف الفراسخ . وفي قريش خلانه وعشيرته . آه ! ... ولكن الحبشة البعيدة . وكم يفصلها الآن عنه من أماد ! في الحبشة خالد وعمرو ، وفي المدينة الحكم أو عبد الله كما يدعوهم أصحاب محمد الآن ، تفرقوا في كل مكان ، فيالها من مأساة تحدث الآن في جزيرة العرب ، ومحمد ما أمره ؟ ... إن أصحابه ليلتفنون حوله ويفقدونه بكل شيء ، فاسر هذه القوة الغريبة ؟ ! إنه ليعلم في إخوته العقل والساد ، فهل يعقل أن يتابعوا محمداً لو كان محمد ساحراً أو كاذباً ؟ .. أبداً . ما محمد بساحر ولا كذاب ، وطالما بعث إليه إخوته يدعونه إلى الإسلام . لكن « أبان » ما لبث أن تمالك نفسه حين أحس أنه يسير في طريق الإسلام ، تمالك نفسه وهو الذي نذر حياته بعد أبيه للقضاء عليهم ، فشارك في كل حرب ضدهم . ولكن شعوراً خفياً يدعو ثانياً أن يفكر أن محمداً صادق ، ثم يعاوده تفكيره الوثني ، وفي تلك اللحظة لمح أبان في البيعة الصغيرة المهجورة التي تقع أمامه ضوءاً خافتاً ، وأحس بحركة خفية ضئيلة ، ثم ما لبث

الباب أن فتح ، وخرج منه شيخ وقور ، هو راهب البيعة الصغيرة ، وأخذ الراهب يصلى فى الخلاء ويتململ باكياً . وهنا ساءل أبان نفسه فى دهشة : ألا إن هؤلاء من العلم الشئ الكثير ، ألا يستطيع هذا الرجل المتعبد الذى ترك الدنيا أن يَدُلَّهُ على شئ ؟ صار إليه أبان ، فلم يُرْعَ ولم يَحْفَ من هذا الطارق الغريب ، فقد تعود الرهبان منظر هؤلاء الرحالة العرب ، وحيَّاه أبان . فلما سأله الراهب عن حاجته ، قال : إني رجل من قريش ، وإن رجلاً منا خرج فينا يزعم أنه رسول الله ، أرسله مثل ما أرسل موسى وعيسى ، فانتبه الراهب وحدَّق فى أبان فى عمق ، وقال له : ما اسم صاحبكم ؟ فقال : محمد . قال الراهب : فإني أصفه لك ، وأخذ يذكر صفات النبي صفة صفة ؛ فصاح أبان : هو كذلك .

قال الراهب : والله لَيُظْهَرَنَّ على الأرض ، يا بُنَى اقْرَأ على الرجل الصالح السلام . وبكى ثم عاد إلى صومعته .

وذهب أبان إلى الشام ثم عاد ، وقد تغير فيه كل شئ ، فسأل عن الرسول ، ولم يذكر عنه ما كان يذكره أولاً . وفى تلك اللحظة أقبل المسلمون للدخول مكة حاجين عام الحديبية ، وحدث ما حدث من إرسال عثمان بن عفان رسولا من رسول الله إلى مكة ، فأجاره أبان ،

وحمله على فرسه ، وقال : اسلك من مكة حيث شئت آمناً ، وعاد الرسول من مكة . فلما عاد منها تبعه أبان ، فأسلم وآمن . وأراد الرسول أن يبعث سرية إلى نجد ، فأرسل أميراً لها أبان بن سعيد .

٩

وَأَنَّ^(١) لمهاجرى الحبشة أن يعودوا ، ويعود فيهم ابنا أبي أُحَيَّة :
 خالد وعمرو ، بعد أن قضيا حوالى عشرين عاماً فى مهجرهما ، تحملاً
 فيه ما تحملاً من آلام الغربة وقلة العيش ، وقد قدما على الرسول وهو
 فى خير ، وفى المسلمين أخوهما أبان وعبد الله . وأسهم الرسول لهما .
 وقال خالد : يا رسول الله لم نشهد معك بدرأ ، فقال الرسول :
 « يا خالد ، وما ترضى أن يكون للناس هجرة ولكم هجرتان ؟ » .
 وفى هذه الأثناء ، هاجر سعيد بن سعيد بن العاص إلى المدينة ،
 مهاجراً إلى الله ورسوله ، وبإسلام سعيد أسلم أولاد أبي أُحَيَّة
 جميعاً ، وتمت كلمة ربك الحسنى عليهم ، وانضَووا جميعاً تحت
 اللواء ، لواء رسول الله ، فيادورة القدر ! .
 وخرجوا معه إلى عمرة القضاء ، ثم حين أذن الله لرسوله بالفتح ،

(١) آن : حان .

وسار جيش المسلمين ، كان أولاد أبي أحيحة جميعاً في الكتيبة الخضراء ، كتيبة المهاجرين والأنصار . فلما فتحت مكة استعمل رسول الله سعيدياً على سوق مكة ، فلما خرج رسول الله إلى « حنين » خرج معه أولاد أبي أحيحة ، وأبلاوا أحسن البلاء . وسار الرسول إلى الطائف والتحم المؤمنون هناك مع الكفرة التحاماً هائلاً ، وهناك كتب أولاد أبي أحيحة صفحة من صفحات الفداء ، فقد قتل في الطائف سعيدين بن سعيدي بن العاص .

١٠

وأقام أولاد أبي أحيحة مع رسول الله بالمدينة ، وكان خالد كاتبه وحواريه ، وقد كتب له كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف ، وهو الذي سعى في الصلح بينهم وبين رسول الله ، ثم حضروا مع رسول الله تبوك ورأى رسول الله ﷺ فيهم تلك الصفات النادرة ، فبعث أبان أميراً على البحرين لما عزل منها العلاء بن الحضرمي ، كذلك بعث خالدًا أميراً على اليمن ، كما بعث عمرًا أميراً على تيماء وخيبر . أما عبد الله فبقي في المدينة مع رسول الله ﷺ ، واستمر أولاد أبي أحيحة الثلاثة أمراء لرسول الله حتى رفعه إليه رب السموات .

مات خير البشر صلوات الله وسلامه عليه ، وبكاه المسلمون ، وفي مقدمتهم أولاد أبي أحيحة ، أشد البكاء ، وتركوا إماراتهم وعادوا ، فذهب إليهم أبو بكر وقال : ما لكم رجعتم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله ﷺ ، فأجابوه : نحن - بنى أبي أحيحة - لا نعمل لأحد بعد رسول الله .

واعترلوا بيعة أبي بكر ، وتحلفوا عنها ، وذهبوا إلى عليّ وعثمان وقالوا لهما : أرضيتم يا بنى عبد مناف أن يلى هذا الأمر عليكم غيركم ، إنكم لطوال الشجر طيبو الثمر ، ونحن تبع لكم ، وعلمها أبو بكر فلم يسرها في نفسه وأسرها عمر ، وأقام أولاد أبي أحيحة ثلاثة أشهر فما بايعوا حتى بايع بنو هاشم ، فر أبو بكر على خالد مظهراً ، وهو في داره ، فسلم ، فقال له خالد : أتحب أن أبايعك ؟ ! فقال : أحب أن تدخل في صلح ما دخل فيه المسلمون . قال : موعدك العشية أبايعك ، فجاء وأبو بكر على المنبر فبايعه ، ثم بايعه بنو أبي أحيحة جميعاً .

وكان العرب قد ارتدوا عن الإسلام ، ووقفت المدينة ومكة مدافعة عن دين الله ، وخرج « عبد الله بن العاص » ، وانهمزم المسلمون في اليمامة أول الأمر ، ثم ما لبثوا أن شدوا ، وقاتل المهاجرون والأنصار

أشد القتال ، وفي مقدمتهم عبد الله ، حتى تناولته الرماح ، وخط أولاد أبي أحيحة صفحة أخرى من صفحات الفداء .

١١

انتهت حركة الارتداد . قضى عليها أبو بكر ، وعلى خليفة رسول الله أن ينشر رسالة الإسلام في العالمين . فليبعث إذن المسلمين إلى العراق والشام ، وأخذ يعد الجيشين ، وأخذ يفكر فيمن يختاره أميراً على جيش الشام ، فلم ير خيراً من خالد بن سعيد ، إن أبا بكر ليدرك أن الرجل ما تخلف عن بيعته إلا لجه لآل بيت النبوة والرسالة ، فعقد له اللواء ، وجاءوا باللواء إلى بيته ، ولكن وزيره عمر لم يكن يغفر لخالد موقفه في بيعة أبي بكر الذي كان يخشى منه تفريق كلمة المسلمين ؛ فذهب إلى أبي بكر وقال له : تولى خالدًا وهو القاتل ما قال ، فلم يزل عمر به حتى أرسل أبو بكر أبا أروى الدوسي ، فقال لخالد : إن خليفة رسول الله ﷺ يقول : اردد علينا لواءنا ، فأخرجه خالد ودفعه إليه ، وقال : والله ماسرتنا ولا يتكم ، ولا ساءنا عزلكم ، وإن المليم لغيرك . وبعد ساعات جاء إليه أبو بكر يعتذر ، ويرجوه ألا يذكر عمر بحرف ، ومازال خالد يترحم على عمر حتى مات ، كانوا جميعاً طلاب حق

وهدى ، ولما عزل أبو بكر خالدًا ولى يزيد بن أبي سفيان جنده ، ودفع إليه لواءه ، كما ولى على جيش آخر شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص ، وبعث أبو بكر إلى خالد يخبره « أى الأمراء أحب إليك ؟ » ، لكى يسير خالدًا تحت لوائه ، فأجابه خالد : ابن عمى (أى عمرو بن العاص) أحب إلى فى قرابته ، وهذا (أى شرحبيل) أحب إلى فى ديني ، فإن هذا أخى فى ديني على عهد رسول الله ﷺ ، وتاصرى على ابن عمى .

فتأثر أبو بكر تأثرًا شديدًا ، فأوصى شرحبيل بن حسنة بقوله : انظر خالد بن سعيد ، فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرفه لك من الحق لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام ، وأن رسول الله ﷺ توفى وهو له وال ، وقد كنت وليته ، ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيرًا فى دينه ، ما أغبط أحدًا بالإمارة ، وقد خيرته فى أمراء الأجناد فاخترارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقى الصالح فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وليكن خالد بن سعيد ثالثًا ، فإنك واجد عندهم نصحاء وخيرًا ، وإياك واستبعاد الرأى عنهم ، أو تطوى عنهم بعض الخبر .

وهكذا سار خالد بن سعيد في جيش المسلمين جندياً بسيطاً ، وفي مرج الأصفر صَفَّت الروم صفوفها ، ثم تقابلوا مع المسلمين ، واستمر القتال ، وخالد بن سعيد يقاتل يميناً وشمالاً ... حتى قتل ، فكتب أولاد أبي أحيحة ثالث صفحات الفداء .

١٢

وخرج عمرو وأبان في جيش عمرو بن العاص ، والتحم المسلمون التحاماً شديداً في أجنادين ، وعمرو وأبان في مقدمة الصفوف حتى استشهدا ، وكتب أولاد أبي أحيحة الصفحات الرابعة والخامسة من صفحات الفداء .

١٣

وآن موعد الحج ، واستدار العام . وسار المسلمون إلى مكة ، وبعد أن أتموا مناسك الحج اجتمعوا حلقات في البيت العتيق ، كل حلقة تردد اسم الله الواحد ، وقد أصبحوا جميعاً في الله إخواناً متحابين ، وتلفت الناس إلى حلقة بنى عبد شمس فلم يروا أولاد أبي أحيحة .. قد خلا منهم وادى الحياة .

وأخذ الناس يتذاكرون صحائف الناس ، فمن الناس من لا تبلى
 صحائفهم ما تبقى أبد الآبدين ، أولئك أولاد أبي أحيحة ، إلا أن
 صحائفهم صحائف جهاد واستشهاد ، أقبلوا على الإسلام والدنيا عنه
 في إدمار ، فجاهدوا وتركوا الدنيا يوم كانت على الإسلام في إقبال ،
 فماتوا واستشهدوا .

ومرّ فتیان بنی عبد شمس على ضاحية أبي أحيحة ، هنا مرّتع
 الأبطال الميامين ، هنا مدرج طفولتهم ، هنا كم ترددت أنفاس
 الخالدين ، وأنصت فتیان بنی عبد شمس !

وهبّ النسيم ندياً ...

وتردد نغم حزين ..

أين هم ؟ ... أين هم ؟ ...

في عيشة راضية ، في جنات عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا

هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ...

وسكن النغم !

سعد بن عبيد عالم الإسلام العظيم

١

ودَوَّى الصوتُ الجميل العذب ، محترقاً السكون الشامل ،
واستمعه الأوس النائمون ، فتقلبوا على فرشهم ، ثم استيقظوا واحداً
بعد واحد يستمعون إلى الترتيل الحنون ... الترتيل الذي يحمل إليهم
آيات الله ، تلك الأنعام الملكوتية التي تقدّس جمال الحق الأعلى .
وأخذ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً حتى ملأ الوادي ، وأصاخ الأوسُ
أسماعهم ، ومضى الصوت يستكنّ في الأعماق ، وأحسوا بسموهم عن
هذه الأرض ، وعن تلك الأجساد ، ولم يعودوا إلا فكرة روحية
خالصة . ونادى هذا الصوت الحنون لصلاة الفجر فنفروا جميعاً ،
والتأموا في صفوف ، ثم طلع عليهم من بيته ، فأدى بهم الصلاة .
ذاك .. هو سعد بن عبيد بن النعمان الأوسي « القارئ » ؛ ولم يكن
من أصحاب رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، من يسمى
القارئ غيره ، وقد عدّته الأوس فخرها الذي تتيه به على الناس ،

ونيزيد في هذا الفخر ما تقصّنه علينا السير من « أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول » ، وقد أقره الرسول على الإمامة في مسجد قباء ، ثم أقره أبو بكر بعد الرسول ، وعمر بعد أبي بكر . ولم يقصر عالم الإسلام العظيم في الدفاع الإيجابي المسلح ، فخرج إلى بدر وإلى أحد ، وقاتل فيها أعنف قتال ، ثم لم يقف مشهد من المشاهد مع رسول الله ، ولم يقعد عن حرب المرتدين في عهد أبي بكر ، بل شارك فيها كلها .

ولكم كان المسلمون يخشون أن يصيب « عالم الأوس » في تلك الحروب الموت ، فينتهى من لم تر له الدنيا مثيلاً ، ولكن ما كان لحامل القرآن أن يخشى الموت في موضع من المواضع ، وما كان له أن يكون مع القاعد .

٢

وتمت كلمة ربك الحسنى على جزيرة العرب ، ودانت بالإسلام جميع أراضيها ، ثم مضت جيوشهم محتاجة الأرض التي وعدهم الله - أرض كسرى وقيصر - وخرج سعد بن عبيد القارئ في جيوش العراق ، يبصر المسلمين بأمور دينهم ، ويحكم في أقضيتهم ، فإذا

ما جَنَّ الليل ، عاد إلى قرآنه ، وإذا ما أقبل النهار استلَّ سيفه وشارك في الضرب والطعان ، ومضى المسلمون من نصر إلى نصر ، حتى هذا اليوم المشنوم ، يوم الجسر الرهيب ، على ماء دجلة ، حيث قطع أحد المسلمين خطأ هذا الجسر وسقط المسلمون أفواجا ، وفر منهم من فر ، وقتل قائدهم أبو عبيدة الثقفي ، وكان من بين الفارين الذين أفرعهم هول القتال سعد بن عبيد القارئ « عالم الأوس » الذي ما وهن قط في دين الله يوماً من الأيام ، وما تأخر عن وَقْعَةِ قَطْ من المواقع
فيا حسرة السماء على الأرض .

٣

(لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۖ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ) (١) .

النفس اللوامة ... آه من تلك القوة الآمرة المسيطرة التي تشتعل في أعماقنا ، وتسيطر على كياناتنا ، تفتش عن خطيئاتنا ، ثم تُحَاسِبُنَا عليها أعسر حساب وأعنفه ، فَتُحِيلُ أَمَاسِينَا جَحِيمًا لَا يُطَاق ، وأيامنا عذاباً عنيفاً مراً .

آه من هذا الهاتف الداخلى الذى يُقلِّق المضاجع ، ويذهب الرقاد ، ويترك الإنسان فريسةً لأشد اللوم ، فيمضى الليالى ساهراً ، ويتملكه الإرهاق ، فيسلب منه بهاء الحياة ونضارتها .

آه من هذا الصوت المعنوى الذى يسيطر على ماديات الإنسان ، فيسلبها الحركة ويدفعها إلى الخمود ، ويبعث فيها قتامة وسكوناً .
كم استمع إلى هذا كله سعد القارئ الهائم فى تلك الصحارى الممتدة الواسعة ، فلا يجد ظلاً من ظلال الهدوء تركز إليه تلك النفس الأبية الكبيرة ، يستمع إلى تلك الآيات البينات التى تحدثه عن تلك النفس ، فيفكر ويلج فى التفكير .

٤

وتقابل الرجلان أخيراً عمر بن الخطاب وسعد القارئ ، وفى وجه أولهما علام العتاب أن هرب من ميته الحق ، وفى وجه ثانيهما سمات الأحزان أن ضل مبادئ قدسية طالما علمها أهل الأرض الضالين .. ولم ينس أحدهما بينت شفة^(١) .

ثم تقابلا مرة أخرى ، وكان الخليفة وقتئذ يوجه جيشاً إلى الشام ،

(١) لم ينس أحدهما بينت شفة : أى لم تتحرك شفاته بشئ .

فقال لسعد : « هل لك في الشام ؟ فإن المسلمين قد نزفوا ^(١) به ، وإن العدو قد ذثروا عليهم ، ولعلك تغسل عنك الهُنيّة ^(٢) ! ولكن سعداً لا يريد أن يحارب إلا في الأرض التي هرب منها فقال : « لا ، إلى الأرض التي فررت منها والعدو الذين صنعوا بي ما صنعوا » .

وفي هذا دليل على ما كان يعتلج ^(٣) في نفس هذا العالم العظيم من عذاب الضمير . وسار سعد القارئ بعد أيام قليلة في جيش الصحابي العظيم سعد بن أبي وقاص إلى فارس .

٥

كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة المسيحي قد نفر لقتال المسلمين بأمر كسرى ، وفي منطقة الحيرة البيضاء وقف يخطب في جيوشه الجرارة ، حتى جاءه صاحب حرسه عمه إلياس يخبره أن بالباب رسولا من قبل المسلمين . قال له : « أيها الملك ، إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولا » قال : اتنى به .

(١) نزفوا : خرج منهم الدم بكثرة .

(٢) الهُنيّة : الهفوة والخطأ الصغير .

(٣) يعتلج : يخبش ويتحرك ويحس .

ودخل الرسول ، وكان سعد بن عبيد القارئ - فصاح به الحجاب : « الأرض للملك » ، ولكن سعداً لم يلتفت إليهم ، بل سار مرفوع الرأس وسط الحرس ، ثم قال بصوت جهورى : « إن الله أمرنا ألا يسجد بعضنا لبعض ، ولعمري إن هذه كانت العادة المعروفة فى الجاهلية قبل أن يبعث الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، فلما بعث جعل تحيته السلام ، وكذا كانت تحية الأنبياء من قبل . والسلام من أسماء الله تعالى ، وأما تحيتكم هذه فهى تحية جبابرة الملوك » . فقال النعمان : « لسنا من الجبابرة ، بل نحن أجلّ منكم ، لأنكم توحيدون فى دينكم ، وتقولون إن الله واحد ، وتجددون ولده عيسى ابن مريم » . فقال سعد : أخبرنى عن عيسى بن مريم أكانت القدرة فيه حالة أم ربانية ؟ وقامت بينهما مناقشة طويلة ، فأعجب النعمان لكلام سعد إعجاباً شديداً ، ولكن عظمة الملك حالت بينه وبين الإسلام فقال له : وَيَح قومك ! ما الذى جئت لأجله ؟ قال : « إن الأمير سعد بن أبى وقاص وجهنى إليك ، إذ أنت من العرب ، ويصل إلينا ما يقضى عليك ، وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ، ولا فريضة يتبعونها ، نحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولكم ما لنا وعليكم ما علينا .

فَإِنْ أُبَيِّمَ فَأَدُّوا الْجِزْيَةَ ، فَإِنْ أُبَيِّمَ مَا دَعَوْنَاكُمْ فَأَنْذَرُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

فضحك النعمان مستهتراً وقال : « حَدَّثْتُكُمْ أَنْفُسَكُمْ الْبَاطِل ! أَظَنَنْتُمْ أَنَّ الْفَرَسَ مِثْلَ الرُّومِ ؟ لَا ... وَحَقَّ الْمَسِيحُ ، إِنْ هَؤُلَاءِ أَثَبَتْ جَنَانًا ، وَأَشَدَّ طَعَانًا ، وَأَوْسَعَ مِيدَانًا ؛ فَلَيْتَ شَعْرَى مِنْ نَفْخٍ فِي مَعَاظِكُمْ ، وَحَسَنَ الْأَمَلِ فِي أَنْفُسِكُمْ حَتَّى جِئْتُمْ مِنْ قَحْطِ الْبِلَادِ تَرُومُونَ مَلِكَ الْأَسَاوِرَةِ ، وَأَخَذَ بِلَادَ الْأَكَاسِرَةِ ، وَدُونَهُ حَرْبٌ تَصْطَفِقُ أَحْرَامَهُ ، وَتَشْبُ ضَرَامَهُ ، وَهَذَا الْمَلِكُ أُرْدَشِيرٌ قَدْ أَنْفَذَ جِيوشَهُ وَعَسَاكِرَهُ وَكَأَنَّكُمْ بِهِمْ وَقَدْ أَقْبَلُوا ، فَيَنَالُونَ مِنْكُمْ مَا يُؤْمَلُونَ ، وَمَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ تَزِيلُونَهُ مِنْ قُلُوبِكُمْ . »

فقال سعد : « يَا نِعْمَانُ ، لَقَدْ تَشَدَّقْتَ بِالْبَاطِلِ ، وَتَفَوَّهْتَ بِكَلَامٍ غَيْرِ عَاقِلٍ ، أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْعَاقِفَةَ لِلْمُتَّقِينَ ، وَاللَّهُ بِكُرْمِهِ يَرْفَعُ عَنَّا الْبَاسَ وَيُظْلِفُنَا بِجَمِيعِ النَّاسِ ، وَقَالَ نَبِيُّهِ ﷺ : (سَتَفْتَحُ عَلَى أُمَّتِي كَنْزُ كَسْرَى وَقَيْصَر) ، فَأَمَّا كَنْزُ قَيْصَرَ فَقَدْ فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا ، وَقَدْ بَقِيَتْ كَنْزُ صَاحِبِكَ . »

فقال النعمان : « مِنْ أَيْنَ كَانَ لَصَاحِبِكَ الْعِلْمُ وَمِنْ أَيْنَ وَرِثَهُ ؟ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّهُ كَانَ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ ! » .

فقال : « قد بَصَّرَهُ اللهُ بِالْعِلْمِ فِي الْقَدَمِ ، وَعَلِمَهُ مَا كَتَبَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ بِالْقَلَمِ » .

فلما سمع النعمان ذلك قال : « يا ويح قومك ! إلى قلوس ، فليس عندنا جواب إلا السيف » .

فركب سعد وعاد فأخبر ابن أبي وقاص ذلك ، ورتب سعد بن أبي وقاص جيشه ، وجعل سعداً القارئ قائدًا لليمين ، وابتدأ القتال بالسيف العنيف ، وما مضى إلا القليل من الزمن حتى انهزم ملك الحيرة ، وقتل ، وفرت جيوشه .

٦

وكانت القادسية وأيامها العنيفة ، وصبر الجيشان ليلتين . وفي الليلة الثانية وقف سعد بن عبيد القارئ يخطب في المسلمين ، واجتمع المسلمون على صاحب رسول الله فقال : « إنا ملاقو العدو غدًا ، وإنا مستشهدون ، فلا يغسلن عنا دم ولا نكفن إلا في ثوب كان علينا » . وفي الليلة الثالثة ، ليلة المهزيم المشهورة ، انتصر المسلمون الانتصار الحاسم في تاريخ العالم كله .

ولكن دفعوا ثمن هذا النصر سعداً القارئ وغيره من أعظم المسلمين الشهداء .

شهداء الجمامة

« يا أرض الجمامة .. كم نام في أعماقك من حملة القرآن ، حملة الكتاب الأزلى ، كم رددوا آياته الغر البيّنات ، فحملتها الأنسام صاعدة إلى السموات العلا ، واستمعت الملائكة من عوالمها الأخرى إلى ترتيلاتهم العذاب ، وخشعت الكائنات لأبجادهم التورانية ، ثم ناموا فيك - يا أرض الجمامة - شهداء » !

١

الفارسان

فارسان .. مهاجر وأنصارى .. « عكاشة بن محصن » من بني غنم ابن دودان من قريش ، فتي من أجمل الفتيان ، وأكثرهم أناقة وظرفاً ، وفارس لم تعرف له قريش مثيلاً ...

هاجر عكاشة إلى المدينة ، وحضر المواقع كلها مع رسول الله ، بدرأً وأحدأً وغيرهما ، لم يتخلف عن واحدة منها ، وما أكثر ما شهدت صحارى العرب ، صولة فارس قريش يحطم الشرك في كل

مكان ، وبعثه النبي إلى « الغمر » على رأس فرقة مكونة من أربعين رجلاً ، فهاجم المكان ، ففر أهله ، فاستولى عليه عكاشة .

هكذا كانت حياة فارس قریش في عهد النبي ﷺ .

« ثابت بن أقرم » الأنصاري ، وأحد أنجاد العرب الممتازين ، وفارس يثرب العظيم ، حارب في جميع المواطن ، وقاتل أشد قتال . ارتدت العرب عن دين الله ، واستنفر الخليفة هؤلاء الذين آمنوا وثبتوا كالجبال على دينهم .

وخرج خالد بن الوليد لقتال طليحة بن خويلد الأسدي ، وخرج معه الفارسان عكاشة بن محصن ، وثابت بن أقرم ؛ الأول على فرس يقال لها (الرّزام) ، والثاني على فرس يقال لها (المحبر) . وقد أرسلها خالد يستطلعان له الأخبار ، فتقاتلا مع طليحة وأخيه سلمة ، وكانا أيضاً طليعة المشركين .

وقد عاجل سلمة المشرك الفارس العظيم ثابت بن أقرم فقتله ، ولكن عكاشة سرعان ما استعاد جأشه أمام هذه المفاجأة غير المنتظرة ، وهاجم طليحة هجوماً عنيفاً حتى همّ بقتله ، فصاح طليحة بأخيه : أَعِنِّي على الرجل ، فإنه قاتلي ، فكرّ سلمة على عكاشة وقتلاه جميعاً ، ثم رجعا إلى من وراءهما من الناس ، فأخبراهم ، فسر عيينة بن

حصن ، وقال : هذا الظفر .

وأقبل خالد بن الوليد ومعه المسلمون فإذا ثابت بن أقرم قتيل تَطَّوَّه المَطَى ، فعظم الأمر عليهم ، ثم لم يسيروا إلا يسيراً حتى وجدوا عكاشة ، وطلع خالد بعد قليل ، فأمر أن يحفر لها ، ودفنوها بالثياب .
وناما في أرض اليمامة ... في سبيل الدين الذي اعتنقاه ، ووهبا له كل شيء .

٢

زيد بن الخطاب

نشأ زيد مع أخيه عمر أحسن نشأة وأقومها ! ولكن زيداً كان أرق قلباً ، وكان مع ذلك أَسَنَّ من أخيه العظيم ، وكان رجلاً طويلاً بائناً الطول أسمر . وقد أسلم زيد قبل عمر ، وهاجر زيد إلى المدينة ، وآخى الرسول بينه وبين مَعْن بن عَدِيٍّ بن عجلان الأنصاري ، وشارك في بدر أعظم المشاركة ، ورآه عمر في بدر لا يلبس درعاً ، فخلع درعه وقال له : أقسمت عليك إلا لبست درعي ، فأخذها زيد ولبسها ، ثم نزعها فقال له عمر : « ما بالك ؟ » .

- إني أريد بنفسى ما تريد بنفسك .

وتلك صورة من أعظم صور الإيثار... وخرج زيد في كل قتال .
 وفي الإمامة ، في قتال بنى حنيفة ، ارتفع اللواء ، اللواء الأعظم ،
 وقد كاد المسلمون أن ينهزموا حتى غلبت بنو حنيفة المسلمين أول الأمر ،
 ولكن زيدا أخذ يُجالد ويستبسل ، ثم قتل الكثيرين ، وقتل الرجال
 ابن عصفوة ، وكان الرجال قد أسلم وهاجر وقرأ القرآن ، ثم سار إلى
 مسيلمة مرتداً ، وأخبر بنى حنيفة أنه سمع النبی يقول إن مسيلمة شريك
 معه في الرسالة ، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة ، قتله زيد شرقتل ،
 ثم رأى زيد هزيمة المسلمين .

فحمل راية الحق المبين وهو يقول : أما الرجال فلا رجال ، ثم
 صاح بأعلى صوته : « اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي ، وأبرأ
 إليك مما جاء به مسيلمة والحكم بن الطفيل » .
 وحمل العلم خفاقاً ، وهو يتقدم في سرعة نحو العدو ، وهو يضرب
 بسيفه يميناً وشمالاً حتى قتل .

وصل الخبر إلى المدينة ، وعلم عمر فحزن أشد الحزن وقال :
 « رحم الله زيدا ، سبقني إلى الحسين ، أسلم قبلي ، واستشهد
 قبلي » .

وما زال عمر العظيم يذكر أخاه في حزن دونه أى حزن ، وكثيراً ما كان يردد : « إن الصَّبَا لتهب فتأتيني بريح زيد بن الخطاب » .
وقد انتصر المسلمون بعد ذلك ، وأسلم من بقى من بنى حنيفة ، وجاء قاتل زيد أبو مرزم الحنفى لمقابلة عمر ، فقال له عمر : أقتلت زيد بن الخطاب ؟

- أكرمه الله بىدى ، ولم يُهِنِّ بیده .
- كم ترى المسلمين قتلوا منكم يومئذ !
- ألفاً وأربعمائة ، يزيدون قليلاً .
- بشس القتل .
- الحمد لله الذى أبقانى حتى رجعت إلى الدين الذى رضى لنبیه عليه الصلاة والسلام وللمسلمين .

ويقابل عمر متمم بن نويرة ، وكان قد قتل أخوه مالك بن نويرة مشركاً فيقول له عمر : ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن ؟
- كانت عيني هذه قد ذهبت - وأشار إلى عينه - فبكيت بالصحيحة فأكثر البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع .
فقال عمر : إن هذا الحزن شديد ... ما يحزن هكذا أحد على هالكه .

وصمت عمر قليلاً ثم قال : « يرحم الله زيد بن الخطاب ، إني لأحسب أني لو كنت أقدر على قول الشعر لبكيتك كما بكيت أخاك » . فقال متمم : « يا أمير المؤمنين لو قتل أخى يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيتك أبداً » . فتعزى عمر حينئذ وكف عن الحزن والجزع على أخيه .

٣

فَعَنْ بَنِي عَدِيٍّ

أحد سادة يثرب ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار . وكان يكتب بالعربية قبل الإسلام ، وكان هذا دليلاً على الشرف العالى بين قبائل العرب . لم يفارق الرسول فى حروبه ، وقد آخى بينه وبين زيد ابن الخطاب حتى فنيا فى صداقتهما وحبهما .

ومات الرسول ، وبكاه الناس ، وكانوا يقولون : والله لو ددنا أن ميتاً قبله ، نخشى أن نفتن بعده ... فقال معن : « إني والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقَه ميتاً كما صدقته حيّاً ! » .

واجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يجعلوا الخليفة من بينهم . وأسرع أبو بكر وعمر يريدانهم ، فقابلهما « معن » وقال لهما : « لا عليكم ألا تقروهم ، واقضوا أمركم » . أى طلب منهما

ألا يصطدما بالأنصار . وأن يرتبا أمرهما مع بقية المهاجرين حتى لا يحدث صدام إطلاقاً .

وفي الإمامة ، شهد معن مقتل صديقه زيد ، وهو يصيح طالباً من المسلمين الثبات . وثبت معن حتى قتل . ونام مع صديقه نومتهما الأبدية .

٤

سالم مؤلى أبى حذيفة

اختلف في اسمه ، فيقال له سالم بن عتبة بن ربيعة ، ويقال له سالم ابن معقل . وقد اختلف في أهله . ويبدو أنه من أهل إصطخر . فهو على هذا فارسي . ولم يعد أنصارياً من ناحية أنه عتيق « لثبته » بنت نصار الأنصارية من بنى عبيد ، ويذكر في المهاجرين لمولاته لأبى حذيفة . ومن المحتمل أن يكون هذا الاختلاف في نسبه ناشئاً عن زواج « ثبته » بأبى حذيفة ، فلم يُعرف مؤلى أيهما ، ومهما كان الأمر فقد كان يسمى سالم بن أبى حذيفة ، وأحياناً كان يطلق عليه « سالم بن الصالحين » وقد تزوج من « فاطمة » بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة . هاجر سالم إلى المدينة ، واجتمع المهاجرون بقاء ، ونودي

للصلاة ، وكان في المسلمين يومئذ سادة المهاجرين عمر وأبو سلمة وغيرهما ؛ ولم يتقدم أحد للإمامة . ولكن سالماً تقدم وصلى بكبار الصحابة إماماً .

وكان النبي يقول : « خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ » وكان سالم أحدهم ، وكان صوته جميلاً ، وقال له النبي : « الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك » .

• • •

وفي يوم اليمامة انكشف المسلمون ، وتقدم زيد بن الخطاب براءة المسلمين ، ثم قتل ، وسقط اللواء ، فحملة سالم ، فقال له المسلمون : يا سالم إنا نخاف أن نُؤْتَى مِنْ قَيْلِكَ . فقال : بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا ، إِنْ أُوتِيتُمْ مِنْ قَيْلٍ ! واستمات في القتال ، وفي يده راية المهاجرين ثم قال : « ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله » فحفر لنفسه حفرة كخندق ، وقام فيها يقاتل .

وقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت يساره ، فأعْتَقَ اللواء وهو يقول :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ

قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ^(١) . حتى سقط . فلما صرع قال لأصحابه :
 « ما فعل أبو حذيفة ؟ » قيل له : قُتِلَ . وسأل عن صحابي آخر ، فقيل
 له : إنه قتل ... فطلب من المسلمين أن يُضَجِّعُوهُ بينهما . ونام سالم ،
 حامل القرآن ، بعد أن ضرب للمسلمين أعظم المثل .

* * *

لم ينس عمر العظيم « سالماً » ، فحين أقبلت عليه سَكْرَةُ الموت
 قال : « لو كان سالم حياً ما جعلتها شورى » ، أى كان يُصَلِّرُ عن رأيه
 فيمن يُؤَلِّيه الخلافة .

أى مقام كرم كان لك يا سالم فى الصالحين ! وأى مقام كرم لك
 فى أعماق الجنان !

٥

شُجَاعُ بْنُ وَهَبٍ

« شجاع بن وهب ! من بنى غنم بن دودان ، كان يُكْنَى
 « أبا وهب » وكان نحيفاً طويلاً ، هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ،
 وآخى الرسول بينه وبين أوس بن خولى .

(١) سورة آل عمران ، ١٤٤ - ١٤٦ .

كثيراً ما أمّره الرسول على فرق من المسلمين ، فهاجم المشركين في وقائع كثيرة ، في هوازن وغيرها ، فأصاب من الغنائم أعظمها وبعثه النبي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ، وكانوا بغوطة دمشق فلم يسلم ، وأسلم حاجبه مَرَى ، وبعث إلى النبي مع شجاع يقرئه السلام ، ويخبره أنه على دينه . وشهد شجاع بدرأً وأحدأً والختنق والمشاهد كلها ، كما شهدا أخوه .

وفي اليمامة دافع شجاع دفاع الأبطال ، حتى سقط شهيداً ، كما سقط أيضاً يزيد بن قيس وغيرهما من حملة القرآن وأئمة الصحابة .

* * *

يا أرض اليمامة ؛ كم نام في أعماقك من حملة القرآن ، حملة الكتاب الأزلى ! كم رددوا آياته القرآنيات فحملتها الأنسام صاعدة إلى السموات العلا ! استمعت الملائكة من عوالمها الأخرى إلى ترتيلاتهم العذاب ، وخشعت الكائنات لأبجادهم النورانية ، ثم ناموا فيك - يا أرض اليمامة - شهداء !

شهيد نَهَاوَنْد الأكبر...

« وفي سهلٍ فسيحٍ ممتد ، حيث انتشرت أشجار
مفرعة الأغصان ، وشجيرات الورد والرياحين هنا
وهناك ، نام النعمان بن مُقرن نومته الأبدية ، ونام
معه جنوده الشهداء . فإذا ما أقبل الربيع ،
واخضرت الأغصان ، وتفتحت الأزهار ذات
الأرج ، ومر النسيم من بينها يردد - في جبال
السحر - أنشودة طالما ردها ابن مقرن ، يستمع
إليها رواد الروضة الفيحاء ، أنشودة القوة المنبعثة
غير المحدودة ، التي تحطت المحدود ، فغنت لها
أوجه الحياة ، ثم عافت عيشنا الخائبي ، وهامت
بالخلود ، بغير المحدود الدائم السرمدي ، فهتفت
به على نجاد نهاوند وسهوله فاستجاب النداء ! » .

١

أمير مزينة

دعا الرسول الأعظم إلى هذا الفيض النوراني الذي أتى به ،
فأسرعت إليه أقوام ، وأدبرت أقوام ، وانطوى تحت لوائه ملاً ،

وعاداه ملاً ، وفي ساعة من تلك الساعات العنيفة الجرباء التي مرت برسول الله ، ثار الغبار حول المدينة مؤذناً بنجمس قوى من الفرسان ، وانتظر صحابة رسول الله انجلاء الغبار حتى يتبينوا حقيقة القوم ، وقد اتَّصَوْا سيوفهم انتظاراً للغزاة القادمين ، وأصاخوا السمع ، وأطالوا في الإصاخة حتى يتبين لهم الأمر ، إذ استمعوا إلى أناشيد القادمين ، فإذا هي تكبيرات وتسيحات ، ترتفع في قلب هذه الصحراء الممتدة القائمة حول المدينة من مختلف شعبيها وأوديتها . ولكن مَنْ هؤلاء المستجيون لله ورسوله ، الساعون في السَّحَر نحو فيض النور الذي انشق من ابن عبد الله مبشراً بالحقيقة الخالدة التي تَنَكَّبُهَا الضالون ، وأخفاها المضلون ، تحت ستار من الطلاسم والخرافات ؟ ! من هؤلاء الموقنون بالحق الضاربون تلك السجف الغلاظ التي رَأَتْ (١) على قلوب عبَّاد الشهوات وأَحْلَاس (٢) الزنى ، ورائدى المنكرات ؟ ! من هؤلاء ؟ ! انجلي الغبار أخيراً عن أربعائة فارس .. وفي مقدمتهم فارس تعلقت به الأنظار ، واتجهت إليه العيون ، وهو يسير في وقار العرب ، وقد

(١) رأت : غطت وغشيت .

(٢) أحلاس : جمع حلس وهو الملازم الذي لا يبرح . وأحلاس الزنى الملازمون لهذه الكبيرة لا يزالونها لحبهم إياها .

تغلغلت في مُحَيَّاهُ الجميل آيات الاهتمام والجد ، كان يسير وحوله سبعة من إخوته ، ثم يلتف به بعد ذلك بقية كوكبة الفرسان ، وعرف الصحابة القادمين ، كانوا فرسان مُزَيَّنَة ، وعلى رأسهم أميرهم « النعمان ابن مُقَرَّن بن عائد » ، أسلموا لله جميعاً فخرجوا للرسول مبايعين ، واستمع الكون لهتافهم ولتكبيرهم ، وقد ساروا لكي يشاركوا في بناء صرح الحق الخالد .

آمن فرسان مزينة إذن إيماناً حاراً ، وبايعوا كما أراد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . ولم يكن إلا قليل من الوقت حتى دعاهم إلى الجهاد ، فشاركوا وعلى رأسهم النعمان بن مقرن ، فإذا ما آذن فتح مكة سارت مزينة في طليعة المجاهدين ، يحمل لواءها النعمان ، ومضى رسول الله من نصر إلى نصر ، ومزينة في جنوده .

وتمت كلمة ربك الحسنى على « سيد الخلائق » ، وخيَّره الله بين الخلود في الأرض أولقاء ربه ، فاختر اللقاء ، ومضى إلى السماء ، وبكاه الخالصون من درن الدنيا ، البعيدون عن أوساخها ، الذين صدقوه حياً بكل شيء ، بأرواحهم ومالهم . بكوه ، وقد ظنوا أنه خالد لا يموت ، ولكن ما لبثوا أن سمعوا هذا الصوت الحنون ، صوت ابن أبي قحافة يقرأ : (إنك ميت وإنهم ميتون) ، فأدركوا أن رسول

الله مات حقاً ، فازدادوا بكاء وسكبت عيون أولئك الأبطال الدموع
انسكاباً شديداً وهم يفكرون ، كم من آماذ تفصل بينه وبينهم ؟ !
وكم من آفاق تبعده عنهم ؟ ! وعلا صوت ابن أبي قحافة يخاطبهم
قائلاً : « أيها الناس ؛ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن
كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . وسمعها الصحابة جميعاً ،
فتفكروا جميعاً !

حقاً لقد ذهب رسول الله ، ولكن بقيت دعوة الله ، تلك الدعوة
التي حملها الرسول الأعظم من ربه ، فإذا هم فاعلون بها ؟
حينئذ صاح أبو بكر وكأنه يقرأ قلوب الناس :
(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) ^(١) .

أوصلهم أبو بكر إذن بقوته النفسية الخارقة إلى أدق مشكلة
واجهتها الدعوة الإسلامية ، مشكلة المحافظة عليها والدعوة إليها مشكلة
الثبات ، ومشكلة الارتداد ، أعلمهم أولاً بوفاة الرسول ، ثم أوضح
لهم وجود الدين بعد وفاة صاحب الدين ، ثم بين لهم أن هناك من

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .

سينقلب على الدين ومن سيبقى ، فماذا هم فاعلون ؟ وكأن أبا بكر يقرأ في لوحة القدر : لقد ارتد العرب ، ولم يبق إلا الخُلص الأوفياء ، لم يبق إلا أهل المدينة وأهل مكة ثم القبائل التي تحيط بها وعلى رأسها مزينة ، وبعث أبو بكر بالجيوش إلى المرتدين .

٢

لواء مُزِينَة

لواء مزينة ، يُرْفَرُ مع ألوية المجاهدين المؤمنين ، والنعمان بن مقرن يقودهم من حرب إلى حرب ، حتى كتب الله لدينه النصر ، وسقط من مزينة عدد كبير من الشهداء ، ولم يبق في النهاية في جزيرة العرب مرتد ، ولكن ألم يتكفل الله بأن ينصر هذا الدين كله ؟ إذن فَلْيَسِرْ العرب إلى حرب كسرى وقيصر ... وسارت مزينة في الجيوش الذاهبة إلى بلاد النهرين ، يحمل لواءهم النعمان بن مقرن ... وكتب النعمان بن مقرن وقبيلته في تلك الحروب أصدق آيات التضحية حتى التحم المسلمون بالفرس في القادسية ، وكان للنعمان بن مقرن القِدْحُ المُعَلَّى فيها ، ثم ولَّاه سعد بن أبي وقاص فتح (جنديسابور) ، فسار النعمان بجيش المسلمين ، واشتبك مع الفرس في قتال هائل حتى اقتحم

حصونها حصناً بعد حصن ، ثم سار إلى السوس ، وكان الفرس قد تجمعوا فيها في جيش هائل ، فقاتلهم النعمان ، ثم انتصر عليهم ، واستولى على المدينة ، ثم عاد إلى البصرة ، ولكن ما لبث فيها إلا قليلاً ثم رحل بعدها إلى الكوفة ، وفي الكوفة ولى قيادة الجيوش الزاحفة إلى « كَسْكَر » ، فقادها ، وهزم الفرس ، واستولى عليها ، وولاه الخليفة عمر إمارتها . وعاف النعمان بن مقرن حياة الإمارة الهائلة ، وأراد أن يعود إلى قتال المشركين مجاهداً في سبيل الله ، فأرسل إلى عمر يطلب منه أن يبعثه في أى جيش من جيوش المسلمين كجندى بسيط .

٣

بطل نَهَاوَنْد

انحاز يَزْدَجَرْد كسرى الأعاجم إلى « نَهَاوَنْد » ، بعد تلك الوقائع الدامية التي انتصر فيها المسلمون ... أولئك العرب المبشرون بدين جديد يسوّى فيه الأمر بين الراعى والرعية ، ويقيمون مجتمعاً كله طهارة وعدل وإنحاء . ولم يفهم كسرى ، ولم يفهم الأعاجم هذا أول الأمر ، ولكنهم أيقنوا أن هذا الدين الجديد سيقضى على دينهم وملكهم ، فكان لابد أن يقاتلوه حتى النهاية ، قبل أن يُقَوَّضَ أركان مملكتهم ،

وَيَهْوَىٰ بِهَا إِلَىٰ حَضِيضِ الْمَوْتِ فِدَاعَهُمْ يَزْدَجِرْدُ إِلَىٰ وَاقِعَةِ حَاسِمَةِ يُحْضَبُونَ فِيهَا الْأَرْضَ بِدَمَاءِ الْعَرَبِ الْفَاتِحِينَ حَتَّىٰ يَعُودَ مَلِكُ كَسْرَى ثَانِيَةً ، وَتُعَبَّدُ « النَّارُ الْمُقَدَّسَةُ » الَّتِي أَطْفَأَهَا دِينَ الْعَرَبِ . وَنَفَرَتْ الْأَعَاجِمُ بِكِتَابِ يَزْدَجِرْدَ ، وَأَقْبَلُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ مِنْ فَجَاجِ الْفَرَسِ إِلَىٰ نِهَازِنْدَ حَيْثُ اجْتَمَعُوا عَلَى الْفِيرْزَانَ فِي تِسْعِينَ أَلْفًا وَمِائَةً أَلْفٍ ، وَكُتِبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الْخَبَرِ ، ثُمَّ شَافَهُ بِهِ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : إِنْ أَهْلَ الْكُوفَةِ يَسْتَأْذِنُونَكَ فِي الْإِنْسِيَاكِ وَأَنْ يَبْدُءَ وَهُمْ بِالْشِدَّةِ لِيَكُونَ أَهْيَبَ لَهُمْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ .

وَفَكَرَ عَمْرٌ فِي الْأَمْرِ كَثِيرًا وَأَهْمَهُ ، ثُمَّ رَأَىٰ أَنْ يَجْمَعَ النَّاسَ وَيَسْتَشِيرَهُمْ ، فَقَالَ : « هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ ، وَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُسِيرَ فِيمَنْ قَبْلِي وَمَنْ قَدَرْتُ عَلَيْهِ ، فَأَنْزَلَ مِنْزِلًا وَسْطًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمِصْرَيْنِ ^(١) » ، ثُمَّ اسْتَنْفَرَهُمْ ، وَأَكُونَ لَهُمْ رِدْءًا ^(٢) حَتَّىٰ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَيَقْضَىٰ مَا أَحَبَّ ، فَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَبِيبَتَهُمْ فِي بِلْدَانِهِمْ . وَتَكَلَّمَ الصَّحَابَةُ مُؤَيِّدِينَ كَلَامَ عَمْرِو ، وَلَكِنْ عَلِيًّا لَمْ يَرِ هَذَا الرَّأْيَ ، وَطَلَبَ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَنْ يَبْقَىٰ فِي الْمَدِينَةِ يَرْعَىٰ شُؤْنَ أُمَّتِهِ ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَنْ

(١) المصْرَيْنِ : جَمْعُ مِصْرَ وَهُوَ الْبَلَدُ .

(٢) رِدْءًا : حَايَةً .

يبعث قائداً ، فقال عمر : « هذا هو الرأي ، كنت أحب أن أتابع عليه ، فأشيروا على رجل أوليه ذلك الثغر ، وليكن عراقياً » . فقالوا : أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك . فقال : « والله لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً » . فسأله الصحابة : من هو ؟ فأجاب : « النعمان بن مقرن المزني » فقالوا : هو لها .

فأرسل إليه عمر يوليه قيادة الجيش قائلاً : « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو - أما بعد - فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا تُوطئهم وِعراً^(١) فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تُدخلهم غِيْضَةً^(٢) ، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ، والسلام عليك ، فسر في وجهك ذلك حتى تأتي ماء - فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ،

(١) لا توطئهم وِعراً : لا تنزلهم مكاناً صعباً .

(٢) غِيْضَةٌ : هي الأجمة وهي الشجر الملتف والجمع غياض وغِيضات .

وَأَسْتَنْصِرُوا^(١) وَأَكْثَرُوا مِنْ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وبعد أن كتب عمر هذا أرسل إلى نائب الكوفة عبد الله بن عبد الله أن يعين جيشاً ويبيعهم إلى نهاوند ، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهى إلى النعمان بن مقرن ، فسار حذيفة فى جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماء ، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق ، وقد وضع فى كل كورة ما يكفياها من المقاتلة ، وجعل الحرس فى كل نقطة مرّ بها ، وانتهوا آخر الأمر إلى النعمان بن مقرن فى النقطة التى تواعدوا فيها ، فكمل جيش النعمان بهم ثلاثين ألفاً من المقاتلة ، وساروا إلى نهاوند لمقاتلة الألوف المؤلفة من الفرس ، ولكن كان فى الأولين صفوة الدنيا وأخيارها - سادات الصحابة ورءوس العرب - عبد الله بن عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان وأمثالهما ، وكان فى الآخرين رموس الكفر وطُعْمَة^(٢) الشيطان وعبدة النار .

وسار النعمان بالجيش إلى نهاوند ، وكان عمر قد أرسل إلى جند « الأهواز » أن يشاغلوا بقية جيوش الفرس حتى يقطعوا إمداد فارس عن أهل نهاوند ، أو بمعنى أدق أن يشغلوا الفرس فى ميدان آخر حتى

(١) استنصروا : اطلعوا النصر من الله .

(٢) طغمة الشيطان جماعة الشيطان وحزبه .

يتمكن النعمان من القضاء على جيش فارس الرئيسى ، وأرسل النعمان طليحة بن خويلد الأسدى ، وعمرو بن معديكرب ، وعمر بن ثنى ، ليأتوه بخبر الفرس فخرجوا وساروا ليلة ، فرجع إليه عمرو بن ثنى ولم يأت بشئ ، وفى آخر الليل عاد إلى النعمان عمرو بن معديكرب ولم يأت بشئ أيضاً ، ثم رجع طليحة وأعلم الناس بوجود الفرس ، فرحل النعمان إليهم ، وعبأ أصحابه - وهم ثلاثون ألفاً كما قلنا - وجعل على المقدمة نعيم بن مقرن ، وعلى مَجَبَّتَيْهِ^(١) حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن ، وعلى المجردة^(٢) القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة^(٣) مجاشع بن مسعود ... تلك الأسماء ذات الصحائف الخالدات التى كتب لها فى تاريخ الحركة الإسلامية أنصع الآيات .

وانتهى النعمان آخر الأمر إلى « أسيدخان » ، والفرس وقوف فى مكان الموقعة وعلى رأسهم أمير الفيرزان ... وتراءى الجيشان وقد علا كليهما الصمت الرهيب ، ثم صَوَّتَ النعمانُ بصوت يقطع هذا السكون : « الله أكبر » . إيه يا أنشودة القوة المنبثة غير المحدودة التى

(١) مجبتيه : جانبيه .

(٢) المجردة : الوسط .

(٣) الساقة : مؤخرة الجيش .

تخطت المحدود فَعَنَتْ^(١) لها أوجه الحياة ... ورددها المسلمون وراء النعمان ، فحملتها ذرات الأثير إلى نفوس الأعجم ... عباد الأرض ، عباد المحدود ، فتزلزلت نفوسهم وتبين لهم صَغَارُهَا^(٢) بجانب النفوس النورانية الكبار .

وحطمت العرب الأتقال ، وتقدم أشراف العرب ليضربوا فسطاط أميرهم . ثم بدأ القتال يوم الأربعاء والخميس في مواقع هائلة والحرب سِجَال بين الجيشين حتى تمكن المسلمون من إجلائهم عن مواقعهم ، ولكن الفرس ما لبثوا أن اعتصموا بخنادقهم يوم الجمعة ، فحصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء الله ، والفرس بالخنادق لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج .

وخاف المسلمون أن يطول أمر هذا الحصار إذا استمروا أسابيع وهم على هذا الحال ، فتجمع بعض قادتهم في ذات يوم ، ورأوا أن حصارهم قد امتد بدون نتيجة ما ، وأتوا النعمان وكان يتحدث في هذا الأمر أيضاً ، فأخبروه فجمع مستشاريه وقال : قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شاءوا ، ولا يقدر

(١) فعنت : فخفضت .

(٢) صغارها : حقارتها .

المسلمون على إخراجهم ، وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق ،
فما رأى الذى نستخرجهم به إلى المناجزة^(١) وترك التطويل ، فتكلم
عمر بن ثنى ، وكان أكبر الناس فقال : « التحصن عليهم أشد من
المطاوله عليهم ، فدَعَهُمْ وَقَاتِلْ مَنْ أَتَاكَ مِنْهُمْ » . فلم يقبلوا رأيه
وقالوا : إنما يناطح بنا الجدران وهى أعوان علينا .

قال طليحة : أرى أن تَبْعَثَ عليهم خيلا ، لينشبوا القتال ، فإذا
اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً ، فإنما لم نستطرد لهم فى طول
ما قتلناهم . فإذا رأوا ذلك طمعوا فينا ، وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى
الله فيهم وفيما ما أحب .

أعجب النعمان بهذا رأى . فأمر القعقاع - وكان على المجردة -
بأن يبدأ القتال ، فهجم القعقاع على الخنادق ، فخرجوا من الخنادق
وكانهم جبال حديد قد توائقوا ألا يَفِرُوا ، وقد قَرَنَ^(٢) بعضهم بعضاً ،
كل سبعة فى قِرَانٍ وألقوا حَسَكُ^(٣) الحديد خلفهم لئلا ينزموا ؛ فلما
خرجوا نَكَصَ^(٤) القعقاع ، ثم نكصوا .

(١) المناجزة : البدء بالقتال .

(٢) قرن : ربط .

(٣) حَسَكُ الحديد : الحسك ما يعمل من الحديد على مثاله وهو من آلات العسكر .

(٤) نكص : تراجع .

ورأى الفرس المسلمين ينهزمون لأول مرة ، فاغتنموا الفرصة كما ظن طليحة ، وقالوا : هى هى ، أى أنهم أيقنوا بهزيمة المسلمين ، وأخذ القعقاع يتراجع ويتراجع معه المسلمون ، والفرس فى إثرهم حتى انقطعوا بعض الانقطاع عن حصنهم ، ولم يبق أحد إلا من يقوم على الأبواب ، واقترب الفرس من جيش المسلمين الرئيسى ، وكان النعمان قد أمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ، ففعلوا واستتر هو ، وأقبل المشركون على جيش المسلمين يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح ، فشكا الناس إلى النعمان وقالوا : ألا ترى ما نحن فيه ، فما تنتظر بهم ؟ إئذَنْ للناس فى قتالهم ، فقال رُوَيْدًا رُوَيْدًا يا معشر المسلمين ، شهدت مع رسول الله القتال ، إذ لم يقا تل أول النهار وأخر القتال حتى تزول الشمس ... واقتربت ساعة الزوال ، فركب النعمان فرسه وسار فى الناس ، ووقف على كل راية من رايات المسلمين يذكّرهم ويحرضهم ويمنيهم النصر ، ثم قال مخاطباً الجيش : إني مكبر ثلاثاً ، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل فاحملوا ... وإن قتل فالأمر بعدى لحذيفة فإن قتل ففلان ، حتى عد سبعة آخرهم المغيرة .

آذَنْتَ^(١) ساعة الهجوم ، فقال النعمان : « اللهم أعِزْ دينك ،

(١) آذنت : حانت وحلت .

وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك ... اللهم إني أسألك أن تُقرَّ عيني بفتحٍ يكون فيه عزُّ الإسلام ، واقبضني شهيداً ، فبكى الناس .

ورجع النعمان إلى مكان قيادته ، فكبر ثلاثاً ثم هجم في مقدمة الجيش ، وانقضت رايته انقضاض العقاب ، والمسلمون من ورائه حتى تصافحت السيوف ، وكان المكان يهدر بمن فيه هدير الموج العاتى ، وفرسان المسلمين فى المقدمة يشقون طريقهم فى وسط هذا البحر من الدماء ، والدم يحرق فى كل مكان يزلق الناس والدواب ، ولاحت بارقة النصر وضاءة منيرة فى عين النعمان ، وتوجهت سهام الفرس إليه ، وانقض سهم من تلك السهام على خاصرته فسقط بين الدماء شهيداً ، فَسَجَّاه^(١) نعيم بن مقرن ، وأخذ الراية وناولها حذيفة فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان ، وترك نعيماً مكانه ، وطلب منهم المغيرة أن يكفوا خبر موته لئلا يهين المسلمون ، وأدار حذيفة الموقعة حتى انهزم المشركون مدبرين ، وتبعهم المسلمون ، وكان المسلمون قد قروا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل ، وحفروا لهم خندقاً ، فلما انهزموا وقعوا فى الخندق ، وفى تلك الأودية ، فمات منهم فى الخندق وحده

(١) فَسَجَّاه : فغطاه .

مائة ألف علاوة على قتلى الموقعة نفسها .

وهرب الفيرزان ، فاتبعه نعيم بن مقرن والقعقاع حتى قتله القعقاع على أحد الجبال . وانتهى أمر فارس بتلك الموقعة ، وأقام المسلمون على أخوه نعيم : « هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح ، وختم له بالشهادة » . وبكى المسلمون أمير نهاوند العظيم ما شاء لهم البكاء . ولكن كان هناك رجل يتظر .

هو سيد الدنيا ، هو عمر بن الخطاب . أسهرته ليالى نهاوند ، فما كان يعرف النوم إلى عينيه سيلا . يخرج إلى ضواحي المدينة في هجيرها القاسي ينتظر أخبارها ، حتى أتاه السائب فقال له عمر : ما وراءك ؟ فقال له : فتح الله عليك ، وأعظم الفتح ، واستشهد الأمير ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم عرض عليه غنائم نهاوند ، غنائم لا تحصى من الجواهر النفيس ، وما أبه^(١) عمر لكل هذا ، بل اعتلى المنبر ، ونعى إلى أهل الأرض النعمان بن مقرن ، أمير نهاوند وشهيدها ... وبكى ... وبكى ... حتى نشج^(٢) .

(١) أبه : اهتم .

(٢) نشج : أخرج صوتاً في بكائه .

وعبد الله بن مسعود في أسفل المنبر يقول : إن للإيمان بيوتاً ،
 وللنفاق بيوتاً ، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن .
 وأقبل السائب على عمر يقول : « يا أمير المؤمنين ، ما أصيب رجل
 بعده يعرف وجهه » فقال عمر : « أولئك المستضعفون من المسلمين ،
 ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنع
 أولئك بمعرفة عمر ؟ ! » .



وفي سهل فسيح ممتد في نهاوند ، حيث انتشرت أشجار مُقْرَعَةُ
 الأغصان ، وشجيرات الورد والرياحين هنا وهناك ، نام النعمان بن
 مقرن نومته الأبدية ، ونام معه جنوده الشهداء . فإذا ما أقبل الربيع ،
 وانخضرت الأغصان ، وتفتحت الأزهار ذات الأرج ، ومر النسيم من
 بينها يردد - في جمال السحر - أنشودة طالما ردّدها ابن مقرن يستمع
 إليها رواد الروضة الفيحاء ، أنشودة القوة المنبعثة غير المحلودة التي
 تحطت المحدود فعنت لها أوجه الحياة ، ثم عافت عيشنا ، وهامت
 بالخلود ، بغير المحدود الدائم السرمدي ؛ فهتفت به على نجاد نهاوند
 وسهولها فاستجاب النداء !

الطُّفَيْلُ بنُ عَمْرٍو الدوسي

وابنه

عمرو بن الطفيل

« وفي عالم آخر لا ينتهى اجتماع الأحبة الدين
عرفوا الحب تضحية ونداء لله ورسوله ،
لاشهوات وصغائر ، فكانوا فى الأرض الأوفياء
المجاهدين ... وكانوا فى الآخرة الشهداء
الخالدين » .

أوقدت النيران واشتعلت ، وانتشرت رائحة الشواء فى مضارب قبيلة
« دوس » ويوتهم ، وكان سيد دوس « الطفيل بن عمرو » يكرم فى
هذه الليلة أشراف دوس ، ويطعم فقيرهم ، وينتقل بين مضاربهم
ويوتهم مودعاً حتى عاد إلى بيته ، واجتمع حوله أصفياؤه من
أشرافهم ، وهو فى وسط تلك الحلقة ينشد أشعاره مفاخرأً بنسبه وعلوه
ومجد قبيلته . وفى الصباح المبكر خرج أشراف الحى يودعون حيث
يذهب إلى سوق مكة ، فيتاجر لهم فيها ، ويجتمع بأشراف بيت العرب
(بيت إبراهيم) فيتذاكرون أحوال العرب ، ويقضون ما قد حدث

بينهم من إحنٍ^(١) ومنازعات . وسار الركب إلى هناك ، وكان سوق عكاظ قد أشرف ميعاده ، واجتمع شياطين قريش من المشركين يفكرون : ماذا يحدث لو استمع زعيم من زعماء القبائل إلى رسول الله فثمنه وأمده بالقوة والعون ؟ ! لابد إذن من دعاية واسعة النطاق يُشوّهون بها حقيقة الدعوة قبل أن تصل إلى آذان واحد من هؤلاء ، ولكن ماذا يقولون : شاعر ؟ ! أبداً ، ما هو بشاعر ، وليس كلامه الشعر ... كاهن ؟ ! أبداً ، ما هو بكاهن ، وإن البدوى ليفرق بين سَجْع الكُهَّان والقرآن . راهب ؟ ! أبداً ، ما هو براهب فإن هذا اللسان عرى مبين ، ولسان هؤلاء لسان أعجمي . ساحر ؟ ! نعم ، هذه الفكرة التي يستطيعون بواسطتها أن يشوهوا دعوته ، سحر يفرق بين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته الأقربين ... وانتظرت قريش وفود الحجيج حتى أقبل الطفيل بن عمرو ، وكان يمشى وثيداً بطلعته المهيبة ، وهو يردد أشعاره ، ويترنم بمجد آبائه ، وأقبل عليه القرشيون يرحبون به . وما استقر به المقام حتى قالوا له : « يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعْضَلَ بيننا ، وقرّق جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل

(١) إحن : أحقاد جمع إحنة .

وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته ! إنا نخشى عليك وعلى قومك مثل ما دخل علينا منه ، فلا تكلمه ولا تسمع منه . وما زالوا به يحدثونه ويخوفونه ، ويقصون له بعض ما فرق به ابن عبد الله جماعتهم حتى أجمع ألا يسمع منه ولا يكلمه . يقول : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه . فغدوت إلى المسجد ، وقد حشوت أذني كرسفاً (يعنى قطناً) فرقاً^(١) من أن يبلغني شيء من قوله حتى كان يقال لي ذو القُطَّين ، وفرحت قريباً يوماً وتيقنوا أن سيد بني دوس لن يصل إليه شيء من قول رسول الله ، ولكن دعوة الله لا تقف في وجهها حُجُبٌ أو سُجُفٌ . يقول الطفيل : فغلت يوماً إلى المسجد ، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة ، فقممت قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يُسمَعَنِي بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : « وَأَتُكَلِّمُ أُمِّي »^(٢) ! والله إني رجل لبيب ، شاعر ما ينحني على الحسن من القبيح ، لما يمنحني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ » ، وأخذ الطفيل يرقب رسول الله بعينه التفادتين حتى انصرف الرسول إلى بيته ، فتبعه الطفيل حتى إذا دخل بيته استأذن

(١) فرقاً : خوفاً .

(٢) وأتكل أُمِّي : وافقدها وهو أسلوب ندية ، واستغاثه .

الطفيل عليه ودخل . ثم قال : يا محمد ، إن قومك قالوا لى كذا وكذا.. للذى قالوا: لأسمع قولك؛ ثم إن الله أبى إلا أن يُسمِعِيه ، فسمعت قولاً حسناً ، فأعرض علىّ أمرك . فعرض عليه الرسول الإسلام وتلا عليه القرآن ، فقال : لا والله ما سمعت قولاً قطّ أحسن من هذا ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق . ثم قلت : يا نبى الله ، إني امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم فداعيتهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يكون لى عوناً عليهم فيما أدعوههم إليه ، فقال : اللهم اجعل له آية .

وخرج الطفيل من عند الرسول ، وصاح الصائح فى قريش : قد أسلم سيد دوس وآمن ، واجتمعت قريش على الصائح هذا ، فأخبرهم الخبر ، وارتجف القرشيون وأرعّدوا ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا من الطفيل شيئاً ، وإلا تألبت عليهم دوس جميعها . وأقبل الطفيل بطلعته المهية فما استطاعوا منه شيئاً .

وأقام الطفيل ما أراد الله له الإقامة ، ثم خرج إلى قومه . يقول : « فخرجت إلى قومى ، حق إذا كنت (بثينة) تُطْلَعُنِي على الحاضر ، وقع نورٌ بين عَيْنَيَّ مثل المصباح ، فقلت : اللهم فى غير وجهى ، فإنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراق دينهم ، فتحول النور

فوقع في رأس سوطى ، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في سوطى كالقنديل المعلق » . وَوَلَجَ الطفيل الحى ، ودخل بيته فأثاه أبوه فقال له :

- إليك عنى يا أبتاه ، فلست منى ولست منك .

- ولم يا بنى ؟

- إني أسلمت واتبعت دين محمد .

- يا بنى ، دينى دينك .

ثم طلب منه أن يعرض عليه هذا الدين حتى إذا كان حقاً آمن به .

فقال له الطفيل : اذهب فاغتسل وطهر ثيابك .

فذهب ثم جاء فعرض عليه الإسلام فأسلم .

ثم أتته امرأته ، فقال لها : إليك عنى ، فلست منك ولست منى .

- ولم بأبى أنت ؟ !

فقال : فرق بينى وبينك الإسلام ، إننى أسلمت واتبعت دين

محمد . فطلبت منه أن يعرض عليها هذا الدين فقال لها : اذهبي إلى

ذى الثرى فتطهري منه (وهو ماء قريب) ، فذهبت فاغتسلت ، ثم

جاءت فعرض عليها الإسلام فأسلمت ..

أسلم آل بيت الطفيل جميعاً ، وكان لا بد للطفيل بعد ذلك أن

يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وحَسِبَ الأمر هَيِّنًا
مستساغًا ، فقام في قومه بعد مقامه بقليل يدعوهم إلى الله ورسوله ...
وانتظر أن يحييوه فما أجابوا ، بل سخروا منه وعابوه ، وأصبح هذا
البيت الدوسي الرفيع المنار مرمى السخريات والاضطهاد ، فقد زادت
دوس تعلقاً بأصنامها ، ومحاربة لدعوة رسول الله ، والطفيل لا يهدأ
ولا يَكَلُّ ، يعيب أصنامهم ، ويسقُّهُنَّ حتى ضاقوا به وضاق بهم ...
فخرج إلى رسول الله يلتمس منه القوة والبأس ، فلما تقابلا قال له
الطفيل : يا رسول الله ، قد غلبتني دوس ، فادع عليهم .. وأخذ
يقص على الرسول الأعظم ما يلقاه من عنت واضطهاد ، وما يقابلون
به دعوة الله من سخرية ونكاية ، فقال الرسول : « اللهم اهدِ دوساً
وائت بها . أخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم » .

وعاد الطفيل إلى قومه ، وقد ازداد قوة وبأساً ، يدعوهم
فلا يستجيبون ، ولكن الدعوة الحقّة الصادرة من القلب المؤمن الكبير
لا بد أن تجد آخر الأمر التربة الصالحة ، فتتمو أحسن التمو .

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضت بدر وأحد والخنديق ،
وجاهد فيها من جاهد من أولئك الشهداء الخالدين ... وفات الطفيل
ابن عمرو هذه الوقائع الثلاث ، ولكنه كان يقوم بجهد دقيق عظيم .

جهاد الدعوة في سبيل الله حتى استجاب له ثمانون بيتاً من دوس أقبل بهم إلى المدينة ، ورسول الله بخير ، فسار إليه بهم ، وفي خير قال لرسول الله : يا رسول الله ، اجعلنا مِمَّتَكَ ، واجعل شعارنا مبروراً . ففعل رسول الله ، وأبلى الدوسيون أحسن البلاء ، واستشهد منهم من استشهد ، وأسهم لهم رسول الله ... وأقام الطفيل مع رسول الله في المدينة حتى فتح مكة ، فقال الطفيل : يا رسول الله ، ابعثني إلى « ذى الكَفَيْنِ » صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه ، فبعثه إليه ، وذهب الطفيل إلى صنم قومه ، وجعل المسلمون يجمعون الحطب ثم أشعل النار في الصنم وكان من خشب وهو يرتجز :

يا ذا الكفين لست من عبادك ميلادُنا أقدم من ميلادك
أنا حَشَشْتُ النار في قوادك

والمسلمون يرتجزون وراءه ، ودوس تنظر صنمها وهو يحترق ... وبان لهم أنه ليس على شيء ، فأسلموا جميعاً . ولكن الطفيل لم يقم بينهم ، فعاد إلى المدينة يقضى فيها حياته بجوار النبي الأعظم ، ومعه ابنه عمرو ، وقد شب وترعرع وبلغ مبلغ الرجال ... وفي تلك الأثناء قبض الرسول ﷺ .

ارتدت العرب عن الإسلام ، وخرجت على أمر نبيها ، وأعلنت

أنها لن تدفع الزكاة ، ورأى خليفة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يجند لهم الأجناد ، فبعث بالمسلمين إلى طليحة الأسدي ، وفي مقدمتهم « الطفيل بن عمرو » وابنه عمرو . فجاهد الاثنان جهاد الأبطال حتى انتهى المسلمون من طليحة ، وأخضعوا قبائل نجد كلها ، ثم ساروا إلى اليمامة ... واستعد المسلمون لهذه الحرب العوان^(١) ، وأقبل الليل فناموا استعداداً للمعركة في الصباح ، ووقفت ربيعة^(٢) من القوم تحرسهم ، وغفا « الطفيل بن عمرو » قليلاً ، ثم وقف في الصباح يقول لأصحابه : « إني رأيت رؤيا فاعبروها »^(٣) ، إني رأيت رأسي قد حلق ، وإنه خرج من فمي طائر ، وإنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها ، وأرى ابني عمراً يطلبني طلباً حثيثاً ، ثم رأيت حُبسَ عني ... » فقال أصحابه : خيراً . قال : « أما أنا فقد أولّتها »^(٤) ، أما حلق رأسي فقطعها ، وأما الطائر فروحي ، وأما المرأة التي أدخلتني فرجها فالأرض تحضر لي فأغيب فيها ، وأما طلب ابني لي ثم حبسه عني ، فإنني أراه سيجهَد أن يُصَيِّه ما أصابني . وتنفس الصبح ، واشتبك المسلمون

(١) العوان : الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة .

(٢) ربيعة : الطليعة من الجيش والجمع رباباً .

(٣) فاعبروها : ففسروها .

(٤) أولّتها : فسّرتها .

مع بنى حنيفة اشتباكاً شديداً ، وتخطى الطفيل وابنه عمرو الصفوف يتقاتلان حتى استشهد الطفيل . أما ابنه فجاهد جهاد الأبطال حتى جرحته يده وقطعت ، ولم يكف عن القتال .

عاد عمرو إلى المدينة ، وقد فقد أباه ، ثم استبسل وأخذ يؤنب نفسه أن لم يصبه ما أصيب به أبوه . فقد كانت حياة أبيه أروع مثل للتضحية والفداء ، فما أسلم حتى وهب لله ولرسوله كل شيء ، فدعا وجاهد ، وجعل منه هو نفسه رجلاً يحارب الآن في سبيل الله ورسوله ، ثم أعطى دوساً أعظم القدوة ، ثم مات شهيداً بين السيوف المسلولة والأسنة اللامعة ، قد فاز أبوه ، أما هو فلم يفز . إنه يتذكر يوم أقبلوا على الرسول في خيبر ، فبعثه صلوات الله وسلامه عليه إلى قومه « دوس » يستمدهم ، واستمرت الحرب يومئذ في « خيبر » ، فقال له عمرو وقد نشب القتال : « يا رسول الله تغيبت عنه ... » .

— أما ترضى أن تكون رسول رسول الله ... فرضى عمرو يومئذ ، وشفيت نفسه يومها ، يوم أن أراد القتال ، فما ظفر فيه ، لكن من يشفيه الآن ، وقد طلب الشهادة فأخطأها ، وفاز بها أبوه !! ألم يشق هذا النعيم الأبدي بجانب الرسول الأعظم وبجانب أبيه !! التقوا

هناك ... التقى الأجابة أحسن اللقاء ، وعاد الجيش إلى المدينة ومازال عمرو بن الطفيل هائماً يطلب الشهادة ، يريدتها في كل موضع . ومات خليفة رسول الله وانتقلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب .

وكان عمرو عند عمر بن الخطاب - قبل خروجه إلى اليرموك - وقد أتى بطعام ، فتنحى عنه عمرو ، فقال عمر : مالك ؟ لعلك تنحيت لمكان يدك .

فقال عمرو : أجل .

فأجابه عمر بن الخطاب : والله لا أذوقه حتى تَسُوْطَه بيدك ^(١) ،
فوالله ما في القوم أحد بعرضه في الجنة غيرك !

استمعها عمرو فبعث في قلبه النور الهادي ، النور الذي طالما استمده من رسول الله يوم كان حياً ، وها هو ذا الآن يستمد بعرضه من الفاروق ، ألم يشهد له أن بعرضه في الجنة ، وهو سيد الأرض الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ؟ ! وخرج عمرو في جيش المسلمين إلى اليرموك ، وهجم على جحافل الروم ، وصمد المسلمون ، وأخذوا يتساقطون واحداً بعد واحد ، لكن تم لهم النصر ، وارتفعت ألوية

(١) تسوطه بيدك : المراد تناله بيدك من « السوط » وهو خلط الشيء بعرضه بعض .

التوحيد على فلسطين ، وكان بين الشهداء عمرو بن الطفيل .
وفي عالم آخر لا ينتهى اجتمع الأحبة الذين عرفوا معنى الحياة
تضحية وفداء لله ولرسوله ... لاشهوات وصغائر ، فكانوا فى الأرض
الأوفياء المجاهدين ... وكانوا فى الآخرة الشهداء الخالدين ! ...

أبو حذيفة بن عتبة

« كانت حياته نوبة مجاهد وصوت ضمير »

لقد وصل الصوت الإلهي الذي علا في أرجاء مكة إلى آذان سراتها^(١) ، كما وصل إلى آذان فقرائها ومواليها ، ولقد سمع آل عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف هذا الصوت قوياً رائعاً يدعو إلى عبادة الواحد الأحد ، عبادة نقية خالصة من أرجاس^(٢) الأوثان فاهتزت تلك القلوب وخفقت .

هذا الشريف القرشي الذي يدعوهم إلى هذا الدين بلغ سنّام^(٣) الشرف وذروة الجاه ، ولكن كل هذا ما وجهه عن غايته ، بل إنه ليجاهد فيها ، ويثبت عليها ثبوت الطّود الأشمخ^(٤) . هل هذه قوة الإنسان ! اهل صبر محمد بن عبد الله كصبر الناس أجمعين ؟ ... أبداً ... لقد علا محمد بن عبد الله فوق الإنسانية وفوق البشر ،

(١) سراتها : أشرافها .

(٢) أرجاس : جمع رجس وهو الدنس .

(٣) سنّام : ذروة .

(٤) الطود الأشمخ : الجبل الشاهق .

أحاديث نفس تلقى في نفوس آل عتبة . وكانت ميزة هذا القبيل من قريش دقة الشعور وعذاب الضمير ، كم آلم هذان هذه الأسرة أشد الألم ، وحآكماها أشد المحاكمة ، ولكن هل يؤمنون بمحمد رسول الله ، فيضيعون هذا الجاه العريض ، وهذه المكانة السامية في قريش ؟ هل يَصْبُثُونَ عن دين أسلافهم وَيُسَفِّهُونَ أوثانهم ^(١) ؟ ... سؤال تردد في أعماقهم جميعاً .

أما عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد فقد توقفوا . أما أبو حذيفة بن عتبة فلم يتردد ولم يتوقف - إن دعوة الحق ظاهرة بينة ، فَلْيَعْتَنِقْهَا ، وَلْيَقْنِ فِيهَا ، وَلْيَكُنْ الثَّنَ الذي سيلقاه من قريش أيّاً كان ... فقد باع نفسه لله ، واستريح من الله الثن . وهكذا أرسل الإسلام أشعته البيضاء النقية إلى قلب أبي حذيفة ، لقد آمن أبو حذيفة كما آمنت امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو .

ولقى أبو حذيفة من قريش الرَّهَقَ ^(٢) ، وحاولوا فتنه عن دينه ، غير أن الله أيده بنصره ، فلا ضعف ولا خَوَر ^(٣) ... بل إنه لَيَدَّابُّ على

(١) أوثانهم : جمع وثن وهو الصنم .

(٢) الرهق : العسر والضيق .

(٣) خور : ضعف .

نشر الدعوة في صفوف أهله ، ويرى منهم اللين ، ويرى فيهم الحلم والرأى ، فيطمع في هدايتهم إلى دين الله ، ويستمع عتبة إلى ابنه يحدثه عن جلال الدين وعظمته ... والرجل يفكر ويبتلي في التفكير .

وازدادت قريش إمعاناً في اضطهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وازداد الرسول إيماناً بدعوته ، وأسلم حمزة بن عبد المطلب ، وعلم عتبة بن ربيعة ، فسار إلى قريش وقد عزم في نفسه على أمر ، لم لا يكلم رسول الله ، ويحدثه في دعوته ، ويطلب منه أن يرجع عنها في سبيل عروض يعرضها عليه ؟ ! دخل عتبة إلى الكعبة ، وجلس في نادى قريش ، وكان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد وحده .

قال عتبة : يا معشر قريش ، ألا أقدم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء وكيف عنا؟! فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد ، قم فكلّمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، وهو يتمعن في هذا الوجه الذي يحدثه عنه ابنه أبو حذيفة - وكأنه لم يره من قبل - فقال : يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من البُسْطَةِ في العشيرة ، والمكانة في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، مزقت به جماعتهم ، وسفهت به

أحلامهم . وعِيتَ به آلتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد .

قال : يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً ^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

والرسول الأعظم يستمع حتى إذا ما انتهى عتبة قال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال له الرسول : فاستمع مني .

قال : افعل .

فتلا الرسول :

(١) رثياً : الرثى : المس من الجن .

بسم الله الرحمن الرحيم

(حَمْ • تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ •
وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) (١) ...

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها منه عتبة ،
أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه ، ثم
انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت
يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله ، لقد
جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد !!

قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو
بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يامعشر قريش أطيعوني وخلوا
بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه ؛ فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت
منه نبأ ، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتُموه ، وإن يظهر على العرب فملكه

ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

- هذا. رأيي فاصنعوا ما بدا لكم .

* * *

ازداد إيلام قريش لرسول الله وصحبه وأخذوا يفتنونهم عن دينهم . فطلب منهم رسول الله ﷺ أن يهاجروا إلى بلد آمن ، واختار لهم الحبشة ، فهاجر « أبو حذيفة » هو وامرأته « سهلة » ، وقد بغض العيش في جوار المشركين . وفي الحبشة ولدت له امرأته ولداً سماه « محمداً » .

وقضوا في الحبشة ما شاء الله لهم ، حتى علموا أن عمر قد أسلم ، وأن حدة قريش قد هدأت قليلاً ، فعاد منهم من عاد ، وكان من بينهم أبو حذيفة وزوجته ، ولكن ما لبثت قريش أن زاد ثورانها على النبي وصحابته ، فأخذوا يذيقونهم كثوساً من الذل الهائل ، ولم يستطع أبو حذيفة أن يفارق مرة أخرى النور ، وأن يترك الرسول الأعظم ، فبقى معه ، وهو يحاول ما استطاع أن يهدي أباه ، وأبوه يحيا في عذاب نفسى مستمر ... بل إنه ليشعر شعوراً تاماً أن رسول الله على حق ، وأن قريشاً على باطل ، ولكن الخروج على دين أجداده كان يخيفه

ويروعه ، وكان لما ألقاه أبو حذيفة في نفس أبيه عتبة بن ربيعة أكبر الأثر في نفسه . وكان عاملاً مغالياً في تفريق كلمة قريش في غزوة بدر - كما سترى بعد - وذهب رسول الله ﷺ إلى ثقيف يعرض دعوته ، فقابلوه أسوأ مقابلة ، وأَعْرَوْا به سفهاءهم وعبيدهم يَسُبُّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه فعمد إلى ظل حبلّة من عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان مالتى من سفهاء أهل الطائف ...

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي . إلى من تَكَلَّمُني ، إلى بعيد يَتَجَهَّمُني ، أم إلى عدو ملكته أمري . إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فلما رآه ابنا ربيعة ، عتبة وشيبة ، ورأيا ما لقي تحركت له نفساهما

فدعوا غلاماً لها نصرانياً يقال له عدّاس ، فقالا له : خذ قطعاً من العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : « كل » .

فلما وضع أمام رسول الله ﷺ قال : بسم الله ... ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ، ثم قال ، والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟

- نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى .

- من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

- وما يدريك ما يونس بن متى ؟

- ذاك أخي كان نبياً ، وأنا نبي .

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه وقدميه ، وأحد ابني ربيعة يقول لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاءهما عداس قالاه : مالك يا عداس ؟ مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

قال : يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى !

ثم تركها وعاد ابنا ربيعة يفكران ...

• • •

اهتدى اليثريون إلى الله وإلى رسوله ، وأذن النبى ﷺ فى الهجرة ، فهاجروا إليها ، وأسرع أبو حذيفة بن عتبة إلى المدينة مهاجراً إلى الله ورسوله ، وعاش فى هذا المجتمع الإسلامى حتى نادى منادى الجهاد ، فخرج فى مقدمة الصفوف فى بدر .

أقبلت قريش تحارب الله ورسوله ، فلما رآها النبى ﷺ قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحاول تكذيب رسولك ، اللهم فَنَصْرَكَ الذى وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة . ثم رأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال : « إن لم يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يُرْشِدُوا » ، وبعثت قريش لعمر ابن وهب أن يحذر أصحاب رسول الله ﷺ ، فذهب ثم عاد يقول : « قد رأيت يا معشر قريش البلايا ^(١) تحمل المنايا ، نواضح ^(٢) يثرب

• (١) البلايا : المصائب .

(٢) نواضح جمع نضاحة وهو القوس يرمى بها رمياً حسناً .

تحمل الموت الناقع^(١) . قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ،
والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا
منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فرؤوا رأيكم » .
فلما سمع حكيم بن حزام هذا ، وكان يعلم أن عتبة بن ربيعة إنما
خرج مستكراً ، ذهب إليه وقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش
وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى ألا تزال تذكر منها بخير إلى آخر
الدهر !

- وما ذاك يا حكيم ؟

- ترجع الناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو .

- قد فعلت أنت على بذلك ، إنما هو حلفي فعَلَى عَقْلِهِ^(٢)

وما أصيب من ماله ، فَأَتِ ابْنَ الحَنْظَلَةِ (أى أبا جهل بن هشام) فإني
لا أخشى أن يشجر أمر الناس^(٣) غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، فقال : « يا معشر قريش إنكم والله
ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لأن أصبتموه لا يزال

(١) الناقع : الشديد البالغ الثابت .

(٢) عَقْلُهُ : دِينُهُ .

(٣) يشجر أمر الناس : المراد يتولى أمرهم .

الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون .

وفي تلك اللحظة انطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل فقال له : « يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا » . فقال : انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جُزور^(١) وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه .

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي ، فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأركَ بعينك ، فقم فأنشد خفرتك^(٢) ومقتل أخيك . فقام عامر بن الحضرمي وصرخ ... واعمراه ! ... واعمراه ! فحميت الحرب ، وأفسد أبو جهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة . فلما بلغ عتبة قول أبي جهل : « انتفخ والله سحره »

(١) جزور : الإبل .

(٢) فأنشد خفرتك : فاطلب .

قال : « سيعلم مُصَفَّرُ الإِسْت^(١) من انتفخ سحره ! » .

وفى تلك اللحظة قتل حمزة بن عبد المطلب ... الأسود بن عبد الأسود المخزومي ؛ فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد من الصف ودعا إلى المبارزة .

إنه ليعلم أنه على باطل ، وأن كثيرين من قريش ليعلمون أنهم على باطل ، وأن مع محمد الحق المبين ، ، فما لهم يحاربون وينافقون ؟ ! وإنه ليعلم أن ابنه فيهم ، وقد يقابله في ميدان التزال - أحدهم يدافع عن إيمانه بالحقيقة السماوية - وهو يدافع عن أوثان لا تغنى من الله شيئاً ، قد يقابل ابنه فيقتل أحدهما الآخر - فما خير العيش بعد ذاك - لقد كانت قريش مضعضة الكيان حين رأت تضعضع نفسية شريفها عتبة ابن ربيعة .

وهذه كتيبة رسول الله قوية مؤمنة يعلم كل فرد أنه لا يدافع عن نفسه إنما عن دينه ، فكان الفرد لا يقاتل بقوة ذاته بل بقوة المجموعة كلها ؛ فازداد عددهم المعنوي عن عدد أعدائهم ألوف المرات . أما غايتهم فكانت واحدة .. أما قائدهم فكان واحداً .. أما

(١) الإِسْت : العجز ويراد به حلقة الدبر والأصل سَتَّة بالتحريك وتجمع على أَسْتَاه مثل سبب وأسباب .

سبيلهم فكان إلى الله ورسوله نصراً واستشهاداً .

لقد عرفت الغاية ، وعرفت القائد ، وعرفت الوسيلة .. فلو اجتمعت الأرض عليهم جميعاً في ذلك اليوم ما غلبتهم - إنهم الآية ، آية السماء على الأرض ، إنهم حجة الإسلام على أبنائه المارقين^(١) ، الآن تلزمهم أن النصر لمن آمن وفى في محمد ودينه ، ولقد رأى القرشيون هذا فما فهموا أول الأمر . وحين دارت عليهم الدوائر عرفوا أن محمداً على حق ولكن ما آمن منهم كثير .

رأى أبو حذيفة أباه وعمه وأخاه يخرجون للقتال ، وإنه ليعلم أنه خرج مستكرهاً لقتال المسلمين ، ولكن ما له يتقدم ، هذا الرجل الحكيم المتزن ، يموت بأيدي المسلمين كافراً فيخلد في النار . حزن أبو حذيفة ، ولكن طراً عليه هذا الطارئ القوى الرائع ، فليخرج هو إلى أبيه فيقتله ليكون الأمر للأجيال . وامتنق أبو حذيفة سيفه وخرج إلى المبارزة ، ولكن منعه الرسول ، فأطاع ، وما كان أصحاب رسول الله إلا أكثر الجنود طاعة بل فناء في قائدهم العظيم .

ووقف أبو حذيفة ينظر إلى المبارزة ، وفيها قتل أبوه وأخوه وعمه ، ولكن ما النفس الإنسانية ؟ أليست هي مجموعة من العواطف

(١) المارقين : الخارجين عن الملة .

والانفعالات والمشاعر؟ ولقد تحطم هذا كله في نفس أبي حذيفة ،
وأثار مزيجاً من الحزن والألم والغیظ في نفسه ...

والتحمت قريش مع المسلمين فقال رسول الله ﷺ : « إني قد
عرفت أن رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم
بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فليقتله ، ومن لقي
أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس
ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله ، فإنه إنما خرج
مستكراً » ولقد سمع أبو حذيفة هذا ، وأبوه ألم يخرج هو الآخر
مستكراً؟ ونسى أن أباه هو الذي بدأ التراع وأثاره وصاح : « أقتل
آباءنا وإخوتنا وترك العباس ، والله لن لقيته لألجمته ^(١) بالسيف » .
وإن رسول الله ﷺ ليسمع هذا فينادي عمر ويقول له : « يا أبا حفص ،
أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف » ؟ فقال عمر : « يا رسول
الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق » . فأشفق عليه
رسول الله ﷺ ونهى عمر عن قتله وقال : « لقد رأى مصرع أبيه
بعينه » .

* * *

(١) لألجمته : لأقتله .

أبو حذيفة بن عتبة في ميدان القتال يضرب يميناً وشمالاً ويحطم قريشاً تحطيماً . ماذا فعلت - أبا حذيفة - فوقفت تعارض رسول الله ﷺ وتحاده ، وتعصى أمره ، هذا الأمر الآتي من السماء ، أثنتك الآن كواحد من هؤلاء المنافقين الذين يؤذون رسول الله في المدينة ، أو ككافر من أولئك الكفرة المجرمين ... من أبوك هذا ؟ ومن عمك ؟ ومن أخوك بجانب تلك الشعلة الأبدية التي اعتنقتها والتي يحملها رسول الله من ربه ؟ ما أمر رسول الله إلا وحيٌ أتى من السماء ... والعباس بن عبد المطلب إنه لمسلم في أعماقه ، وإنه لأكبر عامل مثبط بين المشركين يبعث بأخبارهم إلى رسول الله ﷺ ويعمل على خذلان الكفر في موطن الكفر ، فما لك تعصى أمر رسول الله فيه ، وتريد أن تلجمه بالسيف - ما خير العيش بعد هذا ؟ !

أيتها النفس اللوامة التي تحاكمين وتعاقبين ، رفقاً بي قليلاً ، فلقد أظلمت أمام عيني الحياة ، وما أرى فيها الآن إلا سرايباً خداعاً ، وتكشفت الحياة أمام ناظري ، فإذا هي غرور دونه أى غرور . فإنه عمل صالح ، وحياة كلها طهر وإيمان أضععتها اليوم وفي لحظة - فنكثت على أعقابك !

وانتهت بدر ... وقد أبلى فيها أبو حذيفة أحسن البلاء ، وعرض

نفسه للموت أكثر من مرة ... ووقف بجانب الرسول خاشعاً متصدع القلب .

ثم حفر المسلمون لقتلى المشركين قليلاً ، وأمر رسول الله ﷺ أن يلقوا فيه ، وفي تلك اللحظة أخذ عتبة بن عتبة فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تغير .

- يا أبا حذيفة ، لعلك دخلك من شأن أهلك شيء .
 - لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وجِلماً وفضلاً ؛ فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنتني ذلك ... فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً .

* * *

أليس في هذا عفو تام عن أبي حذيفة ؟ ! أو لم يكن قتاله في بدر شافعاً له عند نفسه اللوامة ؟ أبداً ... أبداً ... إلى انتهاء الحياة !!
 وها هو ذا يقول : « ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة ! » .

ياله من قلب إنسانى علا فوق القلوب ، فما عاد ينظر إلى الحياة إلا كخطيئة يجب التكفير عنها ! إن أيامه لمضى وهو يحيا فى دنيا النادمين .
والحرب تَسْتَعِرُّ بين رسول الله والمشركون ، وأبو حذيفة يطلب الشهادة فى كل موضع ؛ ولكنه لا يظفر بها ... فى أحد ، وفى حنين وقف كالأسد يدافع عن دين الله ، بل فى جميع المغازى .
وذهب الرسول إلى الرفيق الأعلى وهو راض عن أبى حذيفة كل الرضا ، غير أن أبأ حذيفة مازال خائفاً من كلمته أيضاً . ودعا خليفة رسول الله ﷺ المهاجرين والأنصار إلى الجهاد وقتال المرتدين من بنى حنيفة ؛ فأسرع الصفوة المختارة من المجاهدين والأنصار وفى مقدمتهم أبو حذيفة .

وقاد خالد بن الوليد الجيش إلى بنى حنيفة ، وانقض مسيلمة الكذاب على المسلمين بجيوش كثيفة من المشركون ، وكانت الواقعة صفحات ثلاثاً : أما الصفحة الأولى فقد هزم المسلمون فيها ، وهنا خرج خالد من معسكره وصاح : « ومحمداه » ، فتذكر الأنصار والمهاجرون عهودهم ومواثيقهم ، وحمل زيد بن الخطاب راية المهاجرين وتقدم ، وهنا بدأت الصفحة الثانية ، وفيها ثبت المسلمون ، واستشهد زيد ، فحمل أبو حذيفة لواء المسلمين وصاح

فيهم : « يا أهل القرآن ، زَيِّتُوا القرآن بالفعال » . وهجم المسلمون ، واستشهد أبو حذيفة ، وهنا بدأت الصفحة الثالثة ، فقد غلب المسلمون بنى حنيفة ، وقتلوا مسيلمة الكذاب ، وتمت كلمة ربك الحسنى .

وفي ساحة القتال .. نام أبو حذيفة بن عتبة نومه الأبدية ، ومربه المسلمون يلمسون من حياته ومن موته أبلغ العظات ... فهنيئاً لك أبا حذيفة حياة المجاهدين الأتقياء ، وهنيئاً لك أبا حذيفة جزاء الشهداء الأبرياء !

فارس الخنزرج ...

« إيه يا منبع القوة ، يا فارس الخنزرج ، مازالت
الأجيال تردد لنا ولمن بعدنا ... أنه ارتوى من نبع
الخلود - حتى فاض ، فأذا الدنيا وعبادها
خاضعون لفيضه » .

ألا تنظر إلى الضوء .. الضوء السارى من وراء الآفاق مبشراً بعوالم
جديدة خافية عن أعين الضلال والهائمين فى هذا الوادى السحيق ...
وادى الحياة ؟ !

ألا تستمع إلى القلب الخفاق ... الذى يردد على نايه العظيم ألحان
الخلود ؟ !

ألا تستمع إلى الصوت المنبعث من حراء ... يحدث عما كان
وما سيكون وما هو كائن ؟ !

ألا إنه الصوت الإلهى ، نادى به المبعوث من مبدع الأكوان ،
فاخترق الحجب ، ونفذ إلى الأعماق ... سار ثم سار حتى أودع
الصدور الحافظة من أهل يثرب ... ألا تستمع إليه أيها الفارس الذى
رهبه الناس ، وانحنى لسطوته جبابرة الصحراء ؟ ألا تستمع إليه مدوياً

مؤذناً بثبات الحقيقة ؟ ! إيه أيها الفارس الرهيب ! أما فكرت من قبل في غاية هذا الكون ومنتهى تلك المصائر ؟ ! أما تكشف لك سر الأسرار - سر الحياة والموت ؟ ! لم نحيا ؟ وإلى أين نمضي ؟ ... لقد أتت الحلول أخيراً تقدم لك فياضة ، فأقبل على النبع لترتوى . فقد طال الظمأ والهوى إلى الارتواء .. وسرعان ما أقبل الفارس الرهيب - فارس الخزرج « أبو دجانة » ، فارتوى من نبع الخلود ... ارتوى حتى فاض ، فإذا الدنيا تخضع لسيفه البتار - وتكتل في صحائفها الباقيات خلوداً لا ينتهى .

* * *

آمن « أبو دجانة » سمالك بن خرشة إيمان الأقوياء ، وأدرك زعيم الأنبياء هذا فجعله في الصدارة من الصحابة ، ولكن أبا دجانة ما أخذه الغرور ولا عظم به العجب . إنه يسير في إطراقة المؤمنين ... إطراقة لله فحسب ، وخشوع يملأ ذرات روحه فيجعلها صافية وادعة ، وهكذا كان فارس الخزرج الرهيب الذى دوى اسمه في بوادى العرب وصحاريها .

* * *

ارتفع اللواء .. اللواء الذى لا ينحني أبداً الأبدى ... اللواء الخالد

السرمدي ، لواء الحق المبين ... كتب عليه بأحرف من نور ونار ...
 هذا لواء سيد المرسلين . ارتفع اللواء ولا ينحني ، والتحمت الصفوف
 وفي وسطها « أبودجانة » ، وعلى رأسه عصاية حمراء ... عصاية
 الموت ..

كان الشعلة المحرقة التي لا تحترق ، وكان الصاعقة المتحركة التي
 لا تقف فيها الحركة ، وكان الحركة المستمرة التي لا يوقفها سكون .
 ما لأبناء الأرض وعبادها من قريش يفرون من أمامه ! ... إنهم تناسوا
 الحكمة الخالدة يوم لقوه .

إنه ارتوى من نبع الخلود ... حتى فاض ، فإذا الدنيا وعبادها
 خاضعون لفيضه . تلك صحيفة « فارس الخرج » في جيل أحد ...



ارتفع اللواء .. لواء رسول الله ... ورسول الله بين الصفوف ، وفي
 يده سيفه ، ثم قال من يأخذ هذا السيف بحقه - فقام إليه فرسان
 المسلمين فمنعهم . وهنا سألوه : وما حقه يا رسول الله !

فأجاب : أن تضرب به في العدو حتى ينحني .
 فأحجم القوم . وهنا قام « أبودجانة » وقال : أنا آخذه يا رسول
 الله بحقه . فأعطاه إياه .

وهنا أخرج عصابة حمراء ، فتعصب بها ، فقالت الأنصار :
 « أخرج أبو دجانة عصابة الموت » ! وهكذا كانت تقول له إذا تعصب
 بها . وتزاحف الجيشان وتصافحت السيوف .

* * *

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسيف لدى النخيل
 ألا أقوم الدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول .
 استمعها المسلمون « وأبودجانة » يترنم بها وسط الصف ،
 والكافرون يفرون من حوله كأنهم الحُمُرُ المستَغْفرةُ الفارة ، وصرع
 أبطال القرشيين تحت قدمه حتى وصل إلى كافر من الكفرة ، فحمل
 عليه قَوْلُول ، فإذا هى امرأة ، فلم يقتلها ، إنه أكرم سيف رسول الله
 صلوات الله وسلامه عليه أن يضرب به امرأة .

* * *

ارتفع اللواء ... لواء رسول الله ، وقد فر من حوله المسلمون ، ولم
 يثبت إلا من عصمه الله ، وفي مقدمتهم أبو دجانة . فإذا ما أقيمت
 كتائب الكفر تصدى لها هو وفارس عبد مناف - على بن أبى طالب -
 حتى قضيا على الكثير منها ، ثم انهمر القرشيون من كل جانب على
 رسول الله يقذفونه بالنبال . وهنا أقبل أبودجانة على رسول الله وجعل

نفسه ترساً له ، والنبال تقع في ظهره ، وهو منحني لا يشعر بالآلام والأوصاب . وهنا بايع الرسول على الموت ... ووهب له نفسه وروحه .. صائحاً بتلك الكلمة التي كتبها له الأجيال : « نفسى دون نفسك ، وعينى دون عينك ، والسلام عليك غير مودع » .

وكم فرع القرشيون لتلك الروح ... روح أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ، تلك الروح التي تبدو في الملمات غير جزعة ؛ غير متعلقة بالوجود الأرضي ، وهو منتهى أملهم وغايتهم ... وهؤلاء هم الكافرون بالحق . تناسوا حكمة باقية أبد الزمان : أن صحابة الرسول - وفي مقدمتهم أبودجانة - قد ارتووا من نبع الخلود حتى فاض ، فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضهم .

وتلك صحيفة « فارس الخزرج » في جبل أحد .

* * *

أى صحائف كتبها فارس الخزرج بعد ذلك ؟ إنها أرفعها وأخلدها ... في جميع مشاهد الرسول ، لم يتخلف عن واحدة . بل كان فيها الفارس المجلى ، ثم كان الأمر لأبى بكر بعده ، وارتدت العرب ، وعلى رأسهم بنو حنيفة ، وسار إليهم المسلمون ، ومادت الأرض هناك بالقتلى والأشلاء ، وأبودجانة يصول صولة الأسد ،

متذكراً عهوده الخوالى ، عهوده مع الكائن النوراني الأعظم ، الذى
بعث فأعطى ، ثم مضى ، ألا من وصال ، ألا من قرب حول الحوض
الموعود .

وأبلى أحسن البلاء . وصناديد بنى حنيفة يهاجمونه كتلا متراسة
فينكل بهم تنكيلا وهو فى حلمه السرمدي .

ولجأ المشركون أخيراً إلى الحديقة وتحصنوا بها ، فألقى المسلمون
أبطالاً منهم إليها ، كان أولهم أبا دجانة ، وحارب أبو دجانة حتى تمكن
المسلمون من الدخول ، وفى تلك الأثناء كسرت قدمه ، ولكنه استمر
فى القتال ، وقد أصابته الجراح حتى قتل بعد أن رأى نصر المسلمين .
وتلك كانت صحيفته الأخيرة .

إيه .. يا منبع القوة ، يا فارس الخرج ، مازالت الأجيال تردد لنا
ولن بعدنا : أنه ارتوى من نبع الخلود حتى فاض ، فإذا الدنيا وعبادها
خاضعون لفيضه !

فتنة الأشراف

« تحت ألوان هائلات من العذاب رجعوا عن دينهم إلى دين الطاغوت والكفر ، لا بقلوبهم ولكن بألسنتهم ، فأظهروا الكفر وقلوبهم كانت عامرة بالإيمان ... وفي الرياض الخالدات سيحيون ... لا لغو هناك ولا تأثيم ، بل تزفهم الملائكة في أعالي السماء ... سلام عليكم ... سلام عليكم ، وطوبى لكم يوم الميعاد ! » .

الشُّوَاظ المحرق يتزل من لهيب هذه الشمس على بيوت مكة فَتَرُدُّهُ سُقُف بيوتهم ، ويجلس القرشيون في ظلال ناعمين ، أما عابرو الطريق في تلك اللحظات القاسيات من وجه النار فكانوا يسرعون إلى حيث يبتغون مأوى من هذا الهجير القاسي ، ونحلت طرقات مكة من الناس ، ولم يعد ثمة رجل أو امرأة ، وهدأت الحركة ، وساد السكون ، سكون أشبه بسكون الليل ، لكن يمتاز عنه بقساوة جوه واختناقه . وفي وسط هذا السكون كان يسمع لهْثٌ مخزن . كانت الشمس تطل من سقف بيتين أو ثلاثة على رجال قيدت أقدامهم

بالحديد ، وتعرضت أجسامهم لضوء الشمس القاتل ... كانت تسمع دقات قلوبهم وهي ترتفع وتنخفض ، أصواتهم لاهثة متعبة ، ولكن لا تأوّه ولا أنين ... افترسهم الألم ، وأضناهم الحزن والعذاب ، فإذا ما أقبل عليهم أشهدهم وخز الضمير .. كان هؤلاء هم المفتونين من أصحاب محمد رسول الله ... وكان من بينهم هشام بن العاص ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وسكّمة بن هشام بن المغيرة وغيرهم ... أولئك الأولون من صحابة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

تحت ألوان هائلات من العذاب رجعوا عن دينهم إلى دين الطاغوت والكفر ، لا بقلوبهم لكن بألسنتهم ، فأظهروا الكفر ، وقلوبهم كانت عامرة بالإيمان ، وكأن قريشاً أدركت ثباتهم على دينهم فوهبتهم الحياة فقط ، وسلبتهم الحرية والحركة .

• • •

هنا في تلك البلاد المجدية ... كانت قوة الظلام وقوة النار تتنازعان ، وتضطرم نيران العداوة بينهما ... وكان من عباد الظلام العاص بن وائل السهمي ، غلظ قلبه واستحوذ الشر عليه . وكان في قلبه من الخبث والدهاء ما جعله من أفذاذ العرب ودهاتهم

الماكرين ... وكم تغفن العاص في إيذاء المسلمين ! وتشهد مكة يوماً موقفاً له مع خَبَّاب بن الأَرْتِ صاحب رسول الله ، فقد كان خباب قَيْنًا ^(١) بمكة يعمل السيوف ، كان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له حتى كان له عليه مال ، فجاءه يتقاضاه ، فقال له : يا خباب ، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟ قال خباب : بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار ، فأقضيكَ هناك حقك ، فوالله لا تكون وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظاً في ذلك ، ونزل الوحي على رسول الله :

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنُزِئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) ^(٢) .

وزاد العاص لجأ ^(٣) في الطغيان والإثم وعداوة الرسول ، ولكن

(١) قيناً : حداداً .

(٢) سورة مريم : ٧٧ - ٨٠ .

(٣) لجأ : تمادياً .

الرسول حين يراه يقول : « ابنا للعاص مؤمنان ... هشام وعمرو » ،
 أما هشام - وكان أصغر من أخيه عمرو - فقد آمن ، وتحمل هشام من
 عَمَّت أبيه وأخيه عمرو الشيء الكثير ؛ فلما أمر النبي ﷺ أصحابه
 بالهجرة حتى هاجر هشام إلى الحبشة ، في الهجرة الثانية ، ثم عاد إلى
 مكة حين بلغه بدء هجرة الصحابة إلى يثرب ، واتفق مع اثنين من
 الصحابة هما عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة على الهجرة . يقول
 عمر : « اتعدت ^(١) - لما أردنا الهجرة إلى المدينة - أنا وعياش بن
 أبي ربيعة وهشام بن العاص التناضب ^(٢) من أضاءه بنى غفار فوق
 سرف ، وقلنا أننا لم يصبح عندها فقد حبس ، فليمض صاحباه ،
 فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب ، وحبس عنا
 هشام ، وفتن فافتن » .

أدرك العاص إذن أن ابنه سَيَقَرُّ بدينه إلى المدينة ، فأرصد له
 الأرصاد ، حتى إذا همَّ بالهجرة في الصباح قبض عليه وسجنه ،
 وخضع هشام لهذه الألوان المهلكة من العذاب ، فنطق بكلمة الكفر .

* * *

(١) اتعدت : تواعدت .

(٢) التناضب : اسم مكان .

وهاجر عمر وعياش حتى وصلا إلى المدينة ، ونزلا في بني عمرو
ابن عوف ، وخرج أبوجهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش ،
وكان ابن عمهما ، وأخاهما لأُمهما ، حتى قدما المدينة ، ورسول الله
ﷺ بمكة ، فكلماه وقالاه : إن أمك قد نذرت ألا يمِس رأسها
مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك . سمع عياش
هذا ، فذكر أمه ، فَرَقَّ لها ؛ ولحظ عمر العظيم هذا ،
فقال : « يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك
فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد
عليها حرمكة لاستظلت » . ولكن عياشاً الرقيق القلب قال : أبر قسم
أُمي ، ولي هناك مال نأخذه . ويعود عمر العظيم فيقول : إنك لتعلم
أنى أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .
فأبى عياش إلا أن يخرج معها ، فلما أبى إلا ذلك قال له عمر : أما
إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقة نَجِيية ^(١) ذُلُول ^(٢) ،
فاحزم ظهرها ، فإن رابك ^(٣) من القوم رَيْب فأنجُ عليها .

(١) نجية : نفيسة كريمة يسابق عليها .

(٢) ذُلُول : سهل الانقياد .

(٣) رابك : أصابك الشك .

فأخذها عياش وسار مع أبي جهل وأخيه حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبى ناقتك هذه ، قال عياش : بلى ، ثم أناخ وأناخا ، ليتحول عليها فلما استنوا على الأرض ، هجما عليه وأوثقاه ، ثم دخلا به مكة نهراً ، ومضوا به فى الوثق ثم صاحبا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهاكم ، كما فعلنا بسفينا هذا ، ثم أخذوا يذيقونه العذاب ، حتى رجع ظاهراً إلى الكفر .

وأقبل سلمة بن هشام بن المغيرة من أرض الحبشة ، وأراد اللحاق بالرسول ، فحبسه أبو جهل وأجاعه وأعطشه ، فافتن .

ونادى النضير فى قريش إلى الحرب ... إلى قتال محمد فى بدر حيث نستأصل شأفته ^(١) وينتهى أمره . ويشعر القرشيون أن سلمة وعياشاً وهشاماً لن يكونوا إلا عوناً لمحمد فى حربهم معهم ، وأن من الخير أن يبقوا فى قيودهم فى مكة ، وإلا تلمسوا الفرص للانضمام إلى الرسول . وبقوا فى مكة حقاً ، ولكن فتية آخرين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا فافتنوا وعادوا إلى الكفر ، ففروا من المدينة حين علموا بخروج محمد إلى قريش - وقالوا عن محمد وصحبه - لقد غرَّ هؤلاء دينهم ، وهناك فى

(١) نستأصل شأفته : المراد نقضى عليه القضاء الأخير .

جبل بدر قتلوا جميعاً . وأطل الوحي على رسول الله ينادى :
(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا
كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً
فَتَهَاجَرُوا فِيهَا) (١) .

أما عياش وسلمة وهشام ، فكانوا في قيودهم في مكة يحتملون من
الأم ما لا يحتمله البشر ، وأتاهم ضيف جديد .

* * *

خرج الوليد بن الوليد بن المغيرة كافراً يوم بدر ، وقاتل مع القرشيين
قتلاً شديداً ، وهو يعلم أن قومه على ضلال مبين ، ولكن هي نزوة
العصية عند العربي ، وانهمز القرشيون ، وأسر الوليد ... أسره عبد الله
ابن جحش . وخرج خالد بن الوليد وأخوه هشام لافتدائه ، فطلب
عبد الله بن جحش أربعة آلاف ، فأبى خالد ، ولكن هشاماً قبل ،
وقال لخالد : إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبى فيه إلا كذا وكذا
لفعلت . وطلب الرسول لافتدائه شبكة أبيه الوليد ، وكانت الشبكة
درعاً فضفاضة (٢) وسيفاً وبيضة (٣) ، فأتيا بها إلى المسلمين فلما قبض

(١) سورة النساء : ٩٧ .

(٣) بيضة : خوذة .

(٢) فضفاضة : واسعة .

المسلمون ذلك خرج إخوة الوليد به حتى بلغا « ذا الحليفة » ، فأُفلت
 منها وعاد إلى الرسول ﷺ وأعلن إسلامه ، ثم عاد إلى إخوته فقال له
 خالد : هل كان هذا قبل أن تفتدى وتخرج مأثرة أبيتنا من أيدينا ،
 فاتبعت محمداً ، إن كان هذا رأيك ؟ فأجابه الوليد : ما كنت لأسلم
 حتى أفتدى بمثل ما افتدى به قومي ، ولا تقول قريش إنما اتبعت
 محمداً فراراً من الفدية . ثم سارا به إلى مكة وهو آمن لها ، فما وصلا
 إلى هناك حتى أوثقاه وحبساه . وهكذا نزل الضيف الجديد على
 المفتنين ، وقد افتن الوليد كما افتنوا .

* * *

حديث يسر به المسلمون إلى أنفسهم عن هؤلاء المفتونين ، ويحدث
 المفتونون به أنفسهم ... حديث نفس قاس يتلخص في تلك الكلمة
 التي قالها عمر العظيم : « ما الله بقابل ممن افتن صرفاً ولا عدلاً
 ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم » . هذا
 ما يردده المسلمون وفي مقدمتهم عمر ، ويقولونه المحبوسون أنفسهم ،
 حتى أقبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة فأنزل الله عليه :
 (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ
 إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ » وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ

وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قُبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ^(١) .
 فكتبها عمر بيده في صحيفة ، وبعث بها إلى هشام بن العاص .
 وتسلم هشام الصحيفة ... وكان أهله قد سمحوا له ببعض الحرية ،
 حين طال السجن والقيد عليه ، فخرج إلى « ذى طوى » يسير هناك
 ويجلس ، يصعد الجبل ويهبط ، وهو ينظر إلى الرقعة ، ثم ينظر إلى
 السماء ، ويحاول تفهمها ويقول : « اللهم فَهِّمْنِيهَا » . فألقى الله في
 قلبه أنها نزلت فيه ، فجلس على ناقته ومضى يطوى البيد^(٢) إلى رسول
 الله ، وقابل الحبيب أحبته الخالد بن .

* * *

هذا رسول الله ﷺ يدعو في دُبر^(٣) كل صلاة : « اللهم أنج
 سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد وضعفة المسلمين الذين
 لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » ، ويسمعها الصحابة منه كل
 صلاة . وفي فجر يوم صاف رفع النبي الأعظم رأسه من الركعة من
 صلاة الفجر ، ثم نادى : « اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام

(١) سورة الزمر : ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) البيد : الصحراء جمع بيداء .

(٣) دبر : عقب .

وعياش بن أبي ربيعة ؛ والمستضعفين بمكة . اللهم اشدّد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف .

وتقبل الله دعوة الرسول ، إذ أفلت الوليد من الوثاق ، وقدم المدينة ، وفرح المسلمون بمقدمه ، وسأله النبي الأعظم عن عياش وسلمة ، فقال له : تركتهما في ضيق وشدة ، وهما في وثاق ، رجل أحدهما مع رجل صاحبه ، وأقام الوليد في المدينة ، ولكن شوق رسول الله يلحّ عليه دائماً أن يرى صاحبيه عياشاً وسلمة ، فيقول يوماً : من لى بعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام ، ويسمعها الوليد فيقول : أنا لك يا رسول الله بهما . فقال له الرسول : « انطلق حتى تنزل بمكة على العيتين فإنه قد أسلم ، فتغيب عنده ، واطلب الوصول إلى عياش وسلمة ، فأخبرهما أنك رسول رسول الله ، وأن تأمرهما أن ينطلقا حتى يخرججا » .

فخرج الوليد من مكة مستخفياً ، فلقى امرأة تحمل لها طعاماً ، فقال لها : أين تريدلين يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين . فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسلق الجدار ، ثم أخذ مروة^(١) فوضعها تحت قيديهما ثم

(١) مروة : جمعها مَرَو وهي حجارة صلبة تعرف بالصوان .

ضربها بسيفه فقطعها ، فسمى سيفه لذلك « ذا المروة » ، ثم خرجا معه ، فحملها على بعيره ، وانطلق هو يسوق البعير ، وساروا في الطريق الذى سار فيه الرسول حين هاجر مخافة من الطلب ، وتتبعها خالد بن الوليد وفريق من قريش ، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق بهم . وفى أثناء الطريق عثر الوليد ، فدَمِيتْ أصبعه ، ولكنه لم يأبه بل نظر إليها وقال :

ما أنت إلا أصبعٌ دَمِيتِ وفى سبيل الله ما لقيت
ووصلوا إلى المدينة سالمين .

* * *

هذا الوليد بن الوليد ... السيد القرشى يدخل إلى المدينة فائزاً فرحاً بفوزه ، فقد حقق للرسول ما أراد ، وكم كان يقر عينه فى تلك اللحظة حين يرى الرسول الأعظم يستقبل عياشاً وسلمة ، وكان يشعر بتلك السعادة العظمى التى يحس بها المجاهدون حين يرون ثمرة جهادهم الخالد . ولكن الجسم كان قد أضنى وتحمل من وعث الطريق وشدته وعسفه ما ينوء به هذا الجسم الحديدى ، فحالبث أن انهار ، وأحس الوليد بفؤاده يتقطع شيئاً فشيئاً ، حتى توفى بين أيدي الصحابة راضياً ، مودعاً إياهم .

وعلمت. أم سلمة بوفاة ابن عمها فقالت : « غريب توفي في بلاد غربة » ، واستأذنت الرسول صلوات الله عليه وسلامه في البكاء على الوليد فأذن لها فقالت :

يا عين فابكي للوليد بن الوليد بن المغيرة

كان الوليد بن الوليد أبا الوليد فتي العشيرة

فسمعها الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقال : « لا تقولى هكذا يا أم سلمة ، ولكن قولى :

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)^(١) .

* * *

وعلمت « ضباعة » بنت عامر بفرار ولدها ، وانضمامه إلى رسول الله فقالت :

اللهم رب الكعبة المسلمة أظهر على كل عدو سلمه

له يدان في الأمور المبهمة كف بها يعطى وكف منعمه

وبقى سلمة مع الرسول ﷺ يشاهد معه المواقع ، ولا يتخلف عن شيء منها ... ثم خرج مع المسلمين إلى الشام حيث بعث أبو بكر الجيوش لجهاد الروم ، فقتل سلمة بمرج الصفر شهيداً في المحرم سنة

(١) سورة ق : ١٩ .

أربع عشرة في أول خلافة عمر بن الخطاب .
ومضى مع الخالدين ...

* * *

أما عياش بن أبي ربيعة فبقي مع النبي صلوات الله وسلامه عليه
بمجاهد أيضاً حتى توفي الرسول ، فخرج إلى الشام مجاهداً ، ثم رجع إلى
مكة فأقام بها حتى مات .

* * *

وعاش هشام بن العاص يحارب في سبيل الله ، مستلاً سيفه في كل
معركة ، ثم هاجر عمرو بن العاص ، وعاش الأخوان عيشة الأبطال
الميامين ، يتأيان عن كل فتنة ، ويقبلان في كل جهاد ... حتى توفي
الرسول ، وخرج عمرو بن العاص قائداً على جيش من جيوش
المسلمين ، وكان معه أخوه هشام ، واشتبك المسلمون مع الروم في
« أجنادين » ...

ورأى هشام من المسلمين بعض النكوص عن علوهم ، فالتقى
المغفر عن وجهه وأخذ يتقدم في نحر العدو وهو يقول : « يامعشر
المسلمين إن هؤلاء الروم لا صبر لهم على السيف ، فاصنعوا
كما أصنع » . فجعل يدخل وسطهم ، فيقتل النفر منهم وهو

ينادى : « يا معشر المسلمين إلىّ إلىّ .. أنا هشام بن العاص ، أمن الجنة تفرون ؟ !! » وهجم المسلمون كالأبطال حتى انهزمت الروم ، وانتهوا إلى ثلثة لا يعبرها مسلم إلا قتل ، فهجم هشام فقتل ، ووقع على الثلثة فسدها ، فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل فقال عمرو : « أيها الناس : إن الله قد استشهد به ورفع روحه إليه ، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل » ، ثم أوطأه هو وتبعه الناس حتى قطعوه إرباً . فلما انتهت الهزيمة على الروم ورجع المسلمون إلى معسكرهم كرّ إليه عمرو ، فجعل يجمع لحمه وأعضائه وعظامه ثم حمّله في نطع فواراه . ولما بلغ عمر بن الخطاب خبر قتله قال : « رحمه الله ، فنعم العون للإسلام » .

وبينا حلقة من قریش جلوس في دبر الكعبة إذ مر عمرو بن العاص يطوف ، فقال القوم : « هشام بن العاص أفضل في نفوسكم أم أخوه عمرو بن العاص ؟ وشعر داهية العرب بأنهم يتكلمون عنه ، فلما قضى طوافه أتى إلى الحلقة وقال : « ما قلتم حين رأيتموني ، فقد علمت أنكم قلتم شيئاً ؟ » . فقال القوم : « ذكرناك وأخاك هشاماً ، فقلنا : هشام أفضل أم عمرو » . فقال : « على الخير سقطتم ، سأحدثكم عن ذلك ، إني شهدت أنا وهشام اليرموك ، فبات وبت

ندعو الله أن يرزقنا الشهادة ، فلما أصبحنا رزقها وحرمتها ، فهل في ذلك ما يبين لكم فضله على ؟ » .

* * *

وفي الرياض الخالدات سيحيون ... لا لغو هناك ولا تأثيم ، بل
تزفهم الملائكة في أعالي السماء ... سلام عليكم ... سلام عليكم ،
وطوبى لكم يوم الميعاد !

عبد الله بن عبد الله بن أبي ...

« صورة من صور الفناء في الحق لم تعهدها
الدنيا ، ومثل من أرفع الأمثال يذكر هؤلاء
الذين أذلهم الحرص على الدنيا ومتاعها الزائل
وتعلقوا بالأهل والولدان فكانوا أدناً الجبناء » .

كانت القوافل تسير من جزيرة العرب إلى الشمال حيث أسواق
الشام المزدهرة بأنواع من حاجات الحياة وكماالياتها ، لا يعرفها العرب
في بلدهم الجذب ، ولكنهم يتطلبونها ويحملون منها ما يستطيعون . وإذا
ماسارت القوافل إلى الشمال مرت دائماً بيثرب ... المدينة السحرية
الغريبة التي يعيش فيها حيّان من العرب مع تلك الأمة اليهودية الغريبة
الأطوار ، وإذا ما أناخت القوافل في يثرب ذهب سادتها يتلمسون
المقام عند سيد العرب عبد الله بن أبي بن سلول بن مالك بن الحارث
الجزرجي في بيته الرفيع المنار . فإذا ماخيم الليل اجتمعت الحلقات في
بيت عبد الله بن أبي ، واجتمع التجار من كل مكان ، يتناقلون أخبار
العرب ويتسامعون أخبار الشام ، وفي وسط هؤلاء كان يجلس أبو عامر

الراهب الخزرجي ، ابن خالة عبدالله بن أبيّ ، يبشر بنبيّ جديد أظل زمانه ، ويعلم إيمانه به قبل مبعثه ، وأنه ناصره ومعينه . ويسمع عبدالله بن أبيّ هذا ، ويسمع غيره ، ثم يأخذون في أطراف من الأحاديث شتى ، فإذا ما انتصف الليل أسرعوا إلى بيوتهم أو إلى مضاجعهم التي أعدها صاحب الدار للقاصدين نحوه من أصحاب القبائل .

وفي وسط هذه البيئة المترفة المفرطة في الترف والغنى ، وفي ظلال تلك المجتمعات الغنية بأخبارها ، درج سن الطفولة والشباب « الحباب » ابن عبدالله بن أبيّ بن سلول . وكان عبدالله ينظر إلى ابنه الحباب وهو يكتمل رجولة وقوة ، ويفيض حياة وازدهاراً ... وقد وضع فيه آمال الحياة كلها ، ولم يعد يأمل في شيء سوى أن يجمع لهذا الابن الشرف والثروة والجاه والسلطان .

وجاء يوم « بُعَاث » ، يوم العواصف العاتية ، عواصف الموت والدمار التي حلت بالأوس والخزرج ، فاقتتلوا أشد القتال حتى كاد أن يفنى بعضهم بعضاً ... وانهمزت الخزرج آخر الأمر ، ولكن عقلاء الفريقين أوقفوا القتال بقاء على أنفسهم من الزوال ، وخوفاً من تسلط اليهود ثعالب المدينة .

ولكم كره عبدالله بن أبيّ هذه الحرب ، ولكم أراد أن يحول بينها ، ولكن هكذا كانت الأقدار ! وكان لا بد له أن يشترك فيها ويخوض غمارها . وقد خاضها ، وصلى^(١) بنارها ، وخاضها ابنه عبدالله واشترك في جميع وقائعها .

وأدرك الفريقان سوء ما فعلا ، ولكن بعد فوات الفرصة ، بعد أن ضعف الأوس والخزرج جميعاً ، وعلا اليهود مقاماً وجاهاً وثروة ، وفكر أشراف العرب في أمرهم . رأوا أن حرباً أخرى بينهم إذا ما ثارت لأى سبب كان فيها القضاء عليهم ، إذن فلا بد من الاندماج في وحدة تامة وقوة واحدة تقف في وجه اليهود . أجمعوا على هذا الأمر بعد تفكير عميق ، وقر رأيهم على أن يُتَّوَجَّعُوا عبدالله بن أبيّ بن سلول ملكاً عليهم ، وأخذوا يجمعون الذهب والخز ليصنعوا له تاجاً كما تصنع الأكاسرة .

وهنا أشرق قَبْسٌ من نور ... نور أَخَذَ بدأت العرب تتبينه في يثرب ، ولم يشعر به ابن أبيّ ، ولكن هذا القبس انتقل من بيت إلى بيت ، حتى كانت العقبة الثانية الكبرى ، وقد ذهب اليرثيون إلى مكة ، ليعاهدوا مشرق النور على الوفاء .

(١) صلى : احترق .

أما عبد الله بن أبيّ فقد ذهب إلى مكة مع قومه ، وقد أيقن أنه حين عودته سيتوج ملكاً على يثرب ، وكم كان يحلم وهو في رحلته بمُلك عريض سيقمه ، وينشر سلطانه في كل جزيرة العرب ، ثم يتركه لابنه الحباب من بعده .

ونام ابن أبيّ في مكة ، ولم يشعر بتلك البيعة الكبرى ، ولم يشعر بأن قومه يبايعون رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على الموت في سبيله . وعلمت قريش بأمر البيعة فأتت إلى عبد الله بن أبي فسألته عنها ، فأنكر ولجّ في الإنكار ، وأظهر الدهشة ... أشد الدهشة لكلام القرشيين .

وعادت قافلة يثرب ، ولما نأت قليلاً عن مكة علم عبد الله حقيقة الأمر ، فارتاع له ، وحاول أن يرد قومه عنه فلم يأبهوا له ، بل قابلوه - وهو ملكهم المرجو - أشد المقابلة ، وأغلظوا له في القول ، وأدرك عبد الله أن عظمته قد انتهت ، وأن ملكه قد زال ، وامتلأ هذا القلب الضعيف بالحقد والسخائم ، وعاد إلى المدينة ، وانتشر الإسلام في كل بيت من بيوتها ، حتى ابنه « الحباب » قد آمن وأسلم ، فلما رأى عبد الله هذا أسلم هو أيضاً ، ولكن كان إسلامه رياء ونفاقاً ، وأصبح بيته

موثلاً للمنافقين والمشركين ، يجتمعون لديه ويضعون خططهم ومؤامراتهم في رحابه .

ونأى ابنه عنه ، كره الحباب بن عبد الله أن يغمض أبوه عينيه عن الحقيقة الأزلية التي أتى بها رسول الله ، وأن يحاربها ابتغاء الدنيا ومتاعها الفاني ، وحقداً على هذا الملك الذي ضاع منه ... فتنكب صحبته وهجر داره .

وهاجر رسول الله إلى المدينة ، فازداد بغض عبد الله بن أبي له . أما الحباب فقد ازداد لله ورسوله حباً وإخلاصاً ، وقد سماه الرسول عبد الله . وعظمت مؤامرات ابن أبي لرسول الله ، والرسول يصبر عليها صبراً عجيماً ، لكن أى مأساة كانت تشتعل في صدر الابن ؟ هل يبقى على هذا الأب أو يقضى عليه فينهى هذا الشر الذي يصيب المسلمين منه ؟ !

ونخرج المسلمون إلى بدر ، وهناك أبلى عبد الله بن عبد الله أحسن البلاء ، وعرض نفسه للموت في كل موضع ، لعله يكتب صحيفة من صحائف الاستشهاد تَجُبُّ^(١) صحيفة أبيه المدنسة بالأوزار ، ولكن كتب الله له فيها الحياة .

(١) تَجُبُّ : المراد تمسح وتقطع وتقضى .

وخرج المسلمون إلى أحد ، وما وصلوا إليها حتى خذل عبد الله بن أبيّ الرسول ، وعاد بثلاث الناس . وفي قريش كان ابن خالته أبو عامر الفاسق الذي آمن بالرسول قبل مبعثه ، فلما بعث كفر به ، فكأن آل أبيّ اجتمعوا على حرب رسول الله ما عدا عبد الله بن عبد الله ، فقد شهر سيفه وانقض على أبي عامر ومن معهم من الخزرج قومه ، فأوسعهم ضرباً وتقتيلاً ، واشتد القتال وعبد الله بن عبد الله صامد فيه حتى أصيب في أنفه ، فأمره النبي ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب . وعاد المسلمون بعد أحد ، وعاد معهم عبد الله بن عبد الله ، وما زالت المأساة بعد تشتعل في صدر الرجل .

وأدرك سيد الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليه ، تلك المأساة الثائرة المشتعلة في نفس عبد الله ، فقربه وأمره على المدينة في إحدى غزواته .

* * *

وخرج الرسول إلى غزو بني المصطلق ، وانتصر عليهم ، وازدحم المسلمون على ماء بعد الموقعة ، فاختلف أجير لعمر يقود فرساً مع أحد الأنصار ، فتماسكا فصاح الأنصاري : يا معشر الأنصار ، وصاح الأجير : يا معشر المهاجرين .

استمع عبدالله بن أبيّ إلى هذا ، وكان قد خرج إلى الموقعة طمعاً في الغنيمة ، فانتهر تلك الفرصة ، ليوقع بين المسلمين ، وليشفي ما في نفسه من حقد وضغينة فقال : « أقد فعلوها ؟ قد كاثرونا في بلادنا ، أما والله لن رجعنا إلى المدينة ، لِيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل .. » ثم قال لقومه : « هذا ما فعلتم لأنفسكم ، أحللتموهم ببلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، والله لن أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم » .

وسمع زيد بن أرقم هذا ، فأخبر به رسول الله ﷺ ، وكان عمر حاضراً فقال : يا رسول الله ، مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال الرسول الأعظم : كيف إذ يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ ... ولكن أذن بالرحيل ، فارتحل ﷺ في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، ليقطع بالناس ما هم فيه ، فلقية أسيد بن حضير فسلم عليه وقال : يا رسول الله ، لقد رحلت في ساعة لم تكن ترحل فيها ! فقال : « أو ما بلغك ما قال عبدالله بن أبيّ ؟ » .

— ماذا قال !

— زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل ، فقال أسيد : والله لتخرجنَّ إن شئت ، فإنك العزيز وهو الذليل ، وسكت .

ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد منّ الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً . وعلم عبد الله بن أبيّ أن أمره قد افتضح ، فذهب إلى الرسول وأقسم أنه ما قال وماتكلم ، وذهب جمع من الصحابة للرسول وقالوا له : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام - أي زيد بن أرقم - قد أوهم . ولكن رسول الله أصر على الرحيل . ووصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وقد نسي الناس من فرط التعب حديث ابن أبيّ ، ولكن عبد الله بن أبيّ أقام معهم مصراً على الإنكار .

وأطل الوحي من أعلى السماء على رسول الله ، فترلت سورة « المنافقون » . وفيها إثبات لقول زيد بن أرقم :

(هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (١) .

وأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بعدها بأذن زيد وقال : هذا الذي أوفى الله بأذنه . واستمع المسلمون إلى تلك الآيات ، واستمعها

عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، فعلم أن رسول الله أمر بقتل أبيه ، فسار إليه وقال : يا رسول الله ، هو الذليل وأنت العزيز ، يا رسول الله إن أذنت لي في قتله قتلته ، فإن كنت فاعلا فرفني به أحمل إليك رأسه ؛ فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها أحد أبر بوالده مني ، ولكن أخشى أن تأمر به رجلا مسلماً فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حيّاً ، حتى أقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار ! ولكن رسول الله ﷺ قال له : « بل نحسن صحبته ، ونترفق به ما صحبنا ، ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ولكن برّ أباك وأحسن صحبته ».

ولم تسمع الأجيال صحائف من روعة وجلال وتضحية ورحمة أكثر من تلك الصحائف . واستمرت الثورة النفسية في أعماق عبد الله ابن عبد الله حتى مات أبوه ، ودعا رسول الله إلى الصلاة عليه فصلى ، ولكن الله أنزل :

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) ^(١) .
مات عبد الله بن أبيّ وانتهى أمره ... ولكن مازالت في نفس ابنه عبد الله ثورة مشتعلة الأوار على أبيه . ألم يكذب أبوه في صحائف الله

(١) سورة التوبة : ٨٤ .

رأس المنافقين ؟ وتلك الأجيال المتعاقبة من المسلمين ، ألم تلعه في كل حين ؟ وازدادت الثورة قوة ، فكيف السبيل إلى إطفائها ؟ ! خرج إلى كل الغزوات ، وأنفق معظم ماله لله ، ولكنها مازالت مستمرة ... وتعاقبت السنون .

وارتفع اللواء ... اللواء الخفاق في اليمامة ، حيث تقاوت جيوش الخليفة أبي بكر جيوش بني حنيفة ، وفر المسلمون أولاً ، ثم جمعوا صفوفهم والتحموا مرة أخرى . ولواء رسول الله يخفق فوق الرؤوس ، وفي مقدمة الصفوف عبدالله بن عبد الله ، واخترقت النبال الجسد العظيم ، فسقط ، وانتصر المسلمون آخر الأمر ، ووقفوا أمام الشهيد الكريم متأملين . لقد هدأت الثورة المشتعلة - الخاتمة - هدأت حين شربت من كؤوس النعيم ، ومرحت في رياض الخالدين !

عكرمة بن أبي جهل

« لقد كان في حياة عكرمة آية للناس - آية
الضمير المذهب المرفف ، فحين انكشفت له
الحقائق العليا وآمن ، أدرك بروحه الحساس
مقدار خطيئاته الماضية ، فأراد أن يعفى على
آثارها ما استطاع ، فصلى وصام وأنفق وجاهد ،
ثم بعث نهراً من دمه ودم قومه فأنهم كالآل ..
فبدد تلك الصخور القاسيات ، صخور
الخطايا » .

... وقف رسول الله ﷺ بجيشه العظيم أمام مكة ... ووقف
القرشيون منتظرين سفيرهم أبا سفيان ... حتى أقبل ثم صاح : يا معشر
قريش - هذا محمد قد جاءكم فمياً لا قبيل لكم به ، فمن دخل دار
أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل
المسجد فهو آمن .

وفزع القرشيون أشد الفزع ، وأسرع الكثيرون منهم إلى بيوتهم ،
ولكن عكرمة بن أبي جهل - وقد نذر نفسه لحرب رسول الله وخاض
كل موقعة ضده ، أبي أن يضع السلاح ، بل ها هو ذا يجمع أصحابه

لقتال رسول الله . وها هو ذا صاحبه حماس بن خالد الدائلي يقول
لامراته : لآتينك بخادم من أصحاب محمد .

وفي الخدمة وقف عكرمة بن أبي جهل بن هشام سيد بني مخزوم
وفارسها على رأس أشد القرشيين بغضاً لرسول الله ، وتحرك الجيش
الإسلامي العظيم .

وهجم خالد بن الوليد على عكرمة وأصحابه فسحقهم سحقاً ،
وفرّ عكرمة ومن معه من المشركين ، وعاد « حماس بن خالد » إلى
امراته ، فقابلته مستهزئة قائلة : أين الخادم ؟ ! فقال :

فأنت لو شهدتنا بالخدمه إذ فر صفوان وفر عكرمه

وأبو يزيد كالعجوز المؤتمه لم تنطق في اللوم أدنى كلمه

إذ ضربتنا السيوف المثلمه لهم زئير خلفنا وغمغمه

ودخل المسلمون - وعلى رأسهم سيد الرسل - مكة ، ففعا عن

أهلها ، ماعدا جماعة قليلة على رأسها عكرمة بن أبي جهل .

وكان عكرمة بن أبي جهل قد فر من مكة ... هذا سيد بني مخزوم

يطوى صحارى العرب ميمماً نحو اليمن طريداً فارّاً من وجه المسلمين ،

مفكراً فيما فعل في تلك الأعوام الطوال من معاداة لرسول الله وحرب

الله ، لا يدفعه إلى هذا إلا خوفه على هذا المجد المؤثّل أن يضيع من

يده ، وهذا الصرح المشمخر من مال ومتاع وسؤدد أن يزول عنه ، وقد ذهب كل هذا ، وانتصر أصحاب محمد رسول الله ، وأصبح لهم الأمر كما وعدهم نبيهم ، وكانت العاقبة لله . أما هو فقد انتهى به الأمر إلى مغادرة وطنه شريداً ، يهرب الموت على يد المسلمين في كل لحظة ، فَغَدَّ^(١) السير حتى وصل آخر الأمر إلى اليمن ، ثم ركب في سفينة تحمله إلى الحبشة ، وما سارت السفينة بهم قليلاً حتى أصابتها ريح عاصف ، وأشرفت على الغرق فقال أصحابها للركب : أخلصوا فإن آهتكم لا تغنى عنكم شيئاً هاهنا .

فقال عكرمة : إن لم ينجنى في البحر إلا الإخلاص فما ينجنى في البر غيره ، اللهم لك على عهد - إن أنت عافيتني مما أنا فيه - أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ، فلا أجده عفواً كبيراً .
وقد أنقذه الله حقاً فعادت السفينة إلى البر ثانية سالمة ، لكن كيف العودة إلى رسول الله ؟ وقد هم عكرمة إلى البحر ثانية ، ولكن هذه زوجه قد أقبلت من مكة إليه .

أسلمت أم حكيم زوج عكرمة وابنة عمه الحارث بن هشام يوم الفتح ، ثم استأمنت لزوجها من رسول الله فآمنه ، فخرجت مع غلام

(١) فعذ السير : أسرع في السير .

لها رومي للحاق به ، فراودها العبد عن نفسها ، فأطمعته ولم تمنه حتى أتت حياً من العرب فاستعانتهم عليه ، فأوثقوه حتى أدركت عكرمة ، فسألها عن أمر قريش ، فقالت : جئتك من عند أوصل الناس وأكرمهم ، وقد آمنك . فوافق عكرمة ورجع ، وفي أثناء الطريق أخبرته خبر الرومي فقتله قبل أن يسلم .

وكان موقفاً من أدق المواقف مقابلة عكرمة لرسول الله ، ولكن النبي الأعظم قام إلى عدوه اللدود وعانقه وقال : مرحباً بالراكب المهاجر .

إن عكرمة ليقص بعد ذلك أن عداوته المستعرة زالت في ذلك اليوم حين رأى النبي الظافر القادر ... يعفو ويصفح ، ثم يزيد في مقام الذين حاربوه مقاماً ، ولا يتخذهم عبيداً أو موضع السخرية والنكاية . وبهذا انتهت صحيفة أبي جهل السوداء ، لتبدأ صحيفة من أروع الصفحات . ما لقريش تنتقل من الكفر إلى النفاق ، ويظهر أهلها المشاركة الوجدانية القلبية لكل من عادى الرسول - رسول الله - ويتهامون في خاص أحاديثهم بهذا ؟ ما لهم يهزون بعد بالإسلام ، وقد كان في يد نبي الإسلام قطع رقابهم ، بل ما كان أيسر هذا عليه ، تشفياً بحق ، وانتقاماً لحوادث جسام لطخوا بها أيديهم ؟ ! ولكنه

عفا .. هذا الحلم الرقيق ، لقد نأى عكرمة عن قريش ، كما نأى سهيل
ابن عمرو عنها ، وعن كثير من البقية المنافقة من مشيخة قريش
الضالة . وهذا عكرمة يأتي رسول الله فيقول : لا أدع مالا أنفقت
عليك إلا أنفقت في سبيل الله مثله ! وتأخذ التوبة كل ذرة من روح
هذا الرجل وكل مكان من جسمه ... فلا يُرى إلا وعيناه لا تفارق
المصحف ، ولا يلمح إلا ساجداً لله راکعاً ... لكن ما لهؤلاء المسلمين
يقولون حين يلمحونه : هذا ابن عدو الله أبي جهل ... وأسرع عكرمة
إلى رسول الله ، فشكا له ، فجمعهم الرسول وقال لهم : لا تسبوا
أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي ، ونهاهم أن يقولوا : عكرمة بن
أبي جهل ، ثم استعمله الرسول على هوازن عام حج .

ذهب الرسول إلى الملاء الأعلى ... وكادت قريش أن ترتد ... لولا
رجال أخلصوا لله إسلامهم كعكرمة وسهيل ... وارتدت العرب
ووجهت إليها الجيوش ، وقاد عكرمة الجيش الذاهب إلى بني حنيفة ،
وقاتل هناك عكرمة ماشاء الله أن يقاتل .

ثم بعثه أبوبكر بجيشه إلى عمان ، حيث خاض مواقع هائلة مع

أهلها ، حتى خضع المرتدون ، ثم اقتحم مهرة ، وكتب الله له فيها النصر .

وانتهت حروب الردة ، فخرج عكرمة إلى الشام مجاهداً ، وكان له في كثير من مواقعها اليد الطولى . وقبل أن يخرج إلى الشام خرج أبو بكر ليستعرض الجيوش في الجرف على بعد ميلين من المدينة ، فبصر بجباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة فأنهى إليه ، فإذا هو بجباء عكرمة ، فسلم عليه أبو بكر وجزاه خيراً ، وعرض عليه المعونة فقال : لا حاجة لي فيها معي ألف دينار .

فدعا له أبو بكر بخير .

وفي البرموك ... وقف عكرمة يقول : قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن ، وأفر منكم اليوم ! ... ثم نادى : « من يبايعني على الموت ؟ » فبايعه عمه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، وابنه عمر بن عكرمة في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد ، وكان عكرمة يواجه الأُسنة والرماح حتى جرحت صدره ووجهه ، فقبل له : اتق الله وارفق بنفسك ، فقال : كنت أجاهد بنفسى اللات والعزى فأبذلها لها ، أفاستبقيها الآن عن الله ورسوله ؟ لا والله أبداً !

وتصافحت السيوف للمرة الأخيرة ... لقد مات عكرمة ومن معه
ماعدًا ضرار بن الأزور .

وحُمِلَ عكرمة وابنه عمر إلى خالد ، فوضع رأس عكرمة على
فخذِه ورأس عمر على ساقِه ... وقطر في حلوقهما الماء ... وهما ابنا
عمه ... ثم قال : زعم بن الحنتمة (أى عمر) أنا لا نستشهد !
وكيف ؟ .. ألم يدفع بنو مخزوم هذا الثمن العظيم : دم عكرمة وابنه
وعمه ؟ !

* * *

وفي بيت رسول الله في المدينة جلست أم سلمة تحدث عن رسول
الله ، فقالت : قال رسول الله ﷺ : رأيت لأبى جهل عِدْقاً^(١) في
الجنة ، فلما أسلم عكرمة قال : يا أم سلمة هذا هو !

* * *

ونادى المنادى في المدينة : استشهد عكرمة ، واستشهد ابنه عمر ،
وعمه الحارث ... وصمت الناس ...

لقد كان في حياة عكرمة آية للناس ، آية الضمير المعذب
المرهف ، فحين انكشفت له الحقائق العليا وآمن .. أدرك بروحه

(١) عِدْقاً : العِدْق كل غصن له شعب .

الحساس مقدار خطيئاته الماضية .. فأراد أن يعفى عن آثارها
 ما استطاع فصلى وصام وأنفق وجاهد ، ثم بعث نهرًا من دمه ودم قومه
 فأنهم كالأتى .. مبدأً تلك الصخور القاسيات .. صخور الخطايا .
 وهكذا نام ابن أبي جهل مطمئنًا آخر الأمر . نام مع الصديقين
 والشهداء !

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٩	آل ياسر
٢١	شهداء بدر
٢٧	سيد الشهداء : حمزة بن عبد المطلب
٤٧	مصعب بن عمير
٥٧	الطلل الخابي
٦٩	الأوفياء
٧٧	١- تحت اللواء - آل نسيه بنت كعب
٩٣	٢- تحت اللواء - أشراف بنى سلمة
١٠٣	٣- تحت اللواء - سعد بن الربيع - أنس بن النضر
١١٥	٤- تحت اللواء - ١- صور من أهل أحد
١٢٥	٥- تحت اللواء - ٢- صور من أهل أحد بعد التولية
١٣١	غسيل الملائكة
١٣٥	حبر اليهود

الموضوع

الصفحة

١٣٧	 السيد القرشي
١٤١	 سعد بن معاذ
١٥٥	 الأمراء : زيد بن حارثة
١٦٣	 جعفر بن أبي طالب
١٦٧	 عبد الله بن رواحة
١٧٥	 على ماء الرجيع
١٨٥	 أولاد أبي أحيحة
٢١٣	 سعد بن عبيد عالم الإسلام العظيم
٢٢١	 شهداء الجمامة : الفارسان
٢٢٣	 زيد بن الخطاب
٢٢٦	 معن بن عدى
٢٢٧	 سالم مولى أبي حذيفة
٢٢٩	 شجاع بن وهب
٢٣١	 شهيد نهاوند الأكبر : أمير مزينة
٢٣٥	 لواء مزينة
٢٣٦	 بطل نهاوند
٢٤٧	 الطفيل بن عمرو الدوسي
٢٥٩	 أبو حذيفة بن عتبة
٢٧٧	 فارس الخزرج

٢٨٣		فتنة الأشراف
٢٩٩		عبد الله بن عبد الله بن أبي
٣٠٩		عكرمة بن أبي جهل
٣١٧		الفهرس

٢٠٠٢ ١٥١٥	رقم الإيداع
ISBN 977-02-6243-9	الترقيم الدولي

١٢٠٠١ ٨٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج م ع .)